القرامطة والعدالة الاجتماعية



الكتاب: القرامطة والعدالة الاجتماعية

المؤلف : ياسر جاسم قاسم

الصنف: تاريخ

الطبعة الأولى ٢٠١٨ – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع

basimalyasiri١٠٠@gmail.com

الإدارة: الدكتور باسم الياسري

- قطر: الدوحة ٠٠٩٧٤-٥٥٨٩٨١٨٦

- العراق – بغداد ٠٠٩٦٤٧٧٣٨٠١٠٧٠٢

- تركيا - ٠٠٩٠٥٣٧٧٢٤٣٣٢٩٩

- الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: ٤٢٩٣

- **تصميم الغلاف: الفنان صالح الجادري واللوحة للفنان ضياء العزاوي**

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة ٢٠١٨

تسلسل الكتاب في الدار:

القرامطة والعدالة الاجتماعية

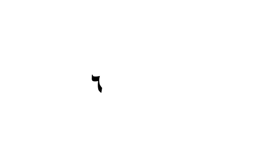
ياسر جاسم قاسم

مراجعة وتقديم

باسل محمد عبد الكريم

الاهداء

الى: حمدان بن الاشعث (حمدان قرمط) بمناسبة مرور اثني عشر قرنا على ثورة القرامطة ......



وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

قرأن كريم

الفقر لا يصنع ثورة، وانما وعي الفقير هو الذي يصنع الثورة، الطاغية مهمته ان يجعلك فقيرا ، وشيخ الطاغية مهمته ان يجعل وعيك غائبا .

كارل ماركس



جدول المحتويات



تقديم

الثورة الدائمة

ان تأريخ الصراع الازلي بين المستغِل والمستغَل يعود الى بدايات الحضارات الانسانية ، انه صراع القوي مع الضعيف ، صراع الاكثرية مع الاقلية ، صراع الاثنيات المهيمنة وتلك المهمشة ،انه صراع لا ينتهي.

فمن ثورة سبارتاكوس وقيادته لعبيد روما القديمة ،الى ثورة الزنج في سباخ جنوب العراق (البصرة تحديدا) والتي هيأت المناخ لثورة القرامطة وحركتهم، ومن كومونة باريس التي تزعمها العمال والمهمشون الذين عانوا من الاضطهاد والمهانة، الى ثورة البلاشفة ضد هيمنة القياصرة والاقطاع في روسيا ، ومن عصبة سبارتاكوس التي قادها كارل ليبتنخت وروزا لوكسمبورغ في بدايات القرن العشرين ضد الحكم الغاشم والمستغل ، للطبقة الحاكمة في المانيا ،الى انتفاضة الغموكة في احراش الهورفي الناصرية اواخر ستينيات القرن المنصرم والتي قادها خالد احمد زكي ضد هيمنة الانظمة المستغلة والدكتاتورية العسكرية ، كذلك تجربة الثورة الشعبية في امريكا اللاتينية منذ صعود النموذج الجيفاري الى حضور الكنيسة مع الحركات الثورية فيها، انها تجارب ليست منتهية وتتمخض دوما عن ارهاصات ثورية متعددة ، ربما لمدى ملائمة الواقع المحلي والعالمي، الذي شهد تراجعا واضحا في حركة اليسار العالمي مع صعود ملفت وخطير لليمين بأعتى رموزه الفاشية ، في اوربا وبعض الدول العربية التي شهدت صعود الاسلام السياسي وطرحه لمشروع اسلاموي يعود الى القرون الوسطى في محاولة اعادة انتاج تخلفه بعيدا عن المتغيرات الهائلة التي

عصفت بالعالم وبالرغم من ان افلاسه السياسي على صعيد الواقع الاجتماعي والاقتصادي(العراق مثلا) قد اثبت فشلا ذريعا في بناء الدولة الديمقراطية ودولة المواطنة المنشودة ، اننا نحاول عبر هذا البحث تسليط الضوء على تجربة ثورية ذات بذور اشتراكية جنينية تمتلك طموحات لبناء دولة العدالة الاجتماعية في فترة مبكرة من تاريخ الاسلام والمسلمين، ربما اهملها الباحثون ، او عمل مؤرخو السلطة على مر الازمنة على تشويه صورتها قيامها وحتى فترة قريبة.

لم يتسن لي وقتها (سبعينيات القرن الماضي) وقد كانت حلما ، حلما ظل يراودني طيلة اربعة عقود من الزمن ان اعيد قراءة هذه الحركة الثورية المبكرة واسلط الضوء على شخصية حمدان بن الاشعث "حمدان قرمط" هذه الشخصية الاشكالوية ، ان اتأمله ، ان احاوره، ان اكتب عنه، ان ارنو اليه، وهو يصوغ اللبنات الاولى للحركة، متلفعا بالقلق، حاملا بين اصابعه جمر الحقيقة ، يحدوه الامل لان يترك بصمته مع الثوار الذين سبقوه والذين سيأتون من بعده، ان يحفر تضاريس الارض التي عاش عليها ، وان يزرع وان يثمر ،ومرت السنين، وهاهو الباحث المثابر ياسر جاسم قاسم يقدم دراسته هذه بكل جرأة وثقة عسى ان تنال قبولا من القراء، والباحثين، لانه اعتمد منهجا مغايرا وطرق دروبا وعرة سلكاها معا بعنفوانه وشيخوختي فيها خروج على ما كتب عن هذه الحركة ، انني اثني على جهده هذا متمنيا له التوفيق .....

باسل محمد عبد الكريم

بغداد ٢٠١٨/٣/١٩

تمهيد

يأتي هذا الكتاب في سياق دراسة المهمشين في التأريخ ، او دراسة المسكوت عنه في التأريخ ،وحركة القرامطة وثورتهم كانت من المسكوت عنه بل من الذي تمت محاربته من قبل مؤرخي السلطة ، ان القرامطة اثروا كثيرا في المجتمعات التي ظهروا بها خصوصا في الشام والعراق والبحرين وامتدادات هذه الدول ، وهذه التأثيرات شغلت السلطات الحاكمة لسنين عدة ساهمت ثورتهم بشكل او بأخر بأرساء مفاهيم ما كان لها ان تولد في مجتمعات حكمها الاستبداد وكان على رأس هذه المفاهيم التي اشتغلوا عليها مفهوم العدالة الاجتماعية الذي سنحاول ابرازه في هذا الكتاب ، الذي اتبعت الخطة الاتية في كتابته:

حيث شمل الكتاب اثني عشر فصلا تتحدث عن الحركة بصورة تحليلية نقدية فكرية ، اذ تحدث الفصل الاول عن الحركة معرفا بها، والفصل الثاني ، تحدثت فيه عن اجتماعات (كلواذي) المؤسسة للحركة .اما في الفصل الثالث: فقد تحدثت عن قطب مهم من اقطاب الحركة وهم ال زكرويه وحروبهم وعلاقاتهم بال الجنابي وال حمدان.

الفصل الرابع جاء متحدثا عن الدولة التي اسسها القرامطة في البحرين، وعلاقة القرامطة هناك مع الفاطميين ، والبعد الاستراتيجي في تاسيس هذه الدولة وفق منطلقات اشتراكية مهمة ، ثم انتقلت للحديث عن المجتمع القرمطي في الفصل الخامس (مكوناته، مكانة المرأة فيه، الخ...) وفي الفصل السادس تحدثت عن حقيقة القداحيين وعلاقتهم بالقرامطة ، ثم جاء الفصل

السابع للحديث عن عقيدة الحركة القرمطية من ناحية اتباعهم العقيدة الباطنية ، رأيهم بالنبوة، والامامة .. الخ.

في الفصل الثامن ، تحدثت عن الاساليب التي اتبعها القرامطة في نشر دعوتهم والتي كان لها كبير الاثر في امتدادها لمساحات شاسعة من الدولة الاسلامية انذاك ، في الفصل التاسع تحدثت عن المزدكية والبابكية واثرهما في الحركة القرمطية ، اما الفصل العاشر فقد تحدثت عن العدالة الاجتماعية في هذه الحركة وكيف اثرت وتأثرت بحركات موازية لها ومواكبة من مثل (اهل الفتوة، الشطار ، الخ..) ، ثم جاء الفصل الحادي عشر ليؤسس لعلاقة اخوان الصفاء بالحركة ، ويتحدث عن اهم الاشارات التأريخية لعلاقة الاخوان بالقرامطة كمذهب وحركة ، وفي الفصل الاخير (الثاني عشر) تحدثت فيه ضمن مسعى لقراءة الحركة في ضوء (نمط الانتاج الاسيوي).

والسؤال المهم قبل ان نخوض في هذا الكتاب هو ان الحركة القرمطية طيلة تأريخها الطويل والمليء بالمواجهات الحادة مع العباسيين والفاطميين وكذلك اشتداد الخلافات والصراعات الداخلية ، هل استطاعت الحفاظ على وضوح برنامجها الفكري سواء في الدعوة او التطبيق ؟تلك مسألة يجب الانتباه اليها خصوصا وان اغلب المؤرخين يتناولون الاخبار العسكرية للحركة بمعزل عن دعوتها الفكرية مبتعدين عن اهمية الربط بين ما كانت تنادي به الحركة وبين ما وقع لها في مواجهاتها الخارجية او في صلب تطبيقاتها الداخلية .؟هذا ما سنجيب عليه في مباحثنا. انني في هذا الكتاب حاولت ان ابين فلسفة القرامطة الفكرية والاجتماعية قدر الامكان بعد ان جند المؤرخون من سنتهم وشيعتهم اقلامهم ضدها وكان معي في هذه المعركة الفكرية الكبيرة

الاستاذ باسل محمد عبد الكريم ... صاحب فكرة الكتاب واغلب مصادره والذي قام بمراجعته وقدم ملاحظات مهمة جدا عملنا عليها سوية طيلة كتابتي للكتاب ،كان مسرح هذه المباحثات لقاءات مستمرة في بغداد واتصالات بين البصرة وبغداد ،ان حركتهم حركة مهمة سيطرت على مدن كبيرة شملت البلاد الاسلامية واقضت مضجع الدولة العباسية، وقدمت لمجتمعات تلك الدول مفهوم العدالة الاجتماعية بشكله الكبير.

ياسر جاسم قاسم
البصرة

الفصل الأول

من هم القرامطة ؟

١.الحركة القرمطية :

هي حركة اجتماعية عملت على ان تكون العدالة الاجتماعية ديدن المناطق التي تحكمها وامنت بالاشتراكية في المال والاراضي ، والظروف التي ادت الى نشوء الحركة وكسب المؤيدين هي : تشاحن السلطان وخراب العراق وفساد البلدان فتمكن الدعاة من كسب الناس وسيطر الاتراك على الدولة العباسية ولم يبق للخليفة العباسي سوى ذكر اسمه في الخطبة وسك اسمه على النقود وعمت الفوضى البلاد بسبب سلطان الاتراك والفرس فأتاحت الفوضى السياسية مناخا لبذر بذور الدعوة القرمطية ان المشكلة الاجتماعية ازدادت حدة من جراء التحولات الاجتماعية والمشكلات الاقتصادية التي تفاقمت في هذا العصر ، وبعد رصد مواقف القوى الاجتماعية وما طرأ عليها ، يعتبرها البعض "عظم من عظام الاسماعيلية ولحم من لحمهم لا يختلفون عن غيرهم من فرق هذه الاخوية المشتتة الا بانهم كانوا يشتغلون بين العرب واخوانهم انباط العراق وسوريا وجزيرة العرب "[١] ونحن نعارض ان يكون القرامطة جزء من الاسماعيلية بل هم يختلفون عنهم كثيرا ، الا ان بدايتهم كانت اسماعيلية فهم اتباع لمحمد بن اسماعيل بن جعفر ويؤمنون بانه مختفي عن الانظار ، ويختلفون في امامة من جاء من بعده ، كما سنبين فالاسماعيلية تؤمن باستمرار الائمة من نسله .وقد اسس الحركة ابتداء حمدان بن الاشعث او "حمدان قرمط" الذي التقى بالحسين الاهوازي كبير دعاة

[١] - بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام،دار الروائع بيروت، بلا تاريخ، ص ١٥٩

الاسماعيلية في العراق واخذ منه ومن ثم شق طريقه الجديد في الثورة على الاوضاع القائمة.

لقد اثر القرامطة في مسيرة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العراق لانهم كانوا ثورة اجتماعية ، والثورة الاجتماعية تعد دائما اعلى اشكال الصراع الطبقي ،فغيرت لذلك ثوراتهم وتحركاتهم في نواحي عديدة من ارض العراق بنية التركيبات الطبقية والسياسية ، وقد فعلت فعلها ايضا في نفوس العامة الذين كانوا مادة القرمطية وجعلتهم يرفضون باستمرار وباشكال حادة مختلفة اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية المزرية، ويقول الدكتور طه حسين " فساد السياسة الاسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الاسلامي" [1] اذن ثورة القرامطة كانت نتيجة للظروف الاقتصادية المزرية التي كانت تعيشها طبقات المجتمع الفقيرة نتيجة زيادة الضرائب والاستغلال الذي رافق عمليات جبايتها ، ونتيجة للنظام الاقتصادي المربك الذي سارت عليه الدولة العباسية والذي ادى الى نشوء طبقتين اجتماعيتين متميزتين هما الطبقة الحاكمة المترفة والطبقة المحكومة المستغلة يقول بروكلمان" لا يعدل ترف الاولى من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع" [2] فلذلك ظهر القرامطة وكان انطلاقهم في ذلك نصرة الفقراء .

لقد كان حمدان قرمط المحرك الاساس والدايمو للحركة وبالتالي سار على نهج من سبقه من محرري العبيد كعلي بن محمد صاحب الزنج وقبله

[1] - مع المتنبي ، نقلا عن عبد اللطيف الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٨

[2] - م س،ص ٢٨

سبارتكوس الذي عاش حوالي ٧١ قبل الميلاد ، حمدان كان من نمط هؤلاء شجاعا جريئا ثائرا منتفضا على المقدس وعلى نهج الامامة وغير مكترث به ، بل كان مكترث بالفقراء مطالبا بحقوقهم ، وبالتالي ظلم هذا الرجل تاريخيا كثيرا وحاولت الكثير من المصادر تشويه حقيقته والذي سنأتي على ذكره بالتفصيل.

٢. اصل التسمية :

اصل قرمط ، مشتق من "قرمط" اي :غضب وعبس ، وقد اطلقها عليهم اعداءهم في العهود المبكرة من دعوتهم [١] والقرمطة مداناة الخطو ومقاربته ومنه قرمطة الكتّاب ، وقرموط وقرمود ضربان من ثمر العضاة وقرمطيط متقارب الخطو [٢] وعند الجوهري نجد ان القرمطة في الخط ، مقاربة السطور وفي المشي مقاربة الخطو ، واقرنمط الجلد اذا انضم بعضه الى بعض [٣] وفي القاموس المحيط للفيروز ابادي وتاج العروس للزبيدي: القرمطة في الخط ، دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور ، وقرمط الكاتب اذا قرب بين كتابته، والقرمطة في المشي :مقاربة الخطو ، يقال :قرمط الرجل في خطوه وتدانى مشيه، [٤] كما ويذكر ابن خلكان : القرمطي والقرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه الى بعض ، يقال:خط مقرمط ومشي مقرمط اذا كان كذلك.

---

[١] - عارف تامر ،القرامطة ، اصلهم ، نشأتهم تأريخهم، حروبهم، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلا تاريخ ص٧٧

[٢] - ابن دريد / جمهرة اللغة

[٣] - ديكويا ، القرامطة ، نشأتهم، دولتهم، علاقتهم بالفاطميين ، ت: حسني زينة ، دار ابن خلدون ، بيروت، ١٩٧٨ ص ١٦٤

[٤] - نقلا عن ديكويا ، م س ، ص ١٦٤

وقد قامت الحركة ابتداء في العراق على الشخصيات التالية :

... حمدان "مؤسس الحركة برمتها سنأتي على ذكره بالتفصيل .

دندان" دندان واسمه محمد بن الحسين وكان كاتبا للامير احمد بن عبد العزيز بن دلف في الكرج ويعتقد انه مول الحركة سنة ٢٦٦هـ بالمال واصله من الكوفة وانتقل الى الاهواز"

عبدان: العقل المفكر للحركة وفيلسوفها وسنأتي عليه ايضا ، وعرف بعبدان الكاتب ، وبعد وفاة الحسين الاهوازي وانشقاق حمدان عن ائمة سلمية ونهجهم اقترح عبدان على حمدان ان يشيع ان الامام قد قتل وان اولاد ميمون القداح قد استولوا على كافة المقدرات وبدأ حمدان وعبدان خطتهما في الانشقاق ...

وال زكرويه وسنأتي عليهم بالتفصيل كذلك .

ال الجنابي بقيادة ابي سعيد الجنابي . وقد حكموا البحرين والمناطق المحيطة بها الى البصرة.

٣.حمدان قرمط

اول ما ظهر في بغداد ، يقول عنه عارف تامر احد اهم مفكري الحركة " حمدان بن الاشعث من الكوفة كان يعتنق الافكار الاشتراكية التي كانت تصدرها اليه سلمية ، من تنظيف المجتمع من الوحشية والتعصب والهمجية والرق والاقطاع ،يقول الاستاذ عليان" كان صهره عبدان هو الرأس المفكر

للدعوة القرمطية وصاحب الكتب المصنفة" [1] ، ويشير بعض الدارسين الى ان حمدان "كان قبلا اكارا بسيطا يعتمل الارض لغيره ، جاء تلك البلاد مبعوثا من داع اكبر منه وانه بنى قرب الكوفة مركزا جديدا للدعوة الاسماعيلية سماه دار الهجرة" [2] وكان انصاره يسمون انفسهم المؤمنون المنصورون بالله .

تراس حمدان قرمط الحركة ما بين عامي ٢٦١هـ و٢٧٨ هـ دأب على تنظيم الدعوة واحكام خططها وفي عام ٢٧٨ ه أعلن الثورة على بني العباس ودحر جيوشهم الواحد تلو الاخر واستطاع ارساء قواعد دولة مستقلة في سواد العراق تولى حكمها حتى عام ٢٨٥هـ او ما قبلها. وتشير بعض المصادر الاسماعيلية على تلقيه العلم على يد الحسين الاهوازي في بغداد، الا ان الحقيقة انه التقاه في سواد الكوفة واتفقا على الدعوة وكما سنشرحه بالتفصيل .

اي ان الثورة كانت قد بدأت في عام ٢٧٨هـ والعباسيين أفلحوا بانهاء دولتهم في العراق بينما اخفقوا في إسقاط قرامطة البحرين التي ظلت دولتهم قائمة حتى سنة ٣٩٨هـ .

اما تأثيراته في نشر الدعوة:

١.ميمون اخاه نشرها في بلاد فارس وعرف انصاره هناك بالميمونية [3]

٢.ارسل ابو سعيد الجنابي من قبل عبدان الى جنوب فارس الغربي ووجهه حمدان فيما بعد الى البحرين بعد ان زوده بارشاداته ومنحه المال وتم

---

[1] - عبد الفتاح عليان ، قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٨

[2] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٦٢

[3] - البغدادي، الفرق بين الفرق.

هذا في كلواذي"الكرادة" فنجح ابو سعيد نجاحا كبيرا والذي كون دولة القرامطة الثانية في البحرين وعاصمتها هجر

لقد اعتمد هذا الثائر الاشتراكي حمدان بن الاشعث على القاعدة الشعبية من الفقراء ومن جنسيات وعقائد دينية مختلفة ، عكس ما اعتمد علية صاحب الزنج من شريحة العبيد فقط ، اذ كانت حركة حمدان اممية وقد عارض فكرة الفقهاء الدينية وفق مقولة (الأئمة من قريش) والذي عارضها قبلهم الخوارج واعتقدوا بأن الامامة تصلح حتى لو كان الامام عبداً حبشياً[1]

واغلب من انضم الى حمدان قرمط من الشيعة الاثني عشرية بعد ان ملوا من انتظار امامهم الثاني عشر !، الذي اختفى سنة ٢٥٥هـ حسب الرواية الشيعية ، ونجح حمدان بتوفير العدالة الاجتماعية والمساواة ورفع عن الجميع الظلم والعدوان .

وكان الطبري قد اتهم حمدان قرمط مؤسس القرامطة بعدة امور منها :

"ان الصوم يومان في السنة ،هما المهرجان والنوروز ، وان النبيذ حرام والخمر حلال، ولاغسل من جنابة الا الوضوء كوضوء الصلاة ، وان من حاربه وجب قتله ومن لم يحاربه ممن خالفه اخذت منه الجزية ولايؤكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب"[2] ويبدو من رواية الطبري هذه ان حمدان كان نباتيا وليس حيواني المأكل ، كما كان متلاعبا بما يحرمه الدين فهو يحرم النبيذ في حين يحلل الخمر هذه معادلة تبدر منه للتحايل على مفاهيم التحريم الدينية ....

---

[1] ـ نبيل عبد الامير الربيعي، القرامطة اول حركة اشتراكية في التاريخ الاسلامي، مقال منشور في الحوار المتمدن ، العدد٣٣٥٧، ٢٠١١

[2] ـ الطبري، ص٢٤٠

ويشير الطبري ان حمدان اتى من خوزستان واقام في منطقة النهرين و اوصافه "الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه وكان يدعو الى امام من ال بيت الرسول" [1]ويشير الطبري نقلا عن محمد بن داود" انه قال قرمط رجل من سواد الكوفة ، كان يحمل غلات السواد على اثوار له، يسمى حمدان ويلقب بقرمط، ، ثم فشا امر القرامطة ومذهبهم وكثروا بسواد الكوفة ، ووقف الطائي احمد بن محمد على امرهم والي الكوفة فوظف على كل رجل منهم في كل سنة دينارا ، وكان يجبي من ذلك مالا جليلا ، فقدم قوم من الكوفة فرفعوا الى السلطان امر القرامطة ، وانهم قد احدثوا دينا غير الاسلام، وانهم يرون السيف على امة محمد الا من بايعهم على دينهم وان الطائي يخفي امرهم على السلطان" [2]

كذلك واشتهر من انصاره شخصا يقال له(ابو الفوارس) اشتهر بجرأته حيث دار بينه وبين الخليفة المعتضد العباسي حديثا يتعلق بالخلافة حين ساله المعتضد عما يشاع من قول القرامطة بحلول روح الله وارواح انبيائه في اجساد زعمائهم فتعصمهم من الخطأ والزلل ، اذ رد عليه ابو الفوارس قائلا"يا هذا ان حلت روح ابليس فما ينفعك، فلا تسال عما لا يعنيك وسل عما يخصك، فقال المعتضد : ما تقول فيما يخصني؟ قال: اقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وابوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة ام هل بايعه احد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات ابو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس

---

[1] ـ محمد بن جرير الطبري، تأريخ الطبري ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج١٠، ٢٠٠٨، ص ٢٣٦-٢٣٧

[2] ـ المصدر السابق، ص ٢٣٩

ولم يوص اليه، ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة انفس ولم يوص اليه ولا ادخله فيهم فبماذا تستحقون انتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها[1] وبالتالي تتبين شجاعة ابي الفوارس واقدامه ومناظرته للمعتضد على الرغم من كون المعتضد خليفة يتحدث مع ابي الفوارس من منطلق قوة.

٤.عبدان: الكاتب وهو العقل المدبر للدعوة برمتها وقد كان صهر حمدان وحضر اجتماعات التأسيس اغلبها ، وقد تجلت مهارة حمدان قرمط في اختياره ، ويقول عنه الباحث (عليان)" هو من اخلص الذين قاموا بنشر هذه الدعوة واكثر من كتبوا عنها، وقد الف فيها الكتب الكثيرة، لتكون خير مرجع لاعوانه ولنبوغه في التاليف سمي عبدان الكاتب"[2]يصفه ابن النديم" هو اكثر القرامطة كتبا وتصنيفا وكل من عمل كتابا نحله اياه" [3] ولديه من الكتب عشرة منها سبعة غير معروفة" الرحى والدولاب، الحدود، الاسناد، اللامع، الزاهر، الميدان" اما الكتب المتداولة " النيران، الملاحم، المقاصد" ويضيف ماسينيون نقلا عن عليان كتابا اخر اسمه "البلاغ السابع" والذي سنتناول الكثير من افكاره في هذا الكتاب ولاشك ان عبدان قد دعا في كل هذه المؤلفات الى مذهب القرامطة . وقد وصفه النويري " كان فطنا خبيثا، خارجا عن طبقة نظراته من اهل السواد، ذا فهم وحذق، ولا يظهر غير التشيع والعلم" ووصف النويري ينم عن حقد تجاه شخصية عبدان .

---

[1] - ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص١٠٠ ، ١٢ جزء ، القاهرة، ١٨٦٨م ، نقلا عن عليان، م س ، ص٢٠٩

[2] - قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، محمد عبد الفتاح عليان، م س ، ص ٦٢

[3] - ابن النديم، الفهرست.

٥.علاقة حمدان قرمط بصاحب الزنج:

يشير اليها الطبري في تاريخه "ذكر عن سلف زكرويه انه قال :قال لي قرمط: صرت الى صاحب الزنج ، ووصلت اليه ، وقلت له اني على مذهب، وورائي مائة الف سيف ،فناظرني ،فان اتفقنا على المذهب ملت بمن معي اليك، وان تكن الاخرى انصرفت عنك، وقلت له: تعطيني الامان؟ففعل. قال :فناظرته الى الظهر ،فتبين لي في اخر مناظرتي اياه انه على خلاف امري ، وقام الى الصلاة، فانسللت ، فمضيت خارجا من مدينته ، وصرت الى سواد الكوفة" [1] ويعلق الباحث عليان على هذا اللقاء على ان المقصود بقرمط هنا هو الاهوازي وليس حمدان ، لان حمدان كان من اهل السواد ولم يفد الى الكوفة كما فعل الاهوازي ولما كان من المعروف ان ثورة صاحب الزنج كانت بدأت سنة ٢٥٥هـ ، وانتهت بمقتله سنة ٢٧٠هـ وان الاهوازي حاول اغراء صاحب الزنج بالدخول في دعوته نظير تقديم المساعدة اليه لكنه رفض وان قوة صاحب الزنج قد زادت كثيرا في سنة ٢٦٤هـ فمن المتوقع ان يكون رفضه لهذه المساعدة في هذا التاريخ ولايعقل ان يكون هذا الرفض في بداية ثورته او قرب نهايتها لان الظروف كانت ستحتم عليه القبول بها لذلك يرجح ان تكون بعثة الاهوازي الى الكوفة سنة ٢٦٤هـ ولايمكن ان تكون ٢٧٤هـ كما تشير الى ذلك بعض المصادر لان صاحب الزنج كان قد قتل قبل هذا التاريخ. ويذهب الدكتور عبد العزيز الدوري الى ان حمدان قرمط وليس الحسين الاهوازي هو الذي التقى بصاحب الزنج. فالاختلاف

---

[1] ـ الطبري ، م س ، ص ٢٤٠ .

بين المؤرخين بين من التقى صاحب الزنج واضح. وكذلك فيصل السامر يشير الى حمدان وليس الحسين الاهوازي، والاختلاف ناجم من ان الزنج كانوا يؤمنون ويميلون الى مذهب الخوارج وهو يتعارض مع المذهب القرمطي كل التعارض لانه يجعل الامامة حق لسائر المسلمين متى كانوا اكفاء ،بينما يقصرها القرامطة على الفرع الاسماعيلي الذي انكروه فيما بعد .ويبدو ان التناقض بين الحركتين لم يقتصر على الاختلاف المذهبي بل ، عدم وجود برنامج فكري واجتماعي شامل في ثورة الزنج بعكس ما نجد لدى القرامطة ، الذين تبنوا نظاما دقيقا من هذا النوع، وينكر د. فيصل السامر اية علاقة بينهما سوى "ان نوعا من التفاعل الفكري غير التام وقع بينهما بحكم كون الحركتين متعاصرتين وكليهما راح ينشر دعواه في اوساط الطبقات الدنيا ، وثورة الزنج مهدت الجو لانتشار القرامطة وهيأت الاذهان لها وشغلت الدولة العباسية مما هيأ الفرصة للقرامطة على ترويج دعوتهم في سواد العراق "[1]

ويبدو من رواية الطبري ان الرقم المذكور بان معه مائة الف هو رقم مبالغ فيه لان ارقام الجيش العباسية المناهضة للحركات المعارضة انذاك وحسب روايات الطبري كانت لا تزيد على السبعين الف مقاتل على سبيل المثال والدولة العباسية انذاك كانت في اوج عظمتها وقوتها

عموما ان ثورة القرامطة لم تستطع الانضمام الى ثورة الزنج لاختلاف المنهجية بين الاثنين فالقرمطية حركة ثورية ذات تعاليم اشتراكية جنينية وذات اهداف بعيدة وهي باطنية ، بينما ثورة الزنج لا ترتكز على اسس فكرية ذات جذور عميقة حتى ان (علي بن محمد) ما كان مفكرا كحمدان

[1] ـ فيصل السامر، ثورة الزنج، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١ص ٨٨

قرمط ، وحين يتحدث الدكتور طه حسين عن ثورات بابك والزنج والقرامطة يؤكد الحالة الاقتصادية يقول" ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث انها كانت تقصد الى تغيير الحياة الاقتصادية بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس ويحقق شيء من العدل والمساواة بين الافراد والجماعات" ويضيف الدكتور طه حسين" انها كانت تقصد كذلك تقوية الشخصية الفردية وتحريرها من القيود والاغلال التي فرضها عليها النظام الديني والسياسي والاجتماعي "[1] وهذه شهادة منه تبرئ هذه الثورات من الاتهامات السطحية وتؤكد انها ناتج خطل السياسة الاقتصادية للدولة العباسية وان اندفاع الناس الى الثورة وانضمامهم الى الحركات العنيفة التي قامت ضد الدولة العباسية كان حافزه الاول هو الاقتصاد المتدهور والحالة البائسة للطبقة العامة التي لم " تقبل ظروفها التعسة بهدوء، بل حاولت ان تثبت كيانها وتحسن احوالها بكل وسيلة سلمية او ثورية " [2] وهذه شهادة منه على عدم شعوبية هذه الحركات واحقيتها بالمقاومة .

ويصف الدكتور عبد العزيز الدوري ظهور الحركة بانها " زلزال اصاب العالم الاسلامي وعبر عنها ب" حركة متشعبة النواحي - دينية ، اجتماعية ، فلسفية ، سياسية هددت اسس كيانه ولعبت دورا مهما في تاريخه" ويعبر عن الحركة ايضا بانها " استطاعت ان تنظم وتوجه السخط الاجتماعي والديني في

[1] - نقلا عن عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٥

[2] - د عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٧٤ ، ص٨٠،

البلاد الاسلامية باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم هدفا للدعاية السياسية "[1]

وحول طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سبقت ظهور حركة القرامطة، ان دراسة هذه الظروف وفهمها حسب قوانين تطور حركة التأريخ يتيح لنا معرفة المناخ الذي أتاح لهذه الحركة ان تمو وتنضج في زمن الخلافة العباسية ، والملاحظ لهذا الموضوع ان بعض الباحثين ومنهم محمد عبد الفتاح عليان في كتابه"قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين" قد غفل او تغافل عن تناول هذه الجوانب الاساسية في دراسة حالة الخلافة العباسية ابان ظهور القرامطة على المسرح السياسي انذاك، وربما يكون لطبيعة المنهج الذي اعتمده في دراسة هذه الحركة ، بحيث لم يتح له رؤية الحقائق المادية ومعرفة الظروف الموضوعية والذاتية لظهور حركة القرامطة لكن ذلك ايضا لا يغفر مثل هذا التغافل.حيث يستفيض الاستاذ عليان في شرح وتوضيح تغلغل النفوذ التركي في الدولة العباسية دون التطرق بتاتا الى الحالة الاقتصادية . وهذا الاسهاب في رواية اخبار الصراع بين القرامطة والعباسيين والذي نلحظه لديه ايضا "رواية الحروب، مناقب الخلفاء العباسيين ومواقفهم" واعتماد الاستاذ عليان على ابراز هذا الجانب في بحثه مع تغافل الطابع الاجتماعي لحركة القرامطة ، يجعلنا نتسائل هل كان الاستاذ عليان علميا او موضوعيا في دراسة هذه الحركة وابراز دورها في التاريخ الاسلامي.

[1] - عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ، ص٨٧

ويحاول عليان ان يبين ان الصراع على السلطة والانشغال بها بين العرب والاتراك هو السبب الرئيسي والوحيد لظهور حركة القرامطة ، وهذا هو تغافل للسبب الاقتصادي الذي سنعرض له في خضم البحث والذي ادى الى استمالة الناس الفقيرة والمظلومة نتيجة السخط على السلطة العباسية حيث تم استمالتهم من قبل حمدان قرمط والقرامطة بالضد من اساليب الدولة العباسية... وسبب نجاح الدعوة القرمطية في البلاد التي انتشرت بها اعتقادا منهم ان المخلص او "صاحب الزمان" ودعاته سوف يحررونهم من نير العبودية وظلم الدولة واصحاب الاملاك. وبالتالي فان الحركات الجماهيرية المعارضة والثورية اما مبعثرة وتلقائية او تتخذ شكلا مضمونا ومهدويا **MESSIANIQUE**[١]

ويصف المقريزي ما فعله العباسيون مع القرامطة سنة ٢٩١هـ :

" كان الواحد منهم يبطح على وجهه وتقطع يده اليمنى ، فيرمى بها الى اسفل ليراها الناس ثم تقطع رجله اليسرى ثم اليمنى ويرمى بها، ثم يضرب عنقه، ويرمى بها، ثم قدم المدثر ففعل به كذلك، ثم قدم الحسين بن زكرويه فضرب مائتي صوت، ثم قطع يداه ورجلاه وكوى وضربت عنقه" [٢]

مع كل هذا لم يرعهم اي: القرامطة بطش العباسيين ، بل على العكس من ذلك كانوا اشداء اقوياء مستمرون في نشر دعوتهم بين صفوف الفئات الفقيرة والمحرومة واصحاب المهن وفي سنة ٢٩٣هـ حاولوا اقتحام الكوفة

---

[١] ـ وهذا ما امن به القرامطة حين اعتبروا ان محمد بن اسماعيل اختفى عن الانظار وهو القائم السابع.

[٢] ـ عليان، م س ، ص٢٠٩

بسبعمائة مقاتل في حين كان المدافعين عنها ٧٠٠٠ جندي فضلا عن سكانها كما تشير المصادر التاريخية [١] وعلى الرغم من فشلهم في الاستيلاء على الكوفة الا انهم كانوا اقوياء لا يجبنون وقد وصفهم عامل الكوفة انذاك" غير انكال ، يصبرون عند اللقاء، وحذر قواد الجيش العباسي الذي كان يتاهب لملاقاتهم بألا تحملهم قلة عدد القرامطة على الاستخفاف بهم .

وقد اوضح الملطي شجاعتهم بقوله" هم في الحرب لا يدبرون حتى يقتلوا ، ويقولون ان حياة بعد القتل او الموت افضل، لانا نخلص ارواحنا من ذر الابدان وشهواتها ونلحق بالنور وهذه رؤية مزدكية تماما.

٦.التوزيع الجغرافي للحركة القرمطية :

قرامطة العراق امتدوا الى الكوفة ومناطق وسط العراق، كان مركز القرامطة مدينة واسط بين الكوفة والبصرة والقرى المجاورة لهما[٢] وكان اكثر سكان هذه المناطق خليط من العرب والنبط والسودان الذين كان اصحاب الاراضي الواسعة يجلبونهم من افريقيا وكان يقودهم حمدان بن الاشعث وفي بادية السماوة وبوادي العراق امتدادا الى الانبار وبلاد الشام كان يقودهم ال زكرويه وكذلك ، البحرين والقطيف والاحساء .

ويذكر عارف تامر انه سنة (٢٩٧هـ جاء الدعاة باقامة عاصمة ثانية تكون مركزا للتوزيع والتعليم فجاءوا الى قرية "مهتماباز"(حسب بحثي مدينة تقع على ضواحي الكوفة) وبنوا حولها سورا عظيما عرضه ثمانية اذرع ومن ورائه

[١] - النويري ، نهاية الارب، نقلا عن عليان ، م س ، ص٢١٠
[٢] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٦٠

خندق عظيم بدأ الناس يخافونهم وحسبوا لهم حسابا كبيرا وانضم لهم خلق كثير) .

كما انتشروا في البصرة الا انهم لم ينجحوا بها كثيرا والسبب ان اهل البصرة كانوا اغلبهم غير منتسبين للمذهب الشيعي الاثني عشري ناهيك عن الاسماعيلي فقد كانت البصرة اشعرية زبيرية على طول الخط وتتبع للخلافة العباسية ونسبة اهل السنة فيها طاغية جدا ، بالاضافة الى ان اهلها في غالبيتهم كانوا من طبقات التجار وملاك الاراضي الزراعية ، فلذلك من الصعب جدا ان ينساقوا نحو حركة تجردهم من ملكياتهم. وقد مثلهم هناك شخص اسمه الوراق والذي حضر المناظرة التي وضعها "الامام عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق" حسب الرواية الاسماعيلية ولكن ان صحت هذه المناظرة فهو عبد الله بن ميمون القداح ، والذي عندما عرض عليه النقاش في المناظرة ،فقال للامام عبد الله بن محمد "اتوسل اليك يا مولاي ان تعفيني من هذا النقاش ، لانني اعتبر الاخ الاهوازي خيرا مني لتحمل هذه المهمة ، واعلن عن استعدادي للتعاون معه، وتأييده كل خطوة يخطوها ،فهو افضل مني واغزر علما ، وارجح عقلا، وله دراية واسعة ، وخبرة دقيقة في جزيرة العراق اما انا فمجال عملي بالبصرة ، والجماعات يلحون علي بالبقاء" [1]

وهذا يدلل ان البصرة كانت تختلف كليا عن مجال عمل جزيرة العراق وكانت اساليب العمل ومنهج الناس فيها مختلف تماما. لذلك حملت جانب مهم من جوانب الفكر القرمطي فيها تمثل في كتابة رسائل اخوان الصفاء فيما بعد.

[1] ـ مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت، بلا تاريخ ص ٣٤

كما انهم فشلوا في الاستيلاء على الكوفة حيث هاجموها سنة ٣٩٣هـ[1] كان اول ما فعله القرامطة حين دخلوها فتح ابواب سجونها واخراج المسجونين منها ، كما حاولوا استمالة اهلها فصاروا يهتفون في الشوارع قائلين "يا لثارات الحسين "يقصدون الحسين بن زكرويه الذي نكل به في بغداد، ورفعوا اعلاما بيضاء مكتوبا عليها "يا محمد .. يا احمد" كما ينقل ذلك العيني غير انهم كما يشير الطبري لم يظفروا بأي تاييد ، اذ سارع اهل الكوفة بما فيهم العلويون الى حمل السلاح في وجههم حتى ان من لم يجد منهم سلاحا كان يقذفهم بالحجارة ، وليس غريبا ان يحاربهم اهل الكوفة لان اهل الكوفة من الشيعة الاثني عشرية والمعروف ان الاثني عشرية حاربت القرامطة كما حاربهم اهل السنة ، كما ان القرامطة عندما رفعوا شعار يا لثارات الحسين ، فانا لا اطمأن لحديث العليان بانهم يقصدون الحسين بن زكرويه ، فالعليان يقول انهم حاولوا استمالة اهل الكوفة فاستمالتهم لا تعني المناداة بثارات ابن زكرويه بل المناداة بثارات الحسين بن علي بن ابي طالب الذي قتل في كربلاء سنة ٦٠ هـ والمعروف ان اهل الكوفة ينادون بالاخذ بثاراته حيث استمر الشيعة الى اليوم بالمناداة بهذه الثارات ، وعليان يقع في تناقض واضح ،فهو من جهة يقول انهم ارادوا استمالة اهل الكوفة بالمناداة بثارات الحسين ولكن يكمل ليقول ابن زكرويه ، ومن جهة ثانية يقول ان اهل الكوفة حاربوهم حتى بالحجارة ، فكيف يستميلهم القرامطة بذكر ابن زكرويه ، بل كان القرامطة يستميلونهم بذكر الحسين بن علي ، مع ذلك فاطلاق الحسين كأسم بشكل عام يدلل على ان القرامطة كانوا قد ارادوا ذكر الاثنين الحسين بن علي والحسين بن

[1] ـ العيني، عقد الجمان، ج١٨،ص١٢٠، نقلا عن عليان ، م س ، ص ١٤٠

زكرويه الذي مثل به في بغداد ، فاطلقوا الاسم بشكل عام فهم قد يكونوا قصدوا ابن زكرويه ، والقصد عند من يسمعهم الحسين ابن علي فهم يكسبون بكل الاحوال .ولا ننسى ان اهل الكوفة لا يتبعون الحسين بن زكرويه بتاتا.

على الرغم من اننا لا نميل لرواية الطبري الذي ينقل عنه العليان فالطبري روى قصة القرامطة اعتمادا على محمد بن داود الجراح وهو احد قادة العباسيين في محاربة القرامطة ، فكيف يتسنى ان نسلم بروايته وهو احد القادة العباسيين فهل يكون الطبري مؤرخا معتمدا في دراسة هذه الحركة وتقييمها..اخذين بنظر الاعتبار نسخة المصادر والروايات التي تناولت تأريخ واحداث هذه الحركة وان اغلب الذين كتبوا عنها كانوا من اعدائها ، ان ذلك يدعونا للبحث عن مصادر اخرى كأن تكون المصادر الشيعة والاسماعيلية والتي اعتمدنا بعضها. والخريطة الجغرافية تمتد لتشمل السماوة حيث عاش فيها ال زكرويه واستثمروا من خلال صحرائها الامتداد الى صحراء البادية في الشام والعراق، وكان انصارهم فيها من البدو .وبالانتقالة جنوبا نجد هجر التي هي الاحساء حاليا حيث كانت عاصمة قرامطة البحرين والذين غطى حكمهم من جنوب البصرة وحتى عمان وساحلها .

كما كان يجتمع القرامطة في بغداد في مسجد براثا وقد ذكر بندلي جوزي نقلا عن ابن الجوزي "انه كان للقرامطة خواتيم من طين ابيض يختمها لهم الكعكي وكان يدعو للقرامطة وعليها محمد بن اسماعيل الامام المهدي ولي الله فكانت حكومة بغداد تعرفهم بهذه الخواتيم فتقبض عليهم وتقتص منهم حين كانت تعجز عن محاربة اخوانهم خارج بغداد.

الفصل الثاني

اجتماعات كلواذي المؤسسة

١.اجتماع كلواذي[1] الاول

وفي هذا الاجتماع حدث التأسيس الاول للحركة القرمطية وكان بقيادة الحسين الاهوازي وحضور "حمدان بن الاشعث ، عبدان صهره، وابو سعيد الجنابي من البحرين، وزكرويه بن مهرويه" وقبل الخوض في هذه التفاصيل علينا ان نعرف من هو الحسين الاهوازي

الحسين الاهوازي:

نستطيع ان نقول ان الحسين الاهوازي هو المؤسس لنشر الاسماعيلية في العراق وهو الذي دعى حمدان قرمط لائمة سلمية وكانت اولى الاجتماعات

---

[1] -يشير الدكتور .عباس فاضل السعدي

كانت الكرادة الشرقية تسمى في الأزمنة القديمة باسم كلواذا (بفتح الكاف والواو وتسكين اللام والألف وذال معجمة مفتوحة) وهو الاسم القديم للكرادة الشرقية الحالية. وقد اختلف المؤرخون في سبب التسمية.

وكلواذا بالأصل قرية قديمة منعزلة ثم عمت تسميتها فأصبحت تشمل القسم الجنوبي من بغداد في شرق دجلة. والباحثون يختلفون في تعيين موضعها على وجه الدقة. فالباحث الإنكليزي (جيمس فيلكس جونس) يقول: (ان موقع كرارة هو عين موقع كلواذا الوارد ذكرها في كتب جغرافيي العرب، فإن المكان المفترض لهذه المدينة القديمة ينطبق كل الانطباق على موقع القرية الحالية). ويؤيده في ذلك المستشرق الإنكليزي (كي لسترانج) وانستاس الكرملي والشالجي. والمقصود بقرية كرارة هنا هو موضع قرية (سعيدة) الحالية التي يسميها خطأ فليكس جونس ولسترانج والكرملي ومن يؤيدهم في ذلك بقرية كرارة. إذ أن القرية الأخيرة تقابل قرية سعيدة في الضفة الغربية لنهر دجلة على بعد قريب من مصافي نفط الدورة.

تعقد بينهما دون وساطة من احد ، ونستطيع القول ان رؤيتيهما اتفقت على تشكيل النواة الاولى ، وقد استفاد حمدان منه كثيرا على المستوى المادي الذي كان يحتاجه لجمع الانصار والسلاح وبناء مكان لهم ، ولكن حمدان شق طريقه بافكار جديدة لم توافق عليها سلمية بل انها تختلف عن افكار سلمية جذريا وقد اشار عارف تامر اليه على انه احد ابناء الائمة الاسماعيليين فهو حسب روايته" الامام الحسين بن احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر " وهو بالتالي اي عارف تامر يريد ان يؤسس ان الدعوة القرمطية اسسها ائمة الاسماعيلية انفسهم.... ولاننسى ان حمدان قرمط قد لقي الاهوازي في سواد الكوفة ، سنة ٢٦٤هـ وكان على علم مسبق بلقاء حمدان وليس كما تشير بعض المصادر "الى ان لقاءهما كان صدفة واستطاع اقناعه بالدعوة خلال ساعة من لقائهما"[1] ، من رؤاه في العدالة الاجتماعية انه كان يملك بساتين واسعة من النخيل وزعها وتصدق بتمرها ونواتها على الفقراء والمعدمين تحقيقا للعدالة ، واخذ الحسين الاهوازي من حمدان قرمط بيعة لشخص عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر حسب رؤية الاسماعيلية وفي الحقيقة هو عبد الله بن ميمون القداح ، حيث اراد عارف تامر ان يسوق نظرية الاستيداع وملخصها ان هنالك ائمة اثنين في كل عصر واحد مستودع والاخر ظاهر فالظاهر هو عبد الله القداح والمستودع هو عبد الله بن اسماعيل ،وهذا ما اثار اللغط في صفوف القرامطة والدعاة . وهو اي عارف تامر بالنتيجة يحاول ان يغطي على افعال القداحيين واخذهم للامامة ، بواسطة

[1] ـ عبد الفتاح عليان، م س، ص ٢١

نظرية الاستيداع هذه ولكن الحقيقة ان حمدان وعبدان اكتشفا زيف القداحيين . ولا يوجد شيء علمي اسمه الاستيداع .

وقد ذكر الطبري مؤرخ السلطة الاخر الذي لم ينصف القرامطة بتاتا: ان حادثا وقع للحسين الاهوازي في بداية الحركة بالعراق ذلك ان ملاكا زراعيا في سواد الكوفة اسمه (الهيصم) كان له ضياع كثيرة ،فلاحظ عماله الاجراء مقصرين في عملهم وعندما بحث عن السبب عرف انهم مشغولون باقامة خمسين صلاة في اليوم والليلة طبقا لمذهب جديد دعاهم اليه الاهوازي ،فقبض عليه وحبسه ليلا في حجرة بداره، وعزم على قتله في الصباح لكن احدى الجواري اشفقت عليه واطلقت سراحه وعندما استيقظ الهيصم ولم يجد الاهوازي شاع بذلك الخبر" ففتن اهل تلك الناحية "وقالوا رفع. وعندما سئل عن هذا الموضوع قال الاهوازي" ليس في استطاعة احد ان يبداني بسوء ، ولايقدر على ذلك"[1] فعظم في اعينهم وصدقوه. وليس غريبا ان يستغل الاهوازي هكذا مناسبات وهكذا اعمال كي يبرهن للناس صدق مذهبه وصحته.

وهذا يدلل انه كان يستخدم الغنوصية في مذهبه .

المهم ان هذا الاجتماع حوى مبادئ او نظام الألفة والأخاء وكانت الاوامر قادمة من سلمية، بواسطة الحسين الاهوازي وعين فيه زكرويه وحمدان واباسعيد الجنابي كمساعدين للاهوازي في مهمته بالاضافة الى عبدان الذي كان مشرفا عمليا على تنفيذ نظام الالفة والاخاء والذي يمكن تلخيصه :

---

[1] - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨.، ج٨، ص١٦٠-١٦١

١.صهر كافة الجماعات من عمال وفلاحين وحرفيين وتجار في بوتقة واحدة

٢.السيطرة الفعلية وبالتدريج على كافة الاراضي والملكيات الزراعية والصناعية والتجارية وجعلها تخضع لاشراف مجلس الدعاة الثلاثي.

٣.يدفع كل مستجيب وعضو عامل في الدعوة اشتراكا شهريا قدره دينارا واحدا، .ويشير بعض الباحثين الى انهم الغوا الزكاة والخمس وهذا صحيح .

٤.تجمع هذه الاموال في خزانة الدعوة وتنفق بالتساوي على المشاريع الاجتماعية والعلمية والصناعية .

٥.نشر العلم والمعرفة بين الجميع.

٦.الدقة التامة في اختيار الدعاة والمبشرين ، وايفاد المتفوقين منهم لمواصلة الدراسات العليا في سلمية

٧.تنمية الاخاء والمحبة بين الجميع ،ليصبحوا كعائلة واحدة متكاتفة متضامنة ،يتعاون بعضهم مع البعض الاخر في طلب صلاح الدين والدنيا .

٨.تضحية الفرد الجسدانية في سبيل اصلاح اخوانه وتقويم اعوجاجهم وتقديم المساعدة لهم.

٩.نشر العدل والمساواة والمحبة والاخاء والطاعة المطلقة لاولي الامر من الدعاة

١١.اعطاء المرأة الاسماعيلية كافة الحقوق ومساواتها مع الرجل واشراكها في تنظيمات الدعوة

١٢.العمل بسرية تامة ، وتجنب الاحتكاك مع الطوائف الاخرى[1] . وهذه النقاط في راينا اقرها حمدان قرمط فهي من بنات افكاره وليس الحسين

[1] ـ مصطفى غالب، م س ، ص ١٧٠-١٧١

الاهوازي ، لان نظام الالفة عرف به القرامطة ولم يعرف به غيرهم ، ولاننسى ان البذور الاشتراكية كانت من افكار قرمط وليس ائمة الاسماعيلية الذين لم يختلفوا كثيرا عن بقية الناس في ملكياتهم وجواريهم وخدمهم. حيث كانت الدعوة سرية في البداية في اجتماع كلواذي .

وارسل عدد من الابناء لدراسة الدعوة الاسماعيلية في سلمية وهم "الحسين بن زكرويه، سعد بن الجنابي، عيسى بن موسى، حريث بن مسعود، علياء بنت رضوان، سعدى بنت دندان، رقية بنت زكرويه، ليلى بنت الجنابي"[1] وكان تجمعهم في الكرادة حاليا ويسمى كل من " حمدان قرمط و ابو سعيد الجنابي، وزكرويه بن مهرويه" ب "الثالوث المقدس" الذي مهد لانتشار الدعوة ، وبعد ان تابعتهم الدولة العباسية التجأ عبدان الى ال الجنابي في البحرين والاهوازي ذهب الى كلواذي وحمدان قرمط قصد ال زكرويه ، هذا في البداية .

ثم اجتمع حمدان وابو سعيد وزكرويه اجتماعا اخر برئاسة الاهوازي ، وقرروا شراء المزيد من السلاح وبناء دار للهجرة يتم تحصينها وقدمت الرشوة لوالي الكوفة من قبل عبدان، كي يغض الطرف عن النشاط القرمطي ، وتمخض عن هذا الاجتماع تعيين حمدان قرمط لينوب عن الحسين الاهوازي كي يكون مسؤولا عن الدعوة بمنطقة السواد وينوب عنه عبدان في حالة غيابه وابو سعيد الجنابي يكون على البحرين والقطيف وهجر وزكرويه على بادية السماوة والقبائل المتنقلة بين العراق والشام، ورجع كل من هؤلاء الثلاثة الى اقوامهم وبدأوا نشاط الدعوة .

٢.١اجتماع كلواذي الثاني :

[1] ـ مصطفى غالب، م س ، ص ١٧٢

قاده عبد الله بن ميمون وهو كبير الدعاة وبحضور عبدان ودندان وحمدان وزكرويه وابي سعيد الجنابي ، اذ تم التركيز على ان يكون نظام الالفة هو الاساس في تعاملاتهم وان يكون شراء السلاح وبناء دار للهجرة وان يكون هنالك اهتمام بالمرأة وكذلك بالعمال والكسبة ويبدو ان الاموال بدأت تكون سببا رئيسيا للصراع الذي بدأ يتأجج تدريجيا ، حيث طلب حمدان قرمط من عبد الله بن ميمون أموالا لشراء السلاح وبناء دار الهجرة ، مما دعا زكرويه للمطالبة بنفس المطالب، وفي جميع اقاليم الدعوة مما اشر لصراع قادم بين زكرويه وبين حمدان قرمط. وهذه الرواية من مصادر الاسماعيلية نفسها اي مصطفى غالب يبين فيها حضور عبد الله بن ميمون الاجتماع وقيادته لهذا المشروع الذي يسميه ديكويا "المخترع الحقيقي للمشروع الجبار" [1]

٣.اجتماع كلواذي الثالث:

وفيه حضر الدعاة الثمانية الذين عادوا من سلمية الى العراق واستقبلهم عبدان امين سر الثالوث المقدس ووزعهم كالتالي بعد ان مكثوا في سلمية ثلاث سنوات :

الداعي الحسين بن زكرويه مساعدا لوالده زكرويه في السماوة وبادية الشام.

سعيد الجنابي مساعدا لوالده الحسن بن بهرام"ابي سعيد"

الداعي عيسى بن موسى يوضع تحت تصرف عبدان

الداعي حريث بن مسعود معلما مشرفا على مدرسة الدعوة في كلواذي

يدلل ان قيادة القرامطة كانت بيد حمدان وعبدان في اول الدعوة.

---

[1] - ديكويا ، القرامطة ، م س ، ص ٢٣

٣.الخلاف بين الحسين الاهوازي وحمدان بن الاشعث "الشخصية الاشكالوية":

بعد اللقاء الاول الذي اشرنا اليه بين حمدان قرمط والحسين الاهوازي تمت دعوة رضوان ومحمد بن الحسن الكوفي الى الدعوة ، وحمدان حسب رؤيتنا وقراءتنا للاحداث لم يستفد ممن الحسين حول نشر الدعوة بل عمل على نفسه لنشر دعوته الخاصة حيث ابتدأ برفع التستر عن الدعوة القرمطية وهذا اول شيء يخالف به مبدأ الائمة الاسماعيلية الذين اتخذوا من التستر والتخفي منهجا لهم ، وعندما رفع التستر اعتبر الاهوازي حمدان ان الظرف غير مؤاتي وكان بامكان حمدان الانتظار اكثر وان حمدان كان في عجلة من امره، ولكن حمدان اخذ على نفسه عهدا بنشر الدعوة.وهنا رضخ الاهوازي لحمدان بأعلان الدعوة .

يشير عارف تامر الى ان حمدان بن الاشعث كان شديد الصلة بسلمية الا ان "خطأه الفادح" كان اعلان الثورة دون الرجوع الى مركز القرار ، وهذا الذي استغله ال زكرويه في الوقوف ضده ويشير عارف تامر الى انه اختفى بعد ثورته بمؤامرة غامضة[1] ...طبعا هو قتل ولكن عارف تامر لا يريد ان يشير الى هذا الموضوع كونه يعتبر ان القرامطة مع الاسماعيليين والفاطميين يشكلون فريقا واحدا ولايريد ان يركز على خلافاتهم الكبيرة والعميقة كثيرا.

وكان من اهداف حمدان كما يشير م غالب :

١.التربع على عرش الدعوة في السواد وغيرها من البلدان المجاورة .

[1] ـ عارف تامر، م س ، ص١٢٧

٢.شجعه عبدان على هذا الطموح فقد كان امير سر الدعوة للثالوث المقدس "زكرويه، حمدان، ابو سعيد" ويعلق مصطفى غالب حانقا على نشاط حمدان قائلا" لولا خوف حمدان بن الاشعث من نفوذ قيادة الدعوة في سلمية لوثب على الزعامة واغتصبها ولكنه كان دائما وابدا يعود الى جادة الصواب ويبشر بالامام المنتظر من ائمة الاسماعيلية " [1] ونحن نشك في ذلك شكا كبيرا وذلك لان حمدان خرج على ائمة سلمية وكان مصيره ان قتل على ايدي ال زكرويه او اختفى في ظروف غامضة فهو وحسب تصرفاته لم يبارك ائمة سلمية بتاتا .وبقي حمدان مؤمنا بغياب محمد بن اسماعيل .

فمصطفى غالب يحاول الا يقول ان حمدان قد خرج عن طاعة ائمته والا فهو قد خرج عنهم واسس حركته لوحده.

وكلامنا هذا يعضده مصطفى غالب نفسه حيث يقول" يبدو ان الحسين الاهوازي قد لاحظ هذا الطموح عند حمدان وصهره، عبدان لذلك عقد اجتماعه الذي اشرنا اليه ومنح الجميع صلاحيات واسعة واختفى عن الانظار ". وهذا مؤشر الى بداية تفكك الحركة وهي في مهدها.

[1] ـ مصطفى غالب، م س ، ص١٩٧

الفصل الثالث

ال زكرويه

١.زكرويه بن مهرويه:

زكرويه هو احد اعمدة النشاط القرمطي في بادية العراق وبادية الشام وهو الذي اسهم اسهامة مباشرة في اختفاء حمدان وقتل عبدان كما يعود له الفضل في نشاط الدعوة في بلاد الشام باعتبار ان سوريا ترتبط مع العراق ببادية كبيرة مما جعل زكرويه وولده يتنقلوا في هذه البوادي معتمدين بذلك على جندهم من البدو الرحل كان نشاطه في بلاد الشام ما بين عامي ٢٨٩ و٢٩٤ هـ كما اشار لهذا التاريخ الباحث (عليان ص ٨٩) من مصدره السابق ،

اختفى بعد مقتل عبدان في جب تحت الارض وذلك خوفا من انصار عبدان وبسبب طلب العباسيين له سنة ٢٨٦هـ والقرامطة تطلبه واصحاب عبدان يرصدونه [١] الا انه بقي مشرفا على نشاط جماعته ولم يثنه مقتل ابنه يحيى سنة ٢٩١هـ وتمرد انصاره سنة ٢٩٣هـ فبقي قاطعا لطرق الحجيج في البادية وهي الطريقة التي احتذاها فيما بعد سليمان الجنابي "ابو طاهر"

ولا ننسى ان الحركة تراخت بعد سنة ٢٨٦هـ حين اختفى حمدان وقتل عبدان نتيجة اختلافهما مع ائمة سلمية من ذرية القداح وانتهى ال زكرويه تماما عام ٢٩٥هـ وانتهى قرامطة السواد سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م. كان زكرويه كما يشير الطبري والنويري يشرف على سير الحوادث من مخبئه، نخاف ان تحطم الهزائم معنوية اتباعه فكتب اليهم" واعلموا ان مما اوحي اليه ان المعروف بالشيخ واخاه يقتلان وان امامه الذي يوحي اليه يظهر بعدها ويظفر " [٢] كما

[١] ـ النويري ، نهاية الارب، ج ٢٣، ص٧٠ـ٧١
[٢] ـ الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج١١،ص٣٩٠

انه ارسل داعيته ابا غانم الى الشام سنة ٢٩٣هـ فجمع حوله الاتباع وتمكن من نهب عدة مدن ودعا نفسه بالناصر وقتل على ايدي بني كلب وعلى اثرها دب الشقاق بين قرامطة الشام، فارسل زكرويه داعية له يدعى القاسم بن احمد اخبر الناس بغضب زكرويه "وانهم ارتدوا عن الدين وان وقت ظهورهم قد حضر وقد بايع له بالكوفة اربعون الف رجل "[1] وطلب اليهم ان يسيروا الكوفة ليلحقوا بزكرويه فجاؤوا سنة ٢٩٣هـ وعندئذ خرج زكرويه من مخبئه وجاء اليهم فقال لهم القاسم" هذا صاحبكم وسيدكم ووليكم الذي تنتظرونه" ثم انقضى الى زكرويه اتباعه في السواد وكانوا من عربي ومولى ونبطي وكانوا يسمون زكرويه ولي الله وهو من جهته لم يسمح الا للقلائل برؤيته. المهم ان زكرويه قتل سنة ٢٩٤على يد وصيف بن صوارتكين الذي ارسله الخليفة المكتفي العباسي .

٢.يحيى بن زكرويه

كان نائبا لزكرويه وكبيرا لدعاة الشام.وقد استغل يحي الاوضاع الاجتماعية السيئة في بادية السماوة ، في جذب الناس اليه، فاثار الفقراء على الاثرياء ، مما ادى الى حدوث اضطرابات في كل بادية السماوة والشام اذ" استطاع يحي بن زكرويه ان يؤثر بثورته الاجتماعية في بلاد الشام اكثر مما تؤثر فيها الجيوش الجرارة ، ولذلك اصبح لزاما على الخلافة العباسية لكي تحتفظ بهيبتها بين رعاياها السنيين ان تقوم بعمل حاسم يحد من نفوذ ابن زكرويه ،

[1] ـ الطبري

ويحول دون تقدمه وانتشار مبادئه التي اذاعها في بلاد الشام" [1] والمعلومات عن دور ابناء زكرويه قليلة ومرتبكة جدا ، ومما زاد في ارتباكها طموح ابناء زكرويه وانتسابهم الى محمد بن اسماعيل وسوء علاقتهم مع المهدي "عبيد الله" وان قبلنا نظرية لويس التي سنأتي على ذكرها في الامام المستقر والمستودع "في الفصل الخاص بالباطنية " والتي ملخصها الاصل القداحي لعبيد الله المهدي ، وان الائمة القداحيين كانوا مستودعين للامامة امكن القول بان ابناء زكرويه حاولوا اخذ محله ونصبوا انفسهم ائمة مستودعين للامام الفاطمي ووجدوا في المهدي خصما لهم، فحاولوا القبض عليه ومحو اثره.

من دعاة دولة زكرويه الداعي ابا غانم سنة ٢٩٣هـ الى الشام ، وكان هذا الداعي من اخلص اتباعه فأخذ يبشر بقرب ظهور المهدي بين القرامطة ،يصف الطبري نشاطه بقوله " ودار على احياء كلب يدعوهم الى رأيه ،فلم يقبله منهم احد سوى رجل من بني زياد "يسمى مقدام بن المكيال" فانه استغوى له طوائف من المنتمين الى الفواطم وسواقط من صعاليك من سائر بطون كلب" [2]وفي هذه العبارة الطبرية نلحظ التحقير الذي يستخدمه الطبري مما يؤكد انحيازه بالضد من القرامطة .

٣.حروبهم :

ويشير عارف تامر الى ان ال حمدان عندما ثاروا على زكرويه وولده نجد ان زكرويه هرب الى سوريا من سنة ٢٨٦-٢٨٨هـ ثم عاد بعد ان هدأت

---

[1] ـ عليان، م س ، ص ٩٢

[2] ـ الطبري، ج٨

الامور فارسل يحيى ابنه الى الشام ومعه القاسم بن احمد ودعا الى الثورة التي قامت على اساس من السيادة والحرية والشورى والاشتراكية [1] وهذا يؤشر الى الخلاف الكبير الذي قام بين ال حمدان وال زكرويه ،وهنا انشقت القبائل بين دعوة ال مهرويه ومن القبائل التي تبعتهم بني كلاب وقشير وبني عقيل وبني العجلان وبني العليص ومواليهم وسكان حلب والمعرة وحماة وحمص ودمشق فبايعوه ودعوة السلمية التي هي بالضد من ال زكرويه وقد اتبعتهم قبائل بني النضار وبني مالك وبني معرض وبني الهجين وبني البلوى وبني مخذاش وبني هذيل وبني زياد وبني عليم فلم يلبوا طلب ال زكرويه وارسل الخليفة المعتضد العباسي جيشا جرارا سنة ٢٨٩هـ وحارب ال زكرويه ومواليهم وتمكن القرامطة من دحره وهنا حاصر يحيى بن زكرويه دمشق وبعد سبعة اشهر تمكن حاكم دمشق من فك الحصار وقتل يحيى بن زكرويه وبعد مقتل يحيى بايعوا القرامطة "الحسين بن زكرويه " والذي قاتل جيش المكتفي العباسي ولم يستطع المكتفي ان يهزم القرامطة ....من ال زكرويه .وفي سنة ٢٩١هـ ارسل المكتفي العباسي جيشا لحرب القرامطة وهزمهم واسر وقتل على يدي الخليفة المكتفي فيما بعد الحسين بن زكرويه ، مع هذه الانكسارات لم يستكن زكرويه واعاد تشكيل جيوشه ودعاته لاعلان الثورة مرة ثانية . ونؤشر الى مسالة مهمة الى ان قرامطة العراق ال زكرويه لم يستطيعوا ان يرسخوا مفهوم العدالة الاجتماعية التي دعوا اليها بسبب انهم كانوا منشغلين بترسيخ ثورتهم عبر الحرب مع العباسيين ومع ابناء جلدتهم والتصفيات التي وقعت بينهم مع ان شعاراتهم كانت واضحة جدا في مفاهيم

[1] عارف تامر ، م س ، ص ١٢٨

العدالة التي كان يبغيها القرامطة الا انهم اصطدموا بمفهوم الملك الذي ينافي العدالة الاجتماعية ،فبقيت ثورة ال زكرويه مجرد شعارات .

استمر زكرويه بارسال الدعاة بعد مقتل ابنائه في ضواحي العراق والشام حيث ارسل " محمد بن عبد الله بن سعيد" ويكنى ب"أبي سعيد" وتبعه خلق كثير من الناس واغار على هيت ولم يستطع دخولها حيث اغاروا عليها سنة ٢٩٣هـ (عارف تامر، م س) ودخل القرامطة الى الكوفة مرة اخرى "جماعة زكرويه واتباعه" وارسل المكتفي جيشا اخر ولكنه لم يستطع القضاء عليهم وتمكن منهم سنة ٢٩٤هـ .

بالتالي نصل الى نتيجة ان ثورتهم بدأت في العراق سنة ٢٧٨هـ على يد حمدان قرمط وانتهت سنة ٢٩٤ على يد ال زكرويه الا ان القرامطة لم يستكينوا فقاموا بثورة بقيادة " ابا حاتم الزطي" وقتل ايضا وفي سنة ٣١٦هـ قامت ثورة القرامطة في السواد وكان يرأس قرامطة السواد "الحريث بن مسعود" وقتلهم المقتدر العباسي .

ويرى عارف تامر الى ان فشل ال زكرويه في معاركهم هذه يعود الى انصراف عبيد الله المهدي الى المغرب اي رفع عنهم الغطاء الشرعي "الامامة " [١] ،الا انني ارى ان فشل ال زكرويه يعود بدرجة كبرى الى عدم وجود انصار حقيقيين لثورتهم فاغلب انصارها من البدو الذين لاتربطهم روابط اجتماعية او سياسية او تعاون وثيق في سبيل الهدف وهدفهم هو الغزو والاغارة والسلب والنهب ،سيما ان ال زكرويه كانت المنطقة الجغرافية التي يشتغلون عليها هي مناطق البادية "بادية السماوة ، الشام ،والبادية الغربية ،

[١] ـ عارف تامر ،ص١٣٦

مناطق الانبار حاليا " واغلب سكان هذه المناطق من البدو الرحل الفاقدين لمعاني المدينة لذلك اوغلوا في الدماء وسفكها والغزوات والنهب والسلب ،عكس حمدان وجماعته الذين لم نالف منهم هكذا قضايا على الرغم من كون حمدان كان قد اسس جيشا مسلحا له .

كون اغلب انصاره من اهل الكوفة واواسط العراق وكان اغلبهم ممن سكن المدن والارياف من فلاحين وعمال وعبيد ايضا .

بالنتيجة فان زكرويه بن مهرويه قد فشل في تكوين دولة كتلك التي اقامها ال الجنابي في البحرين ، وكان من اسباب فشله في نظرنا هو قتله لحمدان وعبدان سوية مما استثار غضب جماعتهما وتسبب في تأليب الوضع عليهما فيما بعد ومعاداته للاسماعيلية متمثلة بعبيد الله المهدي .

ان اصطدام ابناء زكرويه بعبيد الله المهدي وكونهم نكلوا بذويه في سلمية وطلبوا الامامة لانفسهم "لاشك ان هذا الموقف قد جر عليهم غضب الاسماعيلية في كل مكان"[1] بالاضافة الى عدوه الاساسي الدولة العباسية .

وهنا يعلق الباحث عليان قائلا" قد ترك قتلهم عبدان اثرا سيئا في نفوس انصاره بالعراق والبحرين"[2] وكثيرا ما كان انصاره ينفضون من حول دعاته في ساعة العسرة حين يلوح الخطر ، كما حدث بالنسبة لابنه الحسين ، حيث رفض انصاره مواصلة القتال معه ضد العباسيين فاضطره ذلك الى الهرب نحو العراق [3]

---

[1] ـ عليان، م س ، ص ١٤٨
[2] ـ م س ، ص ١٤٨
[3] ـ عليان ، م س ، ص١٤٩

وكما حدث بالنسبة للداعي ابي غانم الذي وصل امر اتباعه معه الى حد قتلهم اياه [1] بالاضافة الى قتال العباسيين اياهم . حيث تتبعهم الخليفة المكتفي شخصيا فقد خرج بنفسه على راس الجيش الذي قضى على الحسين بن زكرويه في بلاد الشام . ومما يجدر ذكره ان الاماكن التي اتخذها ال زكرويه مسرحا لنشاطهم كانت على مقربة من الدولة العباسية ، السماوة ، بادية العراق، بلاد الشام ، مما سهل على العباسيين اقتفاء اثرهم ومحاربتهم ، عكس قرامطة البحرين الذين كانوا بعيدين عن مسرح الخلافة مما صعب المهمة على العباسيين. وقد استفاد ابو طاهر القرمطي "٣٠٥-٣٣٢هـ" من بعض اعمال ال زكرويه ومنها مهاجمتهم لقوافل الحجيج وفتكهم بها ، فقد تنبه ابو طاهر لاهمية هذا العمل في اقلاق الدولة العباسية واظهارها بمظهر العاجز ، عن حماية رعاياها .

٤.العلاقات بين ال زكرويه وحمدان وال الجنابي:

تؤشر الاحداث التاريخية الى انه كان هناك علاقات عائلية بين قادة الحركة الا انها لم تمنعهم من الصراعات التي اجهضت الحركة في بداياتها فالثورة تأكل ابناءها :

١.عبدان كان متزوجا من خديجة اخت حمدان .

٢.عبدان تزوج بعد وفاة خديجة من غصون اخت زكرويه

المهم ان هذه الخلافات الداخلية بين حمدان وال زكرويه لم تحجم من نشاط ال زكرويه وال الجنابي تجاه العباسيين واتهموا من قبل مؤرخي السلطة ال زكرويه وال الجنابي بالتخريب والقتل والسلب ويعتبر مصطفى غالب ان

---

[1] - النويري ، نهاية الارب، م س ، ص ٧٧-٧٨

هذه شائعات مغرضة لغرض تسقيطهم بعد ان حققوا نصرا كبيرا ويضيف "ان المناقب الاسماعيلية تنهد الى ايجاد دولة الخير ،لايمكن بأي حال من الاحوال ان تسمع بهذه الامور الا في حالة الدفاع عن النفس والمقابلة بالمثل" ويشير مصطفى غالب الى ان المعارك كانت دائرة في البحرين والسواد بين ال الجنابي وال زكرويه كل في منطقته مع العباسيين ،" وتخلص ال زكرويه من حمدان وعبدان ، لانهما انكرا امامة عبيد الله المهدي "سعيد بن الحسين" وبانتهاء حمدان سيطر ال زكرويه سيطرة كبيرة على محور بلاد السواد وحسب وصف مصطفى غالب " وفق مخطط عسكري رهيب" ولكي يرضي ال زكرويه اتباع حمدان وعبدان اعطوا لابن شقيقة عبدان "عيسى بن موسى" صلاحيات عبدان كي يكسبوه ويمحوا ما بينهم من ثارات باعتباره احد الدارسين في سلمية وموضع ثقة ال زكرويه ، الا ان عيسى بن موسى بدأ يشتغل سرا ضد ال زكرويه كي يأخذ بثأر خاله عبدان .حيث استمر في وضعه لقلب الامور على ال زكرويه انتقاما لحمدان اذ خطط للاخذ بثأر حمدان ،وعيسى كان قد ناقش ليلى في يوم ما محاولا اقناعها بأن ما يعمله القرامطة من ال زكرويه وال الجنابي من قتل واحتلالات انما هو خطأ فظيع الا "ان ليلى رفضت ما يقوله عيسى وطالبته بنقاش الحسين بن زكرويه" [1] وبعد ان استلم الحسين بن الاسود الدعوة في العراق بدلا من الحسين الاهوازي طلب عيسى بن موسى منه ان يضغط على ال زكرويه بتخفيف نشاطاتهم التي ادت الى قتل الناس وتخفيف تسليحهم واعلمه انه يبغضهم بسبب مقتل الداعية عبدان الا ان الحسين بن الاسود كان مع قتله مما يدلل على الغاء الاخر حسب النهج

[1] ـ م غالب، م س، ص٣٣٠

الاسماعيلي على الرغم من دعوتهم الى التسامح والالفة . وبعد فترة ارسل الحسين الاسود رسالة الى " الامام عبيد الله المهدي بن الحسين" طالبه فيها بضرورة ان يتنحى ال زكرويه عن كل المناصب القيادية التي يتولونها نظرا لتصرفهم باموال الجماعات لمصالحهم العسكرية ، ويذهب داعي الدعاة في رسالته "الى انه بدأ يشك باخلاص ال زكرويه للدعوة، وان طموح هؤلاء لا يقف عند حد قيادة الجماعات بل ينهدون الى ايجاد امارة او دولة مستقلة وخاصة بهم، خاصة وقد انضم اليهم الكثيرون من البدو الرحل الغلاة المتطرفين، الذين لايفقهون من نظام الدعوة وعقائدها شيئا ، انما التفوا حول ال زكرويه بقصد النهب والسلب والمنافع الدنيوية الذاتية وسفك الدماء وقد شجعهم ال زكرويه ووفروا لهم الاجواء لتنفيذ اهدافهم الهدامة ، مما جعل المخلصين من الدعاة والجماعات يستغربون هذا الانقلاب في مبادئ الدعوة وانظمتها ، فيظهرون التذمر والشك والتردد، لهذه الاسباب فان داعي الدعاة الحسين بن الاسود يطلب باصرار تنحية ال زكرويه وابعادهم عن مناصب الدعوة القيادية ..." [1] وبالتالي احيط ال زكرويه بعدة اعداء ساهم هؤلاء جميعا في استئصالهم ما عمله ابو الحسين بن الاسود بعد ان اصبح كبير الدعاة ،عزل ابي القاسم بن ابي محمد المعروف ب "يحيى زكرويه" عن دعوة الكوفة وهذا يعني غضب زعماء الاسماعيلية عليهم ، وزيادة حدة التوتر بينهم وبين انصار عبدان من جهة اخرى وهكذا ضاق الخناق عليهم بفعل انصار عبدان واقصائهم من قبل ائمة الاسماعيلية كما ان العباسيين كانوا جادين في استئصالهم كما يشير الى ذلك ابن الاثير في كامله، كما انهم لم يستطيعوا الذهاب الى ابي

[1] ـ م غالب، م س ، ص ٣٤٥

سعيد لانه كان غاضب عليهم بسبب فعلهم مع حمدان وعبدان وهو اي ابي سعيد مخلص لصاحبيه . وهنا يشير الباحث عليان "بسبب الموقف السلبي من جانب المهدي دفع ال زكرويه في النهاية الى الشعور بالحيف ،فنكلوا بأهل بيته في سلمية سنة ٢٩١هـ" [١]

المهم ان وصول الحسين بن الاسود كان ممهدا لتنحية ال زكرويه من الحكم وقرر عبيد الله المهدي تنحية ال زكرويه من كافة المناصب القيادية في الدعوة وامر الدعاة بقطع علاقتهم معهم فبينما كانت جيوش يحي ابنه تنتقل في العراق وبادية الشام كان داعي الدعاة الحسين بن الاسود يحرض على ال زكرويه ، المهم بدأ صراع ال زكرويه هنا مع ائمة سلمية وبدأ كرههم للامام عبيد الله بن المهدي وكاتبوه بلهجة قاسية ، ونفوا كل اتهامات داعي الدعاة الحسين بن الاسود.

٥.المشاكل التي اعترضت حركتهم فهي:

١- خطاب الامام عبيد الله بن المهدي ضدهم وتحريض داعي الدعاة "الحسين بن الاسود" عليهم.ويعلق الباحث عليان عن العلاقة بين ائمة سلمية وال زكرويه قائلا " انه لا يمكن القول بأن حركة ال زكرويه في بلاد الشام كان يوجهها ائمة الاسماعيلية المختفون في سلمية في الوقت الذي ثبت فيه سلبية المهدي منها، وعدم ثقته في القائمين عليها ، وكذلك موقف ال زكرويه العدائي من المهدي والمناداة بزعيمهم زكرويه اماما" [٢]

---

[١] - عليان، م س ، ص ٨٩

[٢] - عليان ، م س ، ص ١٠٦

٢- انصار عبدان وحمدان قرمط ، بدأوا يتربصون بهم الدوائر ويضيقون على اتباعهم وانصارهم الخناق.

٣- تخلى عنهم ابي سعيد الجنابي واعلن موقفه على الحياد من هذا الصراع الداخلي ، وحتى من صراعهم مع العباسيين.لكن ابا سعيد وقف من حركة زكرويه وولده موقفا سلبيا ، لانه كان من تلامذة عبدان الحاقدين على زكرويه ، وقد اعان ذلك العباسيين على التخلص من زكرويه وولده.

٤- محاولات العباسيين الكبيرة التي بذلوها لاستئصال شأفة ال زكرويه. سيما الخليفة العباسي المكتفي

٥- اعتمادهم على البدو في ثورتهم حيث كان غرض البدو الرئيسي هو النهب والسلب والقتل مما جعل دولة ال زكرويه دولة مرعبة فرقت عنها الانصار

٦- هجوم الحسين بن زكرويه على قصر الامام عبيد الله وقتله لاهله ودعاته وخدمه مما جعل الكثير من انصار الدعوة يبتعدوا عنهم لانهم امنوا بخروج زكرويه على ائمة سلمية .

ومع كل هذه المشاكل نجدهم يستمرون في نهجهم حيث اقدموا على مهاجمة البصرة ومع طلب والي البصرة النجدة من العباسيين نجدهم قد احتلوا اجزاء من المدينة وسلبوا وقتلوا واستمروا بالهجوم على بلدات الشام ،غير ابهين بدعوى الامام عبيد الله بتنحيتهم حتى ان امامهم عندما سمع بمقدمهم الى الشام انهزم الى المغرب ومع ذلك توجه اليه الحسين بن زكرويه لغرض دعوته بانهم يمهدون له دولته والتقاه في "الرملة" الا ان المهدي لم يقبل دعوته واستمر في سفره الى المغرب ولم يلتفت لكلام الحسين بن زكرويه ،والحوار كان يركز

من خلاله الحسين بن زكرويه على المعارك التي خاضها بجيشه نصرة للامام عبيد الله .

، بل وصل الامر الى ان الحسين بن زكرويه اتهم بانه اوصل خبر ان الامام الاسماعيلي كان موجودا في القاهرة بعدما خرج من سلمية وطالب الخليفة العباسي عامله على القاهرة بالقاء القبض عليه .. بعدما اوشى به الحسين وكان هذا هو الخروج الثاني على الدعوة الاسماعيلية .. الاول :حمدان قرمط كما مر بنا ، وعوقب من قبل الحسين بن زكرويه نفسه لخروجه عليهم، والثاني ،الحسين نفسه يخرج على ائمة سلمية ، عندما استلم زمام الامور بعد مقتل اخيه يحي بن زكرويه سنة ٢٨٩هـ حيث دخل قصر الامام في سلمية واجتمع بجواريه ودعاته وحاول ان يستدرجهم عن احوال الامام وعن مكان توجهه الا انهم اجابوا بالنفي فما كان منه الا انه امر بقتل جميع من في قصر الامام [١]

ومن الذين قتلوا داعي الدعاة "الحسين بن الاسود" ولقب الحسين بن زكرويه نفسه ب" عبد الله بن احمد بن عبد الله المهدي المنصور بالله والناصر لدين الله والقائم بأمر الله ،والحاكم بحكم الله ، الداعي الى كتاب الله، وانه الامام المنتظر الذي تروج له الدعوة "[٢] وكل هذه الالقاب تذكرنا بالقاب الائمة الاثني عشرية ايضا مما يدلل ان عملية الامامة تقوم على نفس المبادئ وان هذه الالقاب هي القاب فضفاضة بالامكان ان يستخدمها اي شخص ، وتدلل ايضا على ان قضية المهدي المنتظر قضية نفعية يراد لها الترويج للحفاظ

---

[١] - م غالب، م س ، ص٣٧٤
[٢] - م س ، ص٣٧٤

على مكانة الائمة ، واستخدمها القرامطة كما استخدمها الاثني عشرية ، لذلك نجد ان الحسين يلقب نفسه بالامام المنتظر ... وانقلاب الحسين بن زكرويه على ائمة سلمية بهذا الشكل الكبير هو اول انقلاب من نوعه في الحركة القرمطية بعد انقلاب حمدان ، ويبدو ان الامام الاسماعيلي عبيد الله المهدي كان مدركا لخطورة الوضع لذلك ترك سلمية وهذه الاحداث تنفي نفيا قاطعا ما تناوله عارف تامر من كون الحركتين الاسماعيلية والقرمطية شيئا واحدا .

وال زكرويه وعلى راسهم الحسين كانوا يطمحون لاقامة دولتهم في السواد على غرار دولة البحرين التي اقامها ال الجنابي ، الا ان العباسيين كانوا لهم بالمرصاد لقرب تحركات ال زكرويه من بغداد ، عكس ال الجنابي الذين خدمتهم بعدهم عن المركز . ويضاف الى ان ال زكرويه لم يشتغلوا للاطاحة بالمركز وضربه بل اشتغلوا على الاطراف وهذا يسهم حسب نظرية المركز والاطراف لسمير امين في اضعاف ثورتهم وتمكن المركز منهم ، لان المركز سيبقى قويا ويراقب ما يفعل بالاطراف القريبة منه ، وبالتالي تمكن العباسيون من رصدهم وانهاء تمردهم ، في حين بقي ال الجنابي بمأمن لبعدهم عن المركز على الرغم من كونهم لم يشتغلوا على المركز ايضا. كذلك فان ال زكرويه لم يستطيعوا اقامة دولة على غرار دولة البحرين والسبب الاساس هو اعتمادهم على البدو والغزوات وعدم وجود النظام الدقيق الذي اشتغل عليه ال الجنابي في البحرين والذي سنعرض له ، بالاضافة للاسباب التي اوردناها في اعلاه.جعلت من سيطرتهم على سواد العراق والبادية مسألة وقت حتى قضت عليهم الدولة العباسية .

الفصل الر ابع

دولة القرامطة في البحرين والاحساء

تمتاز البحرين بموقع جغرافي على ساحل الخليج العربي وعلى الطريق بين الهند وفارس والشام والجزيرة ، وقد جعلها هذا الموقع مركزا تجاريا هاما يكاد يوازي في اهميته مركز مكة التجاري قبل (الفتح الاسلامي) فالطرقات البرية تصل بين البحرين والبصرة والبحرين واليمامة ومكة ، والطرقات البحرية تربطها بفارس والهند وكانت فيها تجارة رائجة وصناعات وزراعة مزدهرة ، والبحرين فقدت نشاطها التجاري بعد الفتوحات (الغزوات) الاسلامية ، وقدظلت البحرين في عهد بني العباس على هامش الحياة الاقتصادية والسياسية وتجارتها ازداد تدهورها وكساد الحرف وضرائب السلطة المركزية ففي اطار هذه الازمات نشأت الحركة القرمطية فيها حيث بدأت الدعوة من القطيف واستجاب للدعوة الحسين وعلي وحمدان من ال سنبر وهم ما بين قصاب وجمال وكان على راس الدعوة ابي سعيد الجنابي وابي طاهر بعده وسنأتي على ذكرهما في القادم من هذا الفصل :

١- الحسن بن بهرام الجنابي (ابو سعيد الجنابي) :

اقام دولته على شواطئ خليج العجم [١] (الخليج العربي) حاليا ، وعرفت دولته فيما بعد بجمهورية القرامطة ، وهو من الدعاة و كان يعمل تحت مراقبة حمدان وهو من قرية جناب في جنوب بلاد العجم ويرجح الباحث الفلسطيني بندلي جوزي أن ابا سعيد الجنابي كان من طبقة العمال وقد ذكر عنه انه كان يشتغل بترقيع اكياس الطحين بأجرة بخسة جدا

[١] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٦٧

[1] وبالتالي نجد ان الحركة القرمطية قادها فلاح بسيط الذي هو حمدان وعامل هو ابي سعيد الجنابي وكلاهما كان قد تأثر سلبا بالمركزية المقيتة للدولة العباسية وسيطرتها على الاراضي وفرضها الضرائب الباهضة على الناس ،وكان قد اقتنع بالدعوة الاسماعيلية عن طريق الداعي عبدان الذي التقاه في الكوفة ، أصبح مسؤولا عن اقليم البحرين وكان يعطي الارض لمن يحسن فلاحتها ويمنع استخدام العبيد والاماء وبنى المدارس لتعليم الاطفال ويوزع الاموال والحنطة والشعير بالتساوي لم يبق في عهده لا محتكر ولافقير ولاعاطل وكل هذا جرى بسرية تامة دون ان يشعر الخليفة العباسي بشيء منه واعلن دولته في البحرين والاحساء و ارسى مبادئ العدالة مع الناس وطبقها بينهم .

ويذكر بندلي جوزي ان ابا سعيد لم يكد يطأ ارض البحرين ويشرع في عمله حتى اخذ يلتف حوله سكان تلك المقاطعة على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم من اهل المدن الناقمين على الدولة العباسية ونظامها السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم ولم يخلقوا له، ويضيف "من اعراب البادية الذين عرف عنهم من يوم ظهر الاسلام انهم كانوا يكرهونه ويكرهون شعائره واحكامه ولاسيما ما له علاقة بالزكاة والاعشار التي لم يتعودها البدو واظنهم لن يتعودوها ويعلم القارئ ان سكان البحرين كانوا في طليعة اهل الردة ومن خرج على الاسلام بعد وفاة النبي [2] فيتضح ان دعوة الحسن بن بهرام اخذت تنشأ وتقوى في هذه الاقاليم نتيجة تركيزه على العدالة الاجتماعية ورفع عنهم

[1] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٦٧
[2] - جوزي، م س، ص ١٦٧

الظيم والقهر والاستبداد العباسي خصوصا انه دعاهم ايضا الى ترك الشعائر الدينية واكثر حدود الدين التي لم يألفوها الى ذلك الوقت .

ودعاهم الى المؤاخاة على اختلاف الاجناس والديانات ووعدهم بالسعادة على هذه الارض وفي هذه الدنيا لا في عالم اخر يكادون لا يتصورونه ولا يعرفون عنه شيئا [١]

بالتالي كانت نظرته نظرة مادية الى الامور ، وكان ممن قبل دعوته واستجاب له وساعده في نشر مبادئه في العدالة الاجتماعية شخصية لم يسلط عليها التاريخ الضوء كثيرا اسمه " حسن بن سنبر" وهو الذي ذكره ابي العلاء المعري في بيت له:

عكس الانام بحكمة من ربه   فتحكم الهجري فيه وسنبر[٢]

وحسن بن سنبر حسب اشارات المصادر كان وجيها ومحترما في قبيلته وذا نفوذ كبير في البحرين، فلما دخل في دين ابي سعيد وزوجه ابنته قويت منزلة ابي سعيد في البلاد وكثر اقبال الناس عليه ، فلم تمض على اقامته هناك مدة طويلة حتى اصبح الاقليم في يده ولم يبق في طاعة الخليفة سوى هجر وبعض القرى المجاورة لها

ودخل "هجر"عاصمة البحرين" سنة ٢٨٧ [٣]وقتل منهم مقتلة عظيمة، وخاف المعتضد على البصرة منه ولكن لم يستطع السيطرة عليها وكان المعتضد العباسي وخوفا منه على البصرة قد ارسل العباس بن عمرو سنة ٢٨٩ هـ في

[١] - م س ، ص ١٦٨
[٢] - م س ، ص ١٦٨
[٣] - جوزي، م س، ص ١٦٨

الفي رجل وولاه البحرين فالتقى الحسن بن بهرام وانتصر عليهم . وقد ترك ابو سعيد عباس الغنوي وهو قائد الجيوش العباسية واخلى سبيله وسلمه كتاب مهم جدا نستطيع من خلال نقله هنا ان نقع على الكثير من اراء القرامطة في هذا المجال:

قال ابو سعيد في كتابه هذا الى امير المؤمنين وخليفة المسلمين[1]

" ما هذا ؟ اتخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع اعداءك في نفسك بانفاذ الجيوش الي وانما انا رجل في فلاة ولا زرع عندي ولا ضرع ولا لي بلد وقد رضيت بخشونة العيش والامن على المهجة والعز باطراف الرماح وانظر فاني ما اغتصبتك بلدا كان في يدك ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل ومع هذا فوالله لو نفذت جيشك كله ما جاز ان تظفر بي ولا تنالني لاني رجل نشأت في هذا التقشف فتعودته انا ورجالي فلا مشقة علينا فيه ونحن في اوطاننا مستريحون وانت تنفذ جيشك من الحرير والثلج والرياحين والند ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق شاق فيصلون الينا وقد قتلهم السفر قبل قتالنا وانما غرضهم ان يبلوا غدرا في قتالنا ومواقعتنا ثم يهربون فان لحقوا مع ما قد لحق بهم من عناء السفر وشدة الجهد كان اكبر اعواني عليهم فما هو الا ان حققت عليهم حتى ينهزموا، واكثر ما يقدرون عليه ان يجيئوا فيستريحوا ثم تكون عدتهم كثيرة وبصيرتهم قوية ،فحينئذ لا يكون لي بهم قبل فانهزم فلا يقدر جيشك ان يتبعني الا مسافة قريبة فما هو ان ابعد عشرين فرسخا او ثلاثين وأجول في الصحراء شهرا او شهرين ثم اكسبهم على غرة حتى اقتل جميعهم،

[1] ـ الكتاب ننقله عن بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، م س، ص ١٦٩-١٧٠

وان لم يتم لي هذا وكانوا متحوزين فما يمكنهم ان يطوفوا حولي ولاخلفي في البراري ولا يتبعني الطلب في البوادي ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد ان كانوا كثيرين فلا بد ان ينصرف الجمهور ويبقى منهم قتلى سيوفي اول يوم نلتقي فيه ، هذا ان سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها وهوائها الذي لا طاقة لهم به لانهم نشأوا في ضده وربوا مع غيره ولا عادة لاجسامهم بالصبر عليه، ففكر في هذا ونحوه وانظر هل يعني تعبك وتغريرك بعسكرك وجيشك وانفاقك الاموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الاخطار وتحملك المشاق بطلبي وانا مع هذا خالي الذرع منها سليم النفس والاصحاب جميعا واما هيبتك فتخرق واما الاطراف فتنتفض واما الملوك من الاعداء فتتجاسر كلما جرى عليك من هذا شيء ، ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل مني الى حال ولا مال فان اخترت بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى واقدم على بصيرة وانفذ من شئت واضطرب كيف احببت وان امسكت فذلك اليك" ويتبين من الكتاب شجاعة الحسن بن بهرام واقدامه وتخويفه الجيش العباسي وثقته بجنده وجيشه وتبيانه لبيئته الصعبة التي يقاتل بها جيشه وهي بيئة الصحاري القفار وبعد هذا الكتاب امتنع المعتضد عن محاربة ابي سعيد واستطاع ابو سعيد ان يحرر هجر من الخلافة العباسية .ويتبين من الكتاب قدرة الحسن بن بهرام على المراوغات العسكرية واختياره الصحيح للارض التي يقاتل عليها وذكاءه الشديد ،فبالتالي بين ان من معه كلهم من اعراب الصحراء العارفين بطرقها ومسالكها والمتعودين على تطرف اجوائها ، اما جند الخلافة فهم لم يعتادوا على هذه المسالك ، كذلك فان اختيار ابي سعيد لهجر وبعدها عن

بغداد اعطاه كل تلك الفترة الزمنية لبقاء هذه الدولة الفتية وتاسيسها تاسيسا صحيحا واتاحة تطبيق الرؤية الاشتراكية الجنينية فيها.

وكانت مدة حكم الحسن بن بهرام الجنابي الذي قتل سنة ٣٣١هـ ١٥ سنة (وهنا اشكالية كبيرة تثار على هذا التاريخ) هذه السنة هي سنة وفاة ابنه سليمان الجنابي ويذكرها عارف تامر ص ١٤٤ من كتابه عن القرامطة كون عارف تامر يذكر ان الحسن قتل سنة ٣٣١هـ ويرجع ليقول ان ابنه سليمان استلم الحكم سنة ٣١٠هـ وبعد تقصينا يكون هذا التاريخ صحيح اي ان سليمان استلم سنة ٣١٠هـ فكيف يستلم الابن قبل مقتل ابيه وهو قد وصى له كما يقول عارف تامر ص ١٤١ من مصدره المذكور "وقبل موته اوصى لولده سليمان المعروف بأبي طاهر بالزعامة". بالتالي فموت ابي سعيد تقصيناه سنة ٣٠١هـ

وخاف المعتضد على البصرة ولكن القرامطة لم يتمكنوا من البصرة لاهميتها بالنسبة للعباسيين وفي راينا ان البصرة يسكنها اناس موالون للعباسيين وهم من اهل السنة في غالبيتهم ، وكذلك لان البصرة مركز تجاري واقطاعي كبير يسكنها تجار كبار من الصعب رضوخهم الى تعاليم القرامطة وان يجعلوا ممتلكاتهم مشاعة وان يكون للفلاح حصة الاسد منها . على الرغم من ان البصرة مركز لكبرى الثورات التي ثارت على العباسيين ومنها ثورة الزنج العظيمة .ومركزا لاهم رسائل فلسفية كتبت في تاريخ المسلمين "رسائل اخوان الصفا" والواقع ان الحسن بن بهرام قد نجح نجاحا كبيرا في تكوين دولة القرامطة في البحرين ولم ينتصروا او يشاركوا زكرويه وولده في حربه ضد العباسيين بل وقفوا موقف المتفرج من حروبهم وهذا مما ساهم في عدم

استنزافهم .ويشير عارف تامر الى ان قرامطة البحرين عند مقتل زكرويه وولده على ايدي العباسيين لم يكن لديهم المال الكافي ولا العدد ولا العدة للدخول بمعارك مع العباسيين ويقول " لم يكن قيامهم (ويقصد قرامطة البحرين) بهذا الشكل المروع يقتلون وينهبون في ارجاء الدولة العباسية الا انتقاما لقرامطة السواد" [1] وكلام تامر كأسماعيلي دائم الاتهام للقرامطة كون الاسماعيليين يقفون بالضد منهم .ولكن كلام تامر غير صحيح حول ان ال الجنابي انتقموا لال زكرويه بهذه الطريقة المروعة بهجومهم على الناس والمدن .. ال الجنابي كانوا يريدون توطيد سلطتهم في اقامة دولتهم لذلك قاموا بهذه الحروب ، كذلك لا ننسى ان السلطة العباسية المناوئة لهم كانت تتسم بالقسوة والظلم الذي اوقعته السلطة على كل من تثبت ادانته بالقرمطة ، هذا من جانب وانا ارى ايضا انهم وقفوا موقف المتفرج من ال زكرويه وهم يبادون على ايدي العباسيين بسبب ان ولاء الحسن بن بهرام كان لحمدان بن الاشعث الذي تلقى الحسن الجنابي "ابي سعيد" مبادئ الحركة منه والمه كثيرا قتله من قبل ال زكرويه .. فقد يكون موقف ال الجنابي المتفرج من ابادة ال زكرويه هو موقف تشفي من ال زكرويه نتيجة غدرهم بحمدان وعبدان وليس كما يذهب عارف تامر من ان قدرات ال الجنابي ما كانت تساعدهم لانقاذ ال زكرويه من بني العباس فانا اختلف معه تماما...

و البحرين التي خضعت لسلطة ابي سعيد عام ٢٨٦هـ والتي كانت في السابق ولاية فارسية، وان سكان مدن الساحل كما يشير ديكويا كان معظمهم من الفرس واليهود الذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول ، بل سالموا على

[1] ـ عارف تامر ، ص١٤١

جزية يدفعونها ، وبعد وفاة النبي كان هؤلاء من اوائل من خلع النير ، ولم يتوصل الى اعادة فرضه عليهم الا في زمن الخليفة عمر وكان سكان الداخل من العرب الذين لم يستسيغوا القيام بالفرائض العديدة التي فرضها الاسلام ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من البدو وقد كان لامير الزنج منهم انصار كثر ولما قمعت ثورة الزنج التجأ الكثير من رجاله الى البحرين، [1]امام المذهب الذي سيدعو اليه ابو سعيد لذلك كان نجاحه باهرا ، ويبدو ان للاسباب التي ذكرها ديكويا بخصوص الوضع الفكري للمنطقة التي سيطر عليها ابو سعيد الجنابي من كونهم فرس وكونهم عرب كرهوا الضرائب فرصة كبيرة لهم للخروج من ربقة الدولة العباسية والدخول في الطابع الاشتراكي الجديد الذي بعث به ابي سعيد الجنابي وقبله حمدان قرمط .

٢- سليمان الجنابي

بعد الحسن بن بهرام تسلم القيادة لدولة القرامطة الثانية ابنه سليمان الجنابي الملقب ب"ابي طاهر" واول عمل قام به هو مهاجمة البصرة و الكوفة كذلك وفي هذه السنوات انتهى ال زكرويه وبقيت فقط دولة القرامطة الثانية التي تمتد من سلطنة عمان مرورا بالبحرين والاحساء والقطيف والبصرة(دون السيطرة عليها) وحتى الكوفة ووصل حتى بغداد في سنة ٣١٢ هـ زحف جيش من بغداد لقتاله وحجة العباسيين انهم جاؤوا لحماية الحجيج فنازلهم ابو طاهر قرب الكوفة وهزمهم ودخل الكوفة وتمركز فيها ويعزى اليه سيطرته على الكعبة سنة ٣١٦هـ -٣١٧هـ

[1] - ديكويا، القرامطة ، م س ، ص ٤٢

ويصف ناصر خسرو ما فعله قرامطة البحرين من نقضهم للشعائر الدينية وعلى راسها فريضة الحج حيث يقول" قد ذهب احد هؤلاء السلاطين – يقصد به سليمان الجنابي- بجيش الى مكة ، ايام خلفاء بغداد، فاستولى عليها ، وقتل من كان يطوف حول الكعبة ، وانتزع الحجر الاسود من مكمنه، ونقله الى الحسا، وقد زعموا ان هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس اليه من اطراف العالم " وهنا بالتحديد يرد ناصر خسروي على ادعاء القرامطة هذا مبينا مذهبه من خلاله وقناعاته "ولم يفقهوا ان شرف محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وجلاله هما اللذان يجذبان الناس ، فقد لبث الحجر، في الحسا سنين طويلة ولم يذهب اليها احد واخيرا اشترى منهم الحجر الاسود واعيد الى مكانه" [1]

ويذكر بندلي جوزي اسباب دخول سليمان الجنابي لمكة واخذه للحجر الاسود

١- الانتقام لزكرويه وما فعله به بنو العباس عند اسره

٢- الحط من قدر خليفة بغداد وهيبته في عيون المسلمين .

٣- اشغال الخليفة وجيشه عما كان يجري في هذا الوقت من الحوادث المهمة في شمال افريقيا حيث بدا عبيد الله المهدي وولده بنزع تلك البلاد من ايدي عمال خلفاء بغداد وتاسيس الدولة الفاطمية[2] .

والان نأتي لنقاش هذه النقاط وكالتالي :

النقطة الاولى استبعدها تماما لان ال الجنابي كانوا بالضد من ال زكرويه نتيجة غدرهم بحمدان وعبدان وهذا ما شرحناه تفصيلا .وهنالك رؤية لدى

---

[1] - ناصر خسروي، سفر نامة، م س ، ص ١٦٠-١٦١

[2] - جوزي، م س ، ص ١٧٢-١٧٣

ديكويا عن تقاعس ال الجنابي عن نصرة ال زكرويه حيث يردها ديكويا في "كون يحيى بن زكرويه ومن بعده اخوه الحسين ، قد زعم كل منهما انه الامام المنتظر اي ،حفيد محمد بن اسماعيل وهذا ما رفضه قرامطة العراق والبحرين " [1]

والنقطة الثانية صحيحة تماما ، اما الثالثة فنستبعدها كون القرامطة ما كانوا على وفاق تام مع الدولة الفاطمية ، وهذا ايضا تطرقنا له ، والدليل انهم لم يعلنوا انهم جزءا منها بتاتا ، بل كان برنامجهم ورؤيتهم تختلف ، ولكن بقيت نقطة مهمة اغفلها جوزي وهي تتعلق بكون القرامطة ما كانوا يؤمنوا بالشرائع مما دعاهم الى مهاجمة الكعبة والحجيج. وكانوا يعتبرون الحج من شعائر الجاهلية ، وهذا يدلل انهم اختطوا لهم منهجا بعيدا جدا عن الاسلام بشكله السلفي او الاصولي . ويذكر جوزي ان سنة ٣١٢هـ كانت نكبة الحجاج المسلمون فيها. حيث بلغ ما قتل منهم ثلاثة الاف حاج، ووصل الرعب من جرائها الى عاصمة الخلافة بغداد. وكان الازهري العالم من بين الذين اسروا فوقع بيد تميم وقد بقي لديهم سنتين يكرس اوقات فراغه لدراسة تطبيقية للغة نشر فيما بعد نتائجها في كتاب التهذيب وهو عمل هام يقع في عشرة اجزاء ، هذا يدلل على انهم منحوه الحرية الكاملة في كتابة ما يشاء ، ولم يضغطوا عليه.

وكان ابوطاهر ينشد اثناء قتله الحجاج :

انا بالله وبالله انا يخلق الخلق وأفنيهم أنا [2]

---

[1] ـ ديكويا ، م س ، ص ٥٧

[2] ـ تاريخ اخبار القرامطة ، ثابت ابن سنان وابن العديم، ت :الحسن الاعصم القرمطي، تحقيق: د سهيل زكار، دار الامانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٧١، ص٥٤

وقد كان غرض القرامطة الوصول الى المركز بغداد والاطاحة بالخلافة ولكنها عجزت على راي العفيف الاخضر" لقلة سكان الاحساء من جهة ولتخليها من جهة اخرى لقاء جزية مالية فرضتها على بغداد عن منع الحج وضرورة الاطاحة بالخلافة لاخذ السلطة في بغداد : مركز التغلغل في العالم العربي، عجزها عن الانتقال من الاحساء الى بغداد الى القاهرة ، وهو ما حاولته الحركة في بداياتها على الاقل ، فحكم عليها بالموت في العزلة والحصار"[1]

ويسرد كامل مصطفى الشيبي رؤية خطيرة تؤكد اتصال الحلاج بالقرامطة ويعتبر ان هذا الاتصال كان سببا في قتله" وكانت احدى التهم التي قتل الحلاج من اجلها تتضمن انكاره للحج الى مكة بالذات ودعوته الى الحج القائم على النية الخالصة والتوجه القلبي، قد كان مصداق هذا الاتصال منبعثا من انه اغار القرامطة على مكة ونهبوها بعد موت الحلاج بتسع سنوات واختطفوا الحجر الاسود منها" [2]ومن اهم النصوص التاريخية التي تؤيد ما يذهب اليه الشيبي ما يذكره ابن العماد الحنبلي من ان الحلاج ادخل بغداد سنة ٣٠١هـ "مشهورا على جمل وعلق مصلوبا ونودي عليه: هذا احد القرامطة فاعرفوه" وقتل سنة ٣٠٩هـ ومن اقواله في الباطن " اما باطن الحق فظاهره الشريعة ،ومن تحقق في ظاهر الشريعة ينكشف له باطنها، وباطنها المعرفة بالله، واما باطن الباطل فباطنه اقبح من ظاهره وظاهره اشنع من باطنه" [3] ولكن قد تكون المناداة على الحلاج بهذا اللقب ليس لكونه قرمطي ، بل كون

[1] ـ العفيف الاخضر ، البيان الشيوعي ، دار الجمل ، بغداد، ٢٠١٥، ص ٣٢٠
[2] ـ كامل مصطفى الشيبي ، الصلة بين التصووف والتشيع ج١، دا ر الجمل ، بغداد، ٢٠١١ ، ص٤٠٣
[3] ـ م س ، ص٤٠٤

القرامطة كانت تهمة جاهزة لكل من تريد ان تقضي عليه الدولة العباسية ، على الرغم من التشابه الفكري بين الحلاج وبين القرامطة، حيث ان اهل الباطن يتشابهون في الكثير من افكارهم ، فالحلاج هو صوفي ،وايضا لا يمكننا ان ننفي انه استفاد من القرامطة او اتصل بهم، سيما رأيه في الحج الذي سقناه انفا.

كان ابو طاهر لا يدعو الى عبيد الله المهدي ومختلفا معه وعبيد الله لم يرض على فعلته فيما يخص نهب مكة والحجر الاسود حيث قال له " سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والايام ويلومه ويلعنه" [1] واعاد ما امكنه من الاموال الى اهل مكة وقال يعتذر اليه" ان الناس اقتسموا كسوة الكعبة واموال الحجاج ولا اقدر على ردها منهم" [2] وهذه دلالة على انه لم يلتزم بنهج ائمة سلمية كما ال زكرويه والحسن الاعصم فيما بعد سينقلب على ائمة الفاطميين الاسماعيليين ويحاربهم كما سنبين ... ومن الادلة شعره الذي يقول فيه"

انا الداعي الى المهدي ولا شك انني أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر [3]

ويقصد بالمهدي محمد بن اسماعيل وليس عبيد الله المهدي ، الذي اعتبر نفسه هو الامام .[4] وفي عهد ابي طاهر ايضا تم الزحف على الكوفة واتخذ

---

[1] - م س، ص ٥٤
[2] - م س، ص٥٥
[3] - عليان ، ص ١٥٤
[4] - ديكويا ، م س ، ص ٧٩

من مسجدها اصطبلا للخيول[1] وهذا يدلل ايضا على عدم ايمانه بالمساجد وانتقاصه منها وفي اعتقادي ان القرامطة ارادوا الانتقام من المساجد كمعابد استغلها الحكام ضد الفقراء، ففي راي فيتفوجل [2]ان السلطة غير المحدودة التي يمارسها الحاكم على الكادحين في هذه الحالة هي التفسير الوحيد لكونه الكاهن الاكبر والها ايضا ، كما انها تعلل اقامة تلك المعابد الهائلة التي نرى اثارها ، والتي لم يكن من الممكن انشاؤها الا بالسيطرة التامة على اعداد ضخمة من الايدي العاملة ،بالتالي وفي ضوء راء فيتفوجل هذا نجد ان القرامطة انتقموا من المساجد كونهم اعتبروها اداة بيد الحاكم للسيطرة على الكادحين، ،كما علينا ان نتبين انه كانت هنالك علاقة طفيفة بين القرامطة في البحرين والفاطميين في مصر في زمن ابي طاهر الجنابي فيقول ديكويا عن تلك العلاقة " اما انا فمقتنع بانه من الجائز ان يكون القرامطة قد تعدوا غالبا حدود مهماتهم في الامور العادية ولكنهم قد سلكوا بحسب اوامر قطعية واضحة فيما يختص بنهب المسجد الحرام " ويعلق على الرسالة التي ارسلها عبيد الله المهدي الى ابي طاهر بخصوص نهب الحجر الاسود بانها اصيلة وصحيحة والاجابة عن ذلك ميسورة ويضيف ديكويا "لم يكن ذلك"يقصد الرسالة" سوى خدعة ودهاء لابعاد شبهة التواطؤ الذي يمكن ان يصبح في غاية الخطورة ولا ادل على ذلك من اباحة شيوع هذه الرسالة علنا، اذ لولا تلك الاباحة لما كنا على الارجح حصلنا عليها اما الرسائل السرية فلا بد من ان

---

[1] - جوزي ، م س ، ص ١٧٥

[2] - احمد صادق سعد ، في ضوء النمط الاسيوي للانتاج ، تاريخ مصر الاجتماعي-الاقتصادي، مصر الفرعونية الهلينية ، الامبراطورية الاسلامية ، الفاطمية من المغرب الى مصر ، عهد المماليك، دار ابن خلدون، ط١، بيروت، ١٩٧٩، ص ٨.

تصاغ بعبارة مختلفة تماما ، بدليل ان الامر العلني الرسمي لم ينفذ ، فقد ظل الحجر الاسود في الاحساء حتى عام ٣٣٩هـ الذي اعيد فيه بامر المنصور الفاطمي "[1] وبالاحرى مقابل مبلغ مالي ضخم اعطي للقرامطة من قبل العباسيين لاهمية الحجر الاسود ومكانته لديهم "وأعاد القرامطة الحجر الاسود اخيرا سنة ٩٥١م ليس استجابة لطلب من الخليفة الامام الفاطمي المنصور كما نصت عليه بعض المصادر " [2] ويقصد فرهاد دفتري ديكويا كما بينا .

والقرامطة نهجهم الاستنزاف فقط فسليمان الجنابي سيطر على الكوفة وتركها وكذلك مكة بقي فيها ١٢ يوم وكذلك البصرة سيطر عليها وتركها وهكذا ، وبعد سيطرته للكوفة رجع الى هجر وهو ينشد:

اغركم مني رجوعي الى هجر فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ من ارض بابل وقارن النجمان فالحذر الحذر
الست انا المذكور في الكتب كلها الست انا المنعوت في سورة الزمر
سأملك اهل الارض شرقا ومغربا الى قيروان الروم والترك والخزر [3]

وهذه الابيات تدلل ان ابا طاهر كان يعتبر نفسه رمزا مقدسا وكذلك توضح انهم كانوا يؤمنون بالفلك كعلم وبحركة الكواكب ورجوعه الى عاصمته من دون ان يهاجم بغداد ، كان لا يريد ان يستنزف نفسه خصوصا ان جيش الخلافة قريب منه على الرغم من ضعفه ، ولكن العاصمة تبقى لديها قوة اما ما يذهب اليه من انه رجع من دون دخول بغداد قد يكون بامر من خليفة

[1] - ديكويا ، م س ، ص ٧٦-٧٧
[2] - فرهاد دفتري، م س ، ص ٤٢
[3] - جوزي، م س، ص ١٨٨

مصر الفاطمي فهذا كلام غير صحيح بتاتا لانه كانت لديه دولته اي ابي طاهر وهو لا يعترف بامامة الفاطميين ابدا، ومن خلال شعره يتبين لدينا انهم كانوا يؤمنون بالفلك كثيرا فقد يكون انسحابه لاسباب فلكية وهو يذكر من خلال شعره ان انسحابه كان بسبب الفلك.

٣- ابو طاهر يسلم الخلافة..

وفي العام ٩٣١م سلم ابو طاهر زمام الدولة في البحرين الى شاب فارسي كان قد راى فيه المهدي المنتظر ، لكن ثبت ان ذلك القرار كان مدمرا بالنسبة للحركة القرمطية ،فقد اقدم ذلك الشاب وهو الذي اظهر مشاعر قوية معادية للعرب وميلا لرفع التكاليف الدينية ، اقدم على سب محمد والانبياء الاخرين بالاضافة الى ادخال عدد من الاحتفالات الغريبة التي هزت المسلمين، وبعد ٨٠ يوم عندما بدأ المهدي الفارسي باعدام اعيان دولة البحرين، كان ابو طاهر مرغما على الاعتراف بان المهدي كان دجالا وأمر بقتله وهنا يشير فرهاد دفتري الى انه و"في البحرين نفسها كان القرامطة قد عادوا ، في اعقاب حادثة المهدي الفارسي ، الى اعتقاداتهم السابقة وزعم ابو طاهر مرة ثانية انه كان يعمل بتوجيه من المهدي المستور، وسرعان ما استأنف نشاطاته ، حيث راح يعترض قوافل الحجاج ويشن غاراته العسكرية عليهم وكانت وفاته في العام ٩٤٤م =٣٣٢هـ .

وعند وفاته كان اولاده صغارا لا يصلحون للحكم فتحرك اخوه سعيد للسيطرة على الحكم وهو الذي عزله عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥هـ .

٤- مجلس العقدانية :

هناك من يجعل عهد ابي طاهر بداية لحكم جماعي، تولى السلطة فيه مجلس حاكم يطلقون عليه اسم العقدانية ويستند اصحاب هذا الراي الى قول ناصر خسرو جاء فيه ان ابا سعيد قال قبل وفاته" يرى الملك ويحافظ عليه ستة من ابنائي"

كان يراس حكومة البحرين الجنابيين ، وهؤلاء الافراد الذين كانوا يحكمون لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم من الوزراء او اعضاء المجلس الاداري المعروف عندهم بالعقدانية الا في امور معلومة كقيادة الجيش ورئاسة مجلس الوزراء والاشراف على بعض الاعمال الثانوية ، والقوة الحقيقية كانت محصورة في ايدي اعضاء المجلس المؤلف من ستة اشخاص او وزراء يختارهم الشعب من اسرة ابي طاهر واعوانه المقربين او غيرهم ممن كان يثق بهم ومن اصحاب الدرجات العالية في الحزب وكان لهؤلاء الوزراء ستة وكلاء يجلسون وراءهم على تخت عال او على مقاعد الوزراء ان هم تغيبوا لسبب ما عن حضور الجلسة . والذي نعلمه عن هذا المجلس المعروف "بالعقدانية" انه كان يسوس البلاد ويحل ما يعرض عليه من المسائل بالاجماع وان جلساته كانت غالبا تحت رئاسة ابي طاهر او نسيبه اخي امراته ابي محمد سنبر [1] وهذا يدلل على الاختلاف الكبير بين القرامطة وحكومتهم وبين الفاطميين الذين كان يقودهم مبدأ الامامة وقداستها ، وهو ما تخلى عنه القرامطة بوقت مبكر جدا .

[1] ـ ص١٩٣، بندلي جوزي

يقول ناصر خسروعنه" ان ابا سعيد اوصى خلفاءه واتباعه ان يعاملوا الشعب بالعدل والشرف" وقال في مكان اخر" انه اذا دخل انسان على عضو من اعضاء العقدانية وحياه او سأله شيئا اجابه ذلك العضو بكل رقة وتواضع"

ويقول (ديكويا) عن هذا المجلس في زمن الحسن الاعصم مفصلا من كان فيه" الحسن بن سنبر حما ابي سعيد وابا طريف عدي بن محمد الغمر الذي اسر سنة ٣٢٢هـ كانا الوزيرين الاولين، ويأتي في مرتبتهم كل من ابي الحسن علي بن احمد بن بشر الحارثي وزير العدل والشرطة ، وثور بن ثور الكلابي الذي كان يشرف على اعداد السرايا التي كانت ترسل كل سنة في اتجاهات مختلفة ، وابي الحسن علي بن عثمان الكلابي الذي كان يشغل منصب ادارة البريد الهامة جدا وابي الفتح محمود بن الحسين المعروف باسم (كشاجم)[١] وزير الدولة وهو شاعر ذائع الصيت، وابنه ابا نصر الذي كان كاتب للحسن الاعصم[٢] ويتحدث ابن حوقل عن التفاهم بين اعضاء مجلس العقدانية " كان من رسومهم ركوب مشايخهم واولادهم فرادى ،فيجتمعون الى قبلة الاحساء ،بالمكان المعروف بالجرعاء، ويلعب احداثهم بالرماح على خيولهم ،وينصرفون افذاذا بغاية التواضع وقد لبسوا البياض لاغير "[٣] ويشير الدكتور محمود اسماعيل الى ان هذه الجماعة على قدم المساواة مع الحاكم الذي هو احدهم ولايختلف عنهم في شيء ويحكم بالعدل وفق نصيحة اقرانه .

[١] ـ شاعر قرمطي.
[٢] ـ ديكويا، م س، ص ١٢٤
[٣] ـ ديكويا، م س ، ص١٢٥

والفضل في الوفاق داخل العقدانية لا يرجع الى الشرطة او قوة حربية اخرى بل الى النظام الجديد وثقة الشعب به وبزعمائه.

و قرامطة البحرين بعد وفاة ابي طاهر وابي سعيد لم يكن لهم رئيسا ثابتا وانما كان هنالك مجلس شورى يحكمهم ويستدل من كلام ناصر خسرو من عدم وصفه لوجود خليفة ، يقول بندلي " نعم ان احفاد ابي طاهر واقرباءه ظلوا محافظين على نفوذهم وبعض امتيازاتهم الى ايام خسرو وربما الى ما بعد ذلك الا انهم لم يكونوا ينتخبون لرئاسة مجلس العقدانية الا نادرا فكانت السلطة محصورة في ايدي الوزراء واعوانهم واكثرهم من اسرة مؤسس الجمهورية القرمطية واقربائه ويضيف فاذا صح ذلك ، كانت هيئة الحكم في البحرين اقرب الى حكم الجمهورية الروسية في الوقت الحاضر - يتحدث عن ايامه- اي حكومة شوروية "صوفيت" يرأسها مؤسس الجمهورية ما دام حيا ثم اعوانه الاقربون بعد وفاته" [1]

٥- الانقسام في دولة البحرين:

بعد وفاة سليمان في عهد الامام "القائم" اصدر الامام امرا بتعيين احمد بن الحسن اخو سعيد وابعاد سعيد مرة اخرى عن قيادة القرامطة - وهذه حسب الروايات الاسماعيلية ، الدولة القرمطية في البحرين عاشت ايام يتحكم بها الاسماعيلين الفاطميين وايام بعيدة عنهم نهائيا -وجعل من احمد بن الحسن وصيا على ابن اخيه سابور بن سليمان ولقبه بولي العهد فانقسم القرامطة الى فريقين :ابناء سليمان وعلى راسهم سابور وعمه احمد ومعهم كبار القرامطة

---

[1] - جوزي، م س ، ص ١٩٥

ويسمون بالعقدانية اي :اصحاب العقيدة وكانوا خاضعين للدولة الفاطمية في المغرب ، على راي عارف تامر،والذي نشكك فيه ، (لان عارف تامر يميل الى ارتباط القرامطة بالفاطميين، وقد بينا في هذا الكتاب الاختلاف الكبير بين النهجين) وفريق ثان وعلى راسه سعيد بن الحسن الجنابي وكانوا يريدون الاستقلال ، العباسيين استغلوا هذه الفرقة فدعموا سعيد بن الحسن وانتصروا له على احمد فكانت الحروب قائمة بين الفريقين. وكانت هذه الحروب مستنزفة وقاصمة لهم وفي سنة ٣٥٣هـ ربح احمد الجولة على سعيد وبعد ان استتب للحسن بن ابي سعيد الجنابي الحكم يبدأ الانقسام الثالث.

ويشير بندلي جوزي الى انه وبعد وفاة ابي طاهر سنة ٣٣٢هـ كان خلفاءه واكثرهم من ابنائه وانسبائه الشجعان ورثوا عنه كثيرا من صفاته الايجابية كالشجاعة وحسن الادارة والميل الى تضحية المصالح الشخصية في سبيل المصلحة العامة والاهتمام بما يعود على الزراع والعملة بالخير والاخلاص للنظام الجديد وكانت شبه هدنة بين دولة بني بويه الشيعية وقرامطة البحرين بعد سنة ٣٣٢هـ حتى سنة ٣٥٣هـ "فكأنهم عدلوا عن الغزو للاسباب التي ذكرناها عن الغزو والنهب واشتغلوا بالمتاجرة مع جيرانهم الاقربين واصلاح احوال البحرين الداخلية وتعزيز نظامهم الاجتماعيا لجديد وتطبيق عيشتهم عليه وبالحقيقة ان ما نعرفه عن البحرين في ذلك العصر لا يدع محلا للشك في انها بلغت من الرقي في اقتصادياتها ومعداتها الحربية واخلاقها وادابها شأوا بعيدا جعل اكثر البلاد الاسلامية تحسدها عليه"[1] وان الاخبار قد بدأت تنقطع وتندر بعد النصف الثاني من الجيل الحادي عشر على راي بندلي جوزي عن

---

[1] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٩١

قرامطة البحرين خصوصا ما وقع من قتل سابور ابن سليمان سنة ٣٦١هـ ، ويشرح كذلك كيف كانت العلاقة فيما بعد مع الفاطميين حيث التقى جعفر احد احفاد ابي سعيد الجنابي سنة ٣٦٨هـ بعساكر الفاطميين وكسرهم وفي سنة ٣٧٤هـ حيث كانت لهم حرب مع السلطان صمصام الدولة حيث انتهت بكسر قرامطة البحرين وانتفضت عليهم قبائل في الجزيرة العربية سنة ٣٧٨هـ فكسرتهم وجعلتهم يتقهقرون الى هجر فحسب .

٦- الانقسام الثاني في الدولة القرمطية في البحرين وعلاقة قرامطة البحرين مع الفاطميين :

وهنا نرى سابور بن سليمان يثور على احمد بن الحسن عمه مطالبا بحقوق الزعامة معتبرا توليته ولده "الحسن الاعصم" المدعوم من قبل العباسيين وحلفائهم قيادة الجيوش القرمطية خروجا على الاوامر الامامية العليا ، فانتصر سابور وعزل عمه احمد واستلم شؤون القيادة لكن احد اخوة احمد جاء وقتل سابور واعتقل الجميع في احدى جزر الخليج العربي ، مات احمد بن سعيد الجنابي سنة ٣٥٩هـ وتولى الحسن الاعصم ابنه شؤون الزعامة في البحرين والاحساء ، وموقف القرامطة كان مساندا لال سابور وتابعيه ولاجل هذا يشير عارف تامر "ان الفاطميين منعوا الضريبة التي كانت تدفع للقرامطة على دمشق وهذه كانت مخصصة للفريق الثاني اي فريق الحسن الاعصم وعندما كان الاعصم منشغلا في حرب الفاطميين في مصر تمكن ال الجنابي من الخروج من جزيرة "وال" في الخليج العربي وجهزوا جيشا ساروا به نحو الاحساء واحتلها مما اضطر المطيع العباسي الى عقد الصلح معهم ولكن

الاعصم ارتد عن القاهرة وعاد الى البحرين لاخماد فتنة ابناء عمه ال طاهر وبعد معارك دامية تمكن من السيطرة على الموقف" [1] ان التحول في علاقات الحركة الخارجية من الفاطميين الى العباسيين هي نتيجة متوقعة بسبب الانقسامات والخلافات التي اشرنا اليها داخل الحركة والتي اصبحت بحاجة الى من يمولها ويدعمها من الخارج ، ال الجنابي كانوا اكثر فهما واشد مرونة من ال زكرويه في العراق، والعباسيين ضموا الى صفوفهم فريقا من ال الجنابي وهم جماعة الحسن الاعصم ، وباعتقاد عارف تامر لو ان ائمة الاسماعيليين ظلوا في سلمية لما تمكن العباسيون من التسرب الى داخل صفوف القرامطة .

ويتبين لنا ان العلاقات كانت قلقة جدا بين قرامطة البحرين والفاطميين وهذه العلاقات وصفها ايضا بندلي جوزي معتبرا ان قرامطة البحرين بداية امنوا بالخلفاء الفاطميين ودعوا اليهم باسم الخلفاء الفاطميين وباسم "امام الزمان المحجوب" فكانوا يجمعون الضرائب باسمهم ويؤدون اليهم قسما كبيرا منها[2] ،ومن جهة اخرى هم كانوا يدعون لامام الزمان والمقصود به " محمد بن اسماعيل " حيث كانوا يؤمنون به ولا يؤمنون بالخلفاء الفاطميين حتى ان بندلي جوزي يناقض نفسه عنتدما يعتبر القرمطية والاسماعيلية واحد وعندما يتطرق لوفاة ابي طاهر الجنابي سنة ٣٣٢ هـ يقول عنه انه قتل بامر من خليفة مصر الفاطمي وخوفا على سلطته في سوريا من القرامطة . ويقول جوزي" ان ابا طاهر وابا سعيد وحلفاءهما لم يكونوا في الحقيقة الا عمالا

---

[1] ـ عارف تامر، مصدر سابق، ص ١٤٧
[2] ـ جوزي، م س ، ص ١٩١٩

لامام الزمان في البحرين يحكمون البلاد باسمه ويؤدون له الطاعة " [1] ويقصد بامام الزمان " محمد بن اسماعيل" لان الفاطميين لم يعودوا بحاجة الى امام زمان ، وائمتهم حاضرون" . كما يقول الباحث (بندلي جوزي) ان القرامطة قاتلوا باسم الخلافة الفاطمية في البحرين ، وهذا شيء مستبعد خصوصا اذا عرفنا انهم اقاموا دولتهم في البحرين وكانوا يسمون انفسهم (ابو سعيديون) كما مر بنا وليس فاطميون . ويأتي متاخرا بندلي جوزي ليقر " انه يظهر من بعض افعال القرامطة هناك ان بعد المسافة بينهم وبين امامهم "ويقصد الخليفة الفاطمي" واسبابا اخرى نذكرها بعد ذلك جعلت صلة القرامطة بالفاطميين ضعيفة وادت الى نوع من الاستقلال الداخلي او الحكم الذاتي في البحرين" [2] وهذا مؤكد وليس من باب الظن ولكن ليس بسبب بعد المسافة فحسب وانما البعد والاختلاف الفكري بين القرامطة وائمة الفاطميين ودولتهم ، من الممكن ان ابا سعيد كان بداية يؤمن بخلافة عبيد الله المهدي، الا ان ابي طاهر تنكر الخلافة الفاطمية ولم يعترف بها بتاتا ، صحيح انه لم يحاربها كالحسن الاعصم حفيد اخيه الا انه انكرها وتجاهلها ولم يتبعها بشيء.

كما ان قرامطة البحرين احبطوا في الواقع انتصارا سريعا للفاطميين في سورية ، وشكلوا عائقا خطيرا في وجه مد الحكم الفاطمي على الاراضي العباسية الشرقية خارج سوريا.

وقد ذكرنا (الحسن الاعصم) فيما سبق من الاسطر والذي كان شديد المعارضة للفاطميين بل انه عمل على محاربتهم وكان هو الذي يشكل عائقا

---

[1] - جوزي ، م س ، ص ١٩٢

[2] - م س ، ص ١٩٢

خطيرا بوجه حكمهم في سوريا والاراضي الشرقية من الدولة العباسية كما اشرنا فوجه له المعز الفاطمي كتابا نثبته هنا لاهميته يبين وجه الخلاف الشديد بين الفاطميين من ولد القداح وبين الحسن الاعصم القرمطي.

٧-كتاب المعز الفاطمي الى الحسن الاعصم :

وفي هذا الكتاب تتضح العلاقة الشائكة بين الفاطميين وليس كما يدعي البعض ومنهم عارف تامر ان القرامطة والفاطميين كانوا جبهة واحدة وحركة واحدة " ان الاسماء الثلاثة (القرامطة، الاسماعيليين، الفاطميين) تشكل اسما واحدا لحركة واحدة نبعت من اصل واحد"[١]

وساقسم الكتاب الى مجاميع :

١- نص الكتاب تتبين فيه القداسة التي كان يمنحها لائمة الفاطميين " كان من قضائه فينا قبل التكوين ، ان خلقنا اشباحا ، وبرزنا ارواحا، بالقدرة مالكين، وبالقوة قادرين، حين لا سماء مبنية ، ولا ارض مدحية ، ولا شمس تضيء ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليل يجن ولا افق يكن ، ولا لسان ينطق ولا جناح يخفق، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار، ولا كوكب سيار، فنحن اول الفكرة، واخر العمل بقدر مقدور، وامر في القدم مبرور، فعند تكامل الامر وصحة العزم، وانشاء الله جل وعز المنشات ، وابداء الامهات من الهيولات، طبعنا انوارا وظلما، وحركة وسكونا وكان من حكمه السابق في عمله ما ترون من فلك دوار، وكوب سيار وليل ونهار ، وما في الافاق من اثار معجزات واقدار باهرات، " الى ان يقول" ونحن ننتقل في

---

[١] ـ عارف تامر، ص١٦١

الاصلاب الزكية ، والارحام المطهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم اظهر منا قدرة وعلم ، وهلم جرا، الى اخر الجد الاول، والاب الافضل ، سيد المرسلين وامام النبيين ، احمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى اله " [1] ويتضح من الكتاب القدسية التي يتحدث بها المعز الفاطمي عن نفسه وعن اهله وهي لا تبتعد عن القدسية التي غلف بها الشيعة ائمتهم وجعلوهم فوق البشر مع دوغمائية واضحة المعالم. وهي دعوة الى الذات والى ضرورة اتباعهم .

٢- الكتاب يعمل على الغاء من لم يتبع الائمة الفاطميين ويوجه خطابا حادا للحسن الاعصم قائلا له " فأنت ايها الغادر ، الخائن الناكث، البائن عن هدى ابائه وأجداده، المنسلخ من دين اسلافه وانداده (تكفير واضح للحسن الاعصم من قبل المعز الفاطمي) والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم اغفل امرك ، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني اثرك، وانك مني لبمنظر ومسمع ،فعرفنا على اي راي اصلت، وأي طريق سلكت، اما كان لك بجدك ابي سعيد اسوة، وبعمل ابي طاهر قدوة ؟ اما نظرت في كتبهم واخبارهم؟ ولا قرات وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائبا عن ديارهم؟ وما كان من اثارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عبادا لنا أولي بأس شديد، وامر رشيد، وفعل حميد؟ يفيض اليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل امير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا ، منحة منا ، واسما من اسمائنا ،فعلت اسماؤهم، واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت اليهم وفود الافاق وامتدت نحوهم الاحداق، وخضعت لهيبتهم الاعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وان يكونوا لبني العباس اضدادا،

---

[1] ـ عارف تامر، مصدر سابق، ص١٦٤

فعبيت الجيوش وسار اليهم كل خميس بالرجال المنتخبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش الا كروه، ولا رئيس الا اسروه، ولا عسكر الا كسروه، والحاظنا ترمقهم " والذي يلاحظ هذه العبارات يتبين له حنقهم على الاعصم وتكفيرهم له وبانه خارج على الملة ويقارنه باجداده بالحسن الجنابي ابي سعيد الذي كان متبعا لائمة الاسماعيلية كما ينص الكتاب وكذلك ابي طاهر حسب ما تحدث المعز الفاطمي،وهذا قد يؤكد ان القرامطة في فترة من الفترات وبالتحديد في عهد ابي سعيد كانوا على صلة بالفاطميين، الا ان الحسن القرمطي انقلب على الفاطميين وحاربهم

وكذلك تمت استمالته من قبل السلطات العباسية جعله ينقلب على الفاطميين وبسبب هذا الكتاب يقول عارف تامر ان كبار القرامطة من اتباع ابي طاهر ثاروا ضد الحسن الاعصم القرمطي

٣- كذلك يبين الكتاب غطرسة القرامطة وقوتهم وكيف قاموا بحرب جيوش بني العباس وكسروها ، فهذا الكتاب يبين عظمة جيوش ال الجنابي ، كذلك يتضح من الكتاب ان ما في ال الجنابي من كرامة ونصر كان بسبب اتباعهم لنهج الائمة الذي خالفه الحسن الاعصم ، وبالتالي نخرج بنتيجة ان القرامطة ليسوا مع الفاطميين بوجه صلة وتفاهم فقد حاربهم قرامطة العراق بقيادة زكرويه وولده ، وخرج عليهم قرامطة البحرين في عهد الحسن الاعصم وحاربوهم على ابواب القاهرة ودمشق. كما انه يذكره بضرورة ان يسير وفق منهج اجداده باتباع الائمة الاسماعيليين وليس محاربتهم اليوم وبدعم عباسي ويستمر في توبيخه قائلا " فيا أيها الناكث الحانث ، ما الذي ارادك وصدك ؟ اشيء شككت فيه، ام امر استربت به؟ ام كنت خليا من الحكمة ، وخارجا

عن الكلمة ، فأزالك وصدك، وعن السبيل ردك، ان هي الا فتنة لكم ومتاع الى حين وايم الله لقد كان الاعلى لجدك والارفع لقدرك، والافضل لمجدك، والاوسع لرفدك، والانضر لعودك، والاحسن لعذرك، الكشف عن احوال سلفك، وان خفيت عليك، والقفو لاثارهم وان عميت عليك، لتجري على سننهم، وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم، اخذا بأمورهم في وقتهم، وزمرهم في عصرهم، فتكون خلفا قفا سلفا بجد وعزم مؤتلف، وامر غير مختلف، لكن غلب الران على قلبك، والصدأ على لبك، فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضياء، وامالك عن مناهج الاولياء" [1] ثم لم تقع في انتكاسك،وترديك في ارتكاسك، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الاباء، ومشيك القهقري والنكوص على الاعقاب، والتسمي بالالقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك، حتى انقلبت على الادبار وتحملت عظيم الاوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست، انك لمن الغاوين، وانك لفي ضلال مبين، ام تريد ان ترد القرون السالفة ، والاشخاص الغابرة، " [2] والملاحظ لكلام المعز الفاطمي يلحظ وبشكل مباشر مدى نقمته والغائه للقرمطي الحسن الاعصم وكرهه الشديد له وتكفيره اياه، واتهامه بالعصيان لائمة الفاطميين بل انه يرفض دعوة القرامطة ومنهجهم "لتقيم دعوة قد درست ودولة قد طمست" بمعنى ان دولة القرامطة ومنهجهم كان مخالفا تماما لمنهج الفاطميين ويذكره كيف كان اباؤه يتبعون منهج ائمة سلمية وكيف خالفهم الاعصم .

---

[1] - عارف تامر، م س ، ص١٧١

[2] - عارف تامر، ص١٧٢

٤- ثم يأتي ويذكره ببني العباس وكيف بدات دولتهم تتراخى وتتهاوى لان الحسن الاعصم كان متحالفا معهم ضد الدولة الفاطمية " اما علمت ان المطيع اخر ولد العباس واخر المترئس في الناس؟اما تراهم كأنهم اعجاز نخل خاوية ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ ختم والله الحساب ، وطوي الكتاب، وعاد الامر الى اهله ، والزمان الى اوله، وازفت الازفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها، والاية من وطنها، وجيء بالملائكة والنبيين" وفي هذا المقطع بالتحديد يركز المعز على ان دولة بني العباس زائلة لا محالة عن قريب ويذكره ان المطيع سيكون اخر خليفة عباسي وقد بويع بالخلافة سنة ٣٣٤هـ واستمرت دولة بني العباس بعد زوال الدولة الفاطمية وبقيت حتى سنة ٦٥٦هـ فأين كلام المعز الفاطمي مما يدلل ان المعز كغيره من الائمة يستخدم الدوغما كي يبين منهجيته ويخيف الاعصم الذي لم يغره كلامه هذا الممتلئ كذبا كي يصور له ان الفاطميين على حق و القرامطة على باطل .

٥- كما يبين له كيف قام الحسن الاعصم بقيادة جيش من العباسيين والاخشيديين وغيرهم من الحلفاء لمحاربة دمشق "ثم لم يكفك ذلك من بلائك وطول شقائك حتى جمعت ارجاسك وانجاسك وحشدت اوباشك وأفلاسك وسرت قاصدا الى دمشق وبها جعفر بن فلاح " من انصار الفاطميين"

٦- من خلال الكتاب يتبين لنا اعمال قام بها الحسن الاعصم يوردها كما هي ، وهي عبارة عن حروبه مع الفاطميين واتباعهم في سوريا ، وهي كما يلي :

أ- " وسرت الى دمشق وبها جعفر بن فلاح، في فئة قليلة من كتامة وزويلة وقتلته وقتلتهم ، جرأة على الله"

ب- "اتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان، في زمرة قليلة ، وفرقة يسيرة ، فاعتزل عنك الى يافا ، فلم تزل ماكثا على نكثك، باكرا وصباحا "

٧- ثم يعرض عليه مجموعة عروضات كي يكف عن قتال الفاطميين وهي :

"اما قدت نفسك بجعفر بن فلاح، وأتباعك بأنفس المستشهدين معه، بدمشق والرملة ، من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال ، وكراع، ومتاع ، الى اخر حبة من عقال ناقة ، وخطام بعير ، وهي اسهل ما يرد عليك، واما ان تردهم احياء في صورهم، وأعيانهم واموالهم واحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار، ، واما سرت ومن معك بغير ذمام ولا امان، فاحكم فيك وفيهم بما حكمت ، واجريكم على أحدى ثلاث : اما قصاص ، واما من بعد، واما فداء" [١] وبالتالي هو يريد منا عن جماعته جماعة الفاطميين من القرامطة ويطالبه بارجاع اموالهم جميعها .

والمحصلة التي يشير لها هذا الكتاب تقودنا الى :

١- يبين الكتاب مدى الاشكالية الكبيرة بين الفاطميين والقرامطة ممثلا بالحسن الاعصم .

٢- التأكيد على ان الفاطميين هم نسل (محمد وعلي) كي يكون هنالك تقديس لشخوص الخلفاء الفاطميين فهم " رسوم النطقاء ، ومذاهب الائمة والانبياء ، ومسالك الرسل والاوصياء، السالف والانف منا صلوات الله

---

[١] - عارف تامر، ص ١٧٦

علينا" والمغالاة واضحة فيهم " وكان من قضائه فينا ، قبل التكوين، ان خلقنا اشباحا وأبرزنا ارواحا، بالقدرة مالكين، وبالقوة قادرين، حين لاسماء مبنية ، ولا ارض مدحية، ولاشمس تضيء"

٣- التجهيل " فعند تكامل الامر وصحة العزم، وانشاء الله عز وجل المنشئات ، وابداء الامهات ، من الهيولات، طبعنا انوارا وظلما وحركة وسكونا ، وكان من حكمه السابق في عمله، ما ترون من فلك دوار، وكوكب سيار

٤- الدعوة الى الفاطميين بصورة واضحة "ايها الناس قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن ابصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها، ليذكر من يذكر"

ويعتبر كتاب المعز الفاطمي اخر وثيقة تفصل بين القرامطة والفاطميين بوضوح تام .

هنالك عدة ادلة عقلية نسوقها تثبت ان القرامطة في البحرين كانوا لا يمتون بصلة لفاطمية مصر لا كما يذهب الى ذلك بندلي جوزي من كونهم كانوا يتمتعون بعلاقات طيبة ومن ادلتنا :

١- كان القرامطة لا يعترفون بالملكية الفردية وقد انشأوا نظاما ماليا دقيقا يعتمد الاشتراكية الجنينية في المال ، والاراضي تكون ملكا مشاعا ،عكس الفاطميين الذين امنوا بالملكية الفردية وعملوا عليها.

٢- كان اتباع القرامطة في البحرين ونقلا عن ناصر خسرو يلقبوا انفسهم ب"ابي سعيديون" عندما يسالون عن مذهبهم وكان بامكانهم ان كانوا فاطميين ان يلقبوا انفسهم بالفاطميين.

٣- حمدان قرمط وقبل وفاته اخبر دعاته ومنهم ابي سعيد بكذب القداحيين وبانهم اتخذوا الامامة من بعد محمد بن اسماعيل كما اوردت الروايات الداعمة لهذا الشيء فلذلك كان ابو سعيد الجنابي يتصرف وفق رؤيته بعيدا عن الخلافة الفاطمية على الرغم من ان مصادر الاسماعيليين كانت ترنو الى ان هنالك علاقات مع الفاطميين والقرامطة وقد تكون صحيحة في بدايتها الا انها لم تكن بالقوة المنشودة .

٤- اقامة نظام جمهوري شوروي قائم على مجلس خاضع للانتخاب الجماعي بدلا من الوراثي في دولة البحرين وبذلك يكون هذا خلاف جوهري بينهم وبين الاسماعيلية التي اعتمدت على الوراثة في تسيد أئمتها حيث يخلف الابن ابيه ، والمركزية في الحكم كذلك في حين ان القرامطة يعتمدون الشورى والانتخاب فيما بعد انتهاء حقبة ابي سعيد وسليمان الجنابي حيث اعتمدت عناصرهم الامامة في الاعقاب ابتداء كما فعل ال زكرويه وال الجنابي كما اشرنا ، ولكنهم الغوا نظام الوراثة في الحكم والامامة فيما بعد بتأسيسهم العقدانية اما في الاموال فلا وراثة بين المتوارثين حسب الشرائع ، فهم قد الغوا نظام الوراثة اقتصاديا الا انهم ابقوه في ائمتهم ابتداء ، يقول عليان " انه من المستبعد ان يسعى القرامطة الى الغاء هذا النظام في الوقت الذي كانوا ينادون بتسلسل الامامة في الاعقاب ويؤمنون بانتقالها من الاب الى الابن "[1] غير ان كلامه غير دقيق ، لاننا يجب ان نفرق بين ايمان القرامطة بامامة قادتهم وراثيا وكما اشرنا فقد في بدايات دولتهم وبين الغاءهم الوراثة المالية بين الناس .

[1] - عليان ، م س ، ص٢٠١

٥- لقد اصبح القرامطة ملحدين بنظر الاسماعيلة ،ويشير الباحث الاستاذ عليان (اذا كان الفاطميون او على الاصح ، عبيد الله المهدي لم يؤيد قرامطة العراق في نشاطهم ضد العباسيين في العراق وبلاد الشام تأييدا علنيا، او ان مؤرخي الاسماعيلية قد تجاهلوا الصلة بين الاسماعيلية والقرامطة فأهملوا ذكر قرامطة العراق، فان ذلك يرجع الى ظروف سياسية نظرا لما ارتكبه القرامطة من جرائم وفظائع) على حد تعبيره . كما يظيف الباحث عليان" هناك كثير من الكتّاب يفرقون بين القرامطة والاسماعيلية ويجعلون من هذه الفرقة (القرامطة) فرقة قائمة بنفسها، غير ان تلك التفرقة تتصل فقط بتكوينهم السياسي، لا بالعقائد التي يعتنقونها"[1] وهنا يريد ان يبين العليان وبالاعتماد على حديث المستشرقين هذا ان عقيدة الاسماعيلية والقرامطة واحدة والاختلاف فقط في التنظيم السياسي ، وهذا الرأي ليس بالصحيح تماما لما اشرنا اليه من اختلاف عقائدي .ولدينا دليل كبير يبرهن على الاختلاف بين المذهبين بدلالة الرقم ٧ حيث استمر القرامطة على ايمانهم بان الائمة سبعة اخرهم محمد بن اسماعيل ،وهو غائب في حين ان الفاطميين كانوا ائمتهم يفوقون العدد ٧ ويستمرون في الامامة لما بعد محمد بن اسماعيل. وليس لديهم امام غائب .فائمتهم حاضرون ويحكمون.

بحلول نهاية القرن العاشر كان قرامطة البحرين قد تقلصوا الى قوة محلية ولم نعد نعرف سوى القليل حول تاريخهم اللاحق ، وبحلول منتصف القرن الحادي عشر كانت الجماعات القرمطية في العراق وفارس ومنطقة ما وراء النهر قد انحازت وبشكل كبير الى جانب الدعوة الفاطمية او انها تفككت،

[1] ـ العليان ، ص ٥١

وفي العام ١٠٧٧م تمكن زعيم قبلي محلي من وضع حد للدولة القرمطية في البحرين ، مؤسسا على انقاضها سلالة اليونيين الحاكمة في شرقي شبه الجزيرة العربية [١]

٨-هجر"الاحساء" كما وصفها ناصر خسرو:

وهنالك وصف للحسا او (هجر) وهو الاسم القديم للحسا يذكره الرحالة ناصر خسرو في كتابه المهم سفر نامة حيث يبين ان " الحسا مدينة وسواد ايضا وبها قلعة ، ويحيط بها اربعة اسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ، وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كل منها لادارة خمس سواق ، ويستهلك كل هذا الماء بها، فلا يخرج منها، ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبرى ، وفيها اكثر من عشرين الف محارب "[٢] ثم يأتي على وصف معتقدات القرامطة ولكن ليس بشكل اكيد حيث يقول " قيل ان سلطانهم كان شريفا وقد ردهم عن الاسلام، وقال اني اعفيتكم من الصلاة والصوم، ودعاهم الى ان مرجعهم لا يكون الا اليه واسمه ابو سعيد " يقصد الحسن بن بهرام الجنابي" ، وحين يسألون عن مذهبهم يقولون : "انا ابو سعيديون" ، وهم لا يصلون ولا يصومون ، ولكنهم يقرون بمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبرسالته، وقد قال لهم ابو سعيد اني راجع اليكم، يعني بعد الوفاة، وقبره داخل المدينة ، وقد بنوا عنده قبر ا جميلا وقد اوصى ابناءه قائلا"يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من

---

[١] ـ فرهاد دفتري، خرافات الحشاشين، م س ، ص ٤٣

[٢] ـ ناصر خسرو ، سفرنامة ، ت : د يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، تصدير : عبد الوهاب عزام، ط ٢، القاهرة ، ص ١٥٩

ابنائي يحكمون الناس بالعدل والقسطاس ويختلفون فيما بينهم حتى اعود" ولهؤلاء الحكام الان قصر منيف هو دار ملكهم" وهذا بالتحديد ما بعد سنة ٣٦٦هـ اي بعد وفاة الاعصم، حيث انهي حكم البيوتات القوية وكان هؤلاء الستة الحاكمون بينهم وفاق اساسه التوازن في السلطات والصلاحيات وهم من الاسرة الحاكمة . ، وفي هذا المجلس تخت يجلسون هم الستة عليه، ويصدرون اوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون، ولهم ستة وزراء، فيجلس الملك على تخت والوزراء على تخت اخر ، ويتداولون في كل امر، وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون الف عبد زنجي وحبشي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين (هذا يبدو في اواخر دولتهم ، لان ناصر زارهم في وقت متاخر جدا، والا فان اتباع القرامطة سيما حمدان من العبيد والاحرار كما بينا في هذا الكتاب) وهم لا ياخذون عشورا من الرعية ، واذا افتقر انسان او استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لاحدهم دين على اخر لا يطالبه باكثر من راس المال الذي له، وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه من المال ، حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد والات ويرد الى الحكام ما اخذ حين يشاء، واذا تخرب بيت او طاحون احد الملاك، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح، امروا جماعة من عبيدهم بان يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل او الطاحون، ولا يطلبون من الملك شيئا، وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان- تطحن للرعية مجانا- ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها واجور الطحانين، وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات ويسمى وزرائهم الشائرة، وليس في مدينة الحسا مسجد جمعة ولا تقام بها صلاة او خطبة " وهذا دليل كاف على ان القرامطة اجترحوا لهم منهجا وخطا ونظاما يختلف كثيرا عن

الاسلام وعن الاسماعيلية الذين ظلوا محافظين على الصلوات والصيام .في حين يحدثنا عبد العزيز الدوري ان الدولة العباسية كانت تفرض الضرائب حتى على الطحين الذي هو قوت الناس. كذلك يتبين كيف ان جمهورية البحرين القرمطية كانت ترفع الضريبة عن الطحين ، بل انها تطحن للناس من دون اموال ، وتتكفل بغذائهم ، وتصلح المكائن التي تخرب ، ويتعهدون طبقة الصناع ويوفرون لهم الظروف المناسبة لاتمام صناعتهم ، لذلك اشتهرت البحرين انذاك بصناعات عديدة. ويكمل ناصر خسرو بان هنالك "حاج مسلم غني فارسي اسمه علي بن احمد بنى مسجدا كان يتعهد الحجاج الذين يبلغون الحسا، والبيع والشراء والعطاء والاخذ يتم هناك بواسطة رصاص في زنابيل يزن كل منها ستة الاف درهم فيدفع الثمن عددا من الزنابيل ، هذه العملة لا تسري في الخارج وينسجون هناك فوطا جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها" ودلالة وجود مسجد جامع في الحسا على الرغم من كونهم لا يبنون المساجد هو دلالة حرية الراي والتعبير التي امتاز بها مجتمعهم حيث يسمحون لمن يريد الصلاة ان يقوم بها في دولتهم والدليل قول ناصر في سفرنامة" اذا صلى احد فانه لا يمنع ، ولكنهم انفسهم لا يصلون" اما سلوك السلاطين مع الرعية فهو سلوك راقي يصفه ناصر قائلا" يجيب السلاطين على من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع ، ولايشربون مطلقا " وقد وضع ابو سعيد رؤية ذكية لعدم استغلال اسمه بعد وفاته "على باب قبر ابي سعيد حصان مهيأ بعناية ، عليه طوق ولجام ، يقف بالنوبة ليلا ونهارا ، يعنون بذلك ان ابا سعيد يركبه حين يرجع الى الدنيا ، ويقال انه قال لابنائه :حين اعود ولا تعرفوني ، اضربوا رقبتي بسيفي ، فاذا كنت انا حييت في الحال" وقد وضعت هذه الدلالة كما

يقول ناصر خسروي حتى لا يدعي احد انه ابو سعيد وهي رؤية ذكية منه تماما ، فهو قد وضع لنفسه قدسية بأن ادعى انه سيعود للحياة مرة اخرى ، وهذه هي عقيدة الرجعة التي تؤمن بها الفرق الباطنية كلها ، وبنفس الوقت هو يكذب هذه العقيدة ويمنع ابناءه من الوقوع بفخها مخافة ان يدعي احد بعد وفاته انه ابو سعيد فوضع هذه الخطة الذكية بأنه اذا ادعى احد انه ابو سعيد ولم يعرفه اولاده فعليهم ان يقتلوه فان كان هو رجع الى الحياة بعد قتله ، وهذه قضية مستحيلة تماما.

وهنا يقول ناصر " قد ذهب امير عربي الى ابواب الحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من اسوارها الاربعة وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من اهلها شيئا ، وقد سألني حين راني عما تنبئ به النجوم، قال: اريد ان استولي على الحسا فهل استطيع ام لا فان اهلها قوم لا دين لهم ، فاجبته بما فيه الخير له" [1] وهنا يعتبر بندلي ان هذا البدوي لم يستطع السيطرة على الحسا لان جمهورية البحرين وحسب الاخبار المتواترة كانت لا تزال في اوائل الجيل السابع للهجرة حية مستقلة راقية يدير امورها مجلس منتخب من اهلها بحسب النظام القديم الذي بقي جاريا في البلاد الى اوائل العصر الثالث عشر حين زارها ابن بطوطة[2] فاثارهم بقيت موجودة حتى اوائل العصر الثامن عشر.

واهل الحسا هم من البدو ومن صفات البدوي قلة اكتراثه بالتدين ولا يهتم بالنظافة فيقول ناصر في وصف اهل الحسا" وعندي ان كل البدو يشبهون

[1] - سفرنامة ، ص ١٦١

[2] - بندلي جوزي ، م س، ص ٢١٥

اهل الحسا،فلا دين لهم ، ومنهم اناس لم يمس الماء ايديهم مدة سنة /وهم لم يروا الحمامات والماء الجاري في حياتهم" [1].

ولقد بقيت جمهورية البحرين ، اطول عمرا من قرامطة السواد ، والسبب بعدها عن المركز بغداد ، حيث ان بعدها جعلها تتمتع باستقلالية يصعب الوصول اليها.

[1] ـ سفرنامة ، م س ، ص١٦٢

الفصل الخامس

المجتمع القرمطي

١-مكونات المجتمع القرمطي :

يتكون المجتمع القرمطي من (عامة) و(خاصة) حيث كانت مبادئ الدعوة واصولها لدى العامة. واسرار الدعوة ومراتبها العليا لدى الخاصة ، وهنالك الكثير من صفات هذا المجتمع اوردناها في مجالات البحث كافة ...

المجتمع القرمطي يتكون من اربع فئات :

١- الشباب بين(١٥-٣٠) سنة ويسمونهم "الاخوان الابرار الرحماء" .

٢- ما بين "٣٠و٤٠ سنة" يتلقون الحكمة ، وهي مرتبة الرؤساء ذوي السياسات ، مهمتهم مراعاة الاخوان وتعهدهم واظهار العطف عليهم ومساعدتهم وهم الذين يسمون الاخيار الفضلاء .

٣- مابين (٤٠-٥٠) سنة يعرفون الناموس الالهي معرفة مطابقة لدرجتهم كما انهم هم اصحاب الامر والنهي ونصر الدعوة ودفع المعاندين وهم الذين يعزى اليهم تأليف الرسائل.

٤- ما يزيد عمره على الخمسين سنة وهو اعلى المراتب في نظرهم ومن يصل اليها يكون فوق الناموس والطبيعة ويكون ذا كشف يستطيع ان يشاهد احوال القيامة من البعث والنشور والحساب والميزان وقد أطلق عليهم المريدين ثم المعلمين ثم القادة ثم المقربين الى الله[١]. وهنا تبرز الاسطورة في فكرهم والدوغما التي تنتهجها اغلب الحركات لكسب الاتباع .

ويشير الاستاذ" عليان "في هذا الصدد الى ان تقسيم المجتمع القرمطي الى اربع طبقات على اساس السن فلا بد ان يكون في مرحلة متأخرة من قيام

[١] ـ عارف تامر، م س ، ص٧٦

الدعوة، لان الذين استجابوا لها في البداية شيبا وشبانا ، كان التمايز بينهم يقوم على اساس ما يبذلونه من جهد، وما يقدمونه من خدمة، في سبيل نشر الدعوة، ويصح انه بمضي الوقت وابتداء من الجيل الثاني وما بعده، اصبح السلم الاجتماعي يقوم على اساس السن، بحيث اصبح من يصل عمره الى الخمسين سنة في اعلى هذا السلم، على اعتبار انه ولد في مجتمع قرمطي وظل يخدم الدعوة منذ شبابه حتى بلوغ الخمسين

وقد ضمت الحركة القرمطية عدة اصناف من المتطوعين وهم :

١- المثاليون المخلصون.

٢- الابطال والشجعان

٣- العلماء والامراء

٤- الفدائيون والاغرار المندفعون

وفي هذا الباب تولى شؤون القتال في المجتمع القرمطي جماعة خاصة من المحاربين الذين كانوا يعدون منذ الطفولة أعدادا عسكريا صرفا وفق نظام للتربية متعارف عليه فكانوا يجمعون في دور خاصة ويركبون الخيل ويذكر المقريزي ان جماعة المقاتلة في الأحساء بلغت عشرين الف جندي على استعداد للتضحية والفداء وكانوا في شجاعتهم في القتال مضرب أمثال.

من الواضح ان القرامطة تأثروا في هذا الصدد بآراء أفلاطون فيما يتعلق بطبقة الحراس التي كانت تعد منذ طفولتها أعدادا رياضيا فإذا بلغوا الثانية عشرة يزاولون التدريبات العسكرية ويتفرغون للحرب تفرغا تاما

٥- المغامرون وقساة القلوب (يبدو ان الحركة كانت تستخدم هذا الصنف من الناس لزرع الرعب بين من يعاديها والا لماذا اطلقوا عليهم "قساة القلوب") .

اما عن ترتيبات الدعوة الاسماعيلية والتي يظهرها عارف تامر لاول مرة حسب ادعائه :

١- امام ٢- حجة او باب ٣- داعي دعاة ٤- داعي بلاغ

٦- داع مطلق ٧- داع مأذون ٨- داع محصور ٩- جناح ايمن

٩- جناح ايسر ١٠-كاسر ١١- مكاسب ١٢- مستجيب .

ونحن نعتقد ان هذه المراتب هي واحدة بين الاسماعيلية والقرامطة .

٢-المرأة في المجتمع القرمطي:

لقد اخذت المرأة دورا كبيرا في مجتمعهم حالها في ذلك حال الفئات المستضعفة التي استهدفتها الحركة ، فالحركة استهدفت انقاذ الفئات المستضعفة من العبودية ومن الاذى ، وكانت المرأة في ذلك الوقت تعيش الاستضعاف ، فمنحتها الحركة قوة وارادة ومكانة ، فتحدثنا المصادر ان بنات الدعاة الابرز ارسلن الى سلمية للدراسة وذلك أن حسين الاهوازي قد طلب من زكرويه وأبي سعيد الجنابي "أن يختارا عددا من الفتيات والفتيان ليصار إلى إرسالهم إلى مقر الدعوة في سلمية للانتساب إلى مدرسة الدعاة العليا على أن يكونوا من أصحاب الذكاء الخارق، والنسب الصحيح، والسمعة الطيبة"

حيث كانت الداعية رقية بنت زكرويه رئيسة الفرع النسوي في السواد.وليلى الجنابي معلمة مشرفة على مدرسة الدعوة للبنات في البحرين ،

الداعية علياء بنت رضوان داعية متجولة للنساء في السواد ، الداعية سعدى بنت دندان مشرفة على النشاط النسائي التعاوني في السواد [1] والداعية علياء قد تزوجها يحيى بن زكرويه حيث التقاها الحسين واخيه فأعجب بها يحيى ، وليلى تزوجها الحسين بن زكرويه وانتقلت بنشاطها حول المرأة في العراق بدلا من البحرين وحلت محلها في البحرين رقية بنت زكرويه مع زوجها ابي سعيد الجنابي (ت ٣٠٢هـ) . وهذه المناصب التي استلمنها هؤلاء النسوة انما كانت بعد رجوعهن من الدعوة ودراستهن في سلمية .

وبالتالي اكتسبت المراة المكانة العلمية لاول مرة في تاريخها منذ قيام الاسلام ، كذلك تحدثنا المصادر من ان المراة القرمطية اشتركت في دفع الاموال ، وفي العمل في الغزل والخياطة وغيرها ، حيث شاركت المراة في العمل والانتاج وخدمة الجماعة .

ومن الداعيات البارزات في اليمن "الداعية رباب بنت علي الهمداني" وهي طالبة في السنة الأولى من دراستها العقلانية. وقد كانت ذكية، كثيرة الملاحظة، قوية المنطق، تنقاد إليها التعابير والكلمات انقيادا عجيبا، تحب المجادلة والمناقشة في مناسبة وغير مناسبة، وكل ما تنهد إليه من وراء مناقشاتها أن تحرج من يناقشها أمام الطلاب، وتظهر ضعفه أمام قوتها، وكان أغلب الأساتذة يتجنبون الخوض معها في أي موضوع تطرحه، وتحاول إثارة الجدل حوله حتى لا يُحَرَجوا أمام الطلاب، وتكون رباب هي المنتصرة"[2]

[1] ـ مصطفى غالب، مصدر سابق، ص ٢٩٦

[2] ـ مصطفى غالب، **القرامطة بين المد والجزرم س**، ص٢٦٨-٢٦٩

دخلت المرأة القرمطية في الدفاع عن العقيدة والدولة، وشكلت جزءًا من الجيوش العسكرية التي تحمي البلاد كما نقل المقريزي عن أبي سعيد الجنابي: "وأخذ الصبيان إلا أن يكونوا دون الأربع سنين سواء عبدا أو أمة أو حرا وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، ونصب لهم العرفاء، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان، وصارت دعوته طبعا لهم"[1] وهذا النص يبين كيف أشرك أبو سعيد المرأة منذ صغرها في الإعدادات العسكرية، وتعامل معها كما الرجل على حد سواء فكان التدريب على القتال للجنسين.

كما لعبت المرأة ا دورا بارزًا في الحياة الاجتماعية، فنحن نراها منذ نشأة القرامطة تشارك بجهدها في المعارك الحربية، فيروي الطبري في أحداث سنة ٢٩٤هـ ما يلي: "وكان نساء القرامطة يطفن مع صبيانهن في القتلى والجرحى يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن أجهزن عليه". وحين أخذ زكرويه أخذت زوجته معه، وكانت تدعمه وتؤازره، وتشد من عزيمته حتى آخر لحظة" [2]

٣- دورها السياسي:

لعبت المرأة دورا مهما في الحياة السياسية، ومن الأدوار السياسية لها ذلك الدور الذي لعبته ليلى بنت أبي سعيد الجنابي حيث اجتمع بها زكرويه والد الحسين زوجها ، وطلب منها أن تكون على رأس الوفد الذي سيذهب إلى البحرين لمقابلة والدها أبي سعيد الجنابي، ولكنها رفضت، ولكن زكرويه ألح

[1] -مساهمة في إعادة التاريخ العربي الإسلامي، برهان الدين دلو، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، الطبعة الثانية ٢٠٠١ـص٣٨٩

[2] - ثلاثية الحلم القرمطي - الدكتور محي الدين اللاذقاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣مـ، ص١٠١-١٠٢

عليها ورجاها أن تحاول إقناع ذويها بعقد معاهدة مع جماعة زكرويه حرصا على مصلحة الطرفين لان الخطر العباسي يتهدد الجانبين، فقبلت ليلى مرغمة وأخذت تعد نفسها للسفر"[1]

٤-المرأة في الحياة الاجتماعية:

سعت الدعوة القرمطية لتغيير النظام الاجتماعي عن طريق الثورة والتمرد على حالات الظلم في المجتمع" وأعطى النظام الجديد للمرأة ما للرجل من حقوق عائلية، ومجتمعية. منحها الحق في التعليم والعمل، وأعفاها من الأعمال الشاقة التي تتنافى مع طبيعتها الأنثوية، لذلك قامت الحكومة بإنشاء مطاحن الحنطة على قوة الماء تخفيفا لأعباء النساء"[2]، كما سمح لها بالتدرج بالدعوة حالها حال بقيت الدعاة ، حيث لا يوجد هنالك فرق بين المراة والرجل في صفات الدعاة .

كما شاركت المرأة في العمل الاجتماعي بكل مجالاته، وينقل عن أبي سعيد الجنابي في أول دعوته: "وعلى النساء المستجيبات أن يتبرعن بكل ما يملكنه من حلي ومتاع، ويشاركن بالجهود الدعوية والتنظيمية، لذلك سأختار بعض الأخوات الداعيات ليتولين قيادة المنظمات النسائية، ويشرفن على تقدم المرأة، ونشاطها في كافة الحقول الاجتماعية والصحية والتعليمية"[3]

وهذا الوعي جعل القرامطة "على درجة من التحرر الاجتماعي سمحت لهم باحترام المرأة فلم يحجبوها، ولم يمنعوها من الاختلاط بالرجال، فكانت

---

[1] - مصطفى غالب ، القرامطة بين المد والجزر، م س، ص ٣٨٨

[2] - عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة الصفحة ٣٧

[3] - القرامطة بين المد والجزر، ص١٩٤

النتيجة ضريبة ثقيلة من الاتهامات الأخلاقية التي لها أول وليس لها آخر، ولأنه لا بد - دائما - من ثمنٍ مًّا للخروج على تقاليد المجتمعات المتزمتة، فقد دفعت المرأة القرمطية هذا الثمن، وأصرت على تحررها الاجتماعي، وعلى مشاركتها الايجابية في بناء المجتمع. ومشاركتها تلك لا يمكن أن توصم بالإباحية إلا عند أصحاب النوايا السيئة من الكتّاب والمؤرخين"[1] ومن اللافت للنظر أن ظاهرة تعدد الزوجات أنها لم تكن مألوفة، فأبناء أبي سعيد من أم واحدة، وقد أوصى أبناءه بأن يتخذوا زوجة واحدة ليزيدوا سعادتهم في الدنيا، ويصونوا قوة أجسادهم"[2] ، وإن كنا "لا نستطيع أن نحكم بأن تعدد الزوجات لم يكن شائعا عند القرامطة لكنه يبقى احتمالا وارد التصديق لان كل أبناء أبي سعيد من أم واحدة، وكذلك أولاد زكرويه، وعلي بن الفضل،"[3] ، إلا أن هناك من يرى أنهم "حددوا الزواج بامرأة واحدة فقط، ومهدوا الطريق أمام هذا الزواج ببناء المساكن للخطيبين قبل الزواج، وبإلغاء المهر تماما، أو جعله رمزيا، ولها حرية الاختيار، وحق الطلاق، ورفض الزواج إذا رغبت الفتاة بذلك"[4]

وهذا كله يتبين مكانة المرأة الكبيرة في المجتمع القرمطي.

وفي المجال الاقتصادي نرى المرأة القرمطية على قدم المساواة مع الرجل بالمشاركة بما تملكه للدعوة وفي سبيل نجاحها ففرضت الفطرة على النساء

---

[1] - -ثلاثية الحلم القرمطي، م س، ص١٠٢

[2] - من سواد الكوفة إلى البحرين (القرامطة من الفكرة إلى الدولة)، مي محمد الخليفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الاولى ١٩٩ - ص٣٥٧

[3] - ثلاثية الحلم القرمطي الصفحة١٠٣

[4] - الحركة القرمطية - أيمن الشعار

والرجال على حد سواء من قبل حمدان قرمط والمراة كانت تخرج خمس ما تغزل والرجل خمس ما يكسبه .

ونتيجة للمساواة الكبرى التي استحصلتها المرأة في مجتمعهم فقد اتهمهم اعداءهم بالاباحية بين الرجال والنساء حيث يذكر برناردلويس (أصول الاسماعيلية ص١٨٨ نقلا عن محمود اسماعيل ص١٣٢) ان الفهم الخاطئ حول الحركة منسوب الى (نظام الملك) الوزير السلجوقي مؤلف (سياستنامة) الذي اعتبر ان القرامطة هي امتداد للمزدكية بيد ان المزدكية نفسها لم تدع الى الاباحية كذلك يعزى وصمهم بالاباحية الى تحامل مؤرخ شيعي هو ابن رزام على القرامطة لأسباب سياسية(وهنا نلاحظ ان الشيعة على قدم المساواة مع السنة في عدائهم للقرامطة) ونظام الملك كان شخصا متحاملا على المرأة لذلك عندما رأى مكانتها في المجتمع القرمطي حيث تبوأت مكانة سامية فاعتبر سفورها وقيامها بالعمل جنبا الى جانب مع الرجل وتحملها كافة الاعباء والمسئوليات اعتبر ذلك نوعا من الاباحية المرذولة،

اما أبن رزام الشيعي الذي ادعى ان حمدان قرمط كان يجمع الرجال والنساء في ليلة معلومة فيختلفون فكان مدفوعا في دعواه بتعصب شديد للمذهب الاسماعيلي الذي انشقت عنه الحركة القرمطية فوصمها بأبشع التهم على سبيل تشويهها

وينفي الاستاذ عليان عن القرامطة تلك التهم على أساس ان نظام الوراثة الذي حرص القرامطة على اتباعه والحفاظ عليه وما تبوأته المرأة في المجتمع القرمطي من احترام وما عرف عنه من قوة الرابطة الزوجية كل ذلك لا يتسق ومنطق الاباحية وهنالك تحليل لبندلي جوزي حول مقولة بابك " ان

الناس شركاء في الاموال والنساء" التي نعتقد ان القرامطة تبنوها ، " ان بابك لم يكن يدعو الى التهتك وتحليل المحرمات ولم يكن يقصد بالمقولة هذه اباحة الجماع ، بل اراد ان يقول ان للمرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية فلها ان تختار من الرجال من احبت لا من احب سادتها او اقاربها ولها ان تتصرف في ما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية " [1] ونحن نذهب الى ذلك بان القرامطة ساروا على هذا النهج نتيجة تماسك مجتمعهم وايمانهم القوي بمكانة المراة الاجتماعية بينهم.

اما اول جمعية نسائية في الحركة القرمطية :

تزعمت ليلى الجنابي زوجة الحسين بن زكرويه اول جمعية نسائية ، وكان لهذه الجمعية عمل كبير اثناء الحروب الناشبة مع العباسيين وكثرة الارامل ومعالجة المهجرات من النساء بسبب ظروف الحرب والمعركة ، والتوعية والدعوة للحركة القرمطية حيث كانت هذه الجمعية النسوية الاولى من نوعها في الدولة الاسلامية ككل .

ويعاب على مجتمعهم على راي بعض الباحثين انتشار الجهل والخرافات بين كثير من افراده خاصة من كان منهم من الفلاحين والعمال واولئك الذين غلبت عليهم البلادة والبله ولم يعرفوا شيئا من العلوم ويصفهم المقدسي اذ يصف الفلاحين الذين كانوا يشكلون غالبية مجتمع القرامطة : " وعقلهم سخيف ، ولسانهم قبيح"

اما قول المقدسي من ان المجتمع القرمطي مجتمعا جاهلا ، فالمجتمع القرمطي ابدا لم يتصف بالسخف والجهل ، وكيف يتصف بهذين الصفتين

[1] - بندلي جوزي، م س ، ص ١٠٥

وفيه عرفت معنى العدالة الاجتماعية ، وانصاف المرأة والفلسفة الغنوصية وغيرها من الصفات التي ميزت مجتمعهم بالعلم والعمل ، بل ان اخوان الصفا كانوا من القرامطة وهذا يدلل وبشكل لا يقبل الشك من ان مجتمعهم كان فيه من العلوم الشيء الكثير. فالمقدسي وغيره كانوا من اهل السنة الحانقين على القرامطة .

٥-اسباب ظهور الحركة ....

من بعد ما تعرفنا على المجتمع القرمطي ومكونات هذا المجتمع ورؤاه فلنتعرف على سبب ظهور حركتهم في سواد العراق والتي استطيع تلخيصها بالشكل التالي:

ضعف الخلافة العباسية وتقلص سلطانهم على المناطق المحكومة من قبلهم، وخيبة الناس في العباسيين لان حكمهم لم يحقق السعادة والسلم للموعودين وتذمر الطوائف من العناصر غير العربية من حكم العرب ومن سيادة دينهم ومحاولتها التخلص من كابوسهم ، انتشار الفلسفة اليونانية التي قوت الشك وفتحت بابا لمقاومة الدين استغله القرامطة بشكل كبير وقلة ثقافة الطبقة العامة وتسرب انحرافات اليهم مما سهل عليهم قبول اي مبدأ والتبادل الاقتصادي الجديد الناتج عن انتقال المجتمع من طور زراعي الى تجاري. والذي ادى الى اتحاد مصالح الاغنياء العرب وغيرهم بالضد من مصالح الفقراء من موالي وعرب على اساس اقتصادي و الغلو وترجع بذوره الى بيئة الكوفة التي التقت فيها المذاهب من كل نوع والغلو كان يحمل في ثناياه الثورة الاجتماعية فهو ستار كل ساخط وتحت لوائه انضم كل متبرم بالمجتمع

القائم وبنظامه [1] ولا ننسى الجانب الاقتصادي الضعيف الذي كان عليه جل المجتمع وتحكم الطبقات البيروقراطية في مصائر الفلاحين، وكان اغلب سكان السواد من الفلاحين مما سهل على حمدان قرمط ومساعديه استمالة الفلاحين الى ثورته وحركته الناشئة .

اما مبادئ ثورتهم التي استطاعوا من خلالها الانتشار والوصول بالاضافة الى ما تقدم :

توحيد ملكية الارض اي :الغاء مركزية الدولة في السيطرة على الاراضي بما عليها وما فيها من كنوز وارزاق.كتب ماركس الى انجلز رسالة بتاريخ ١٨٥٣/٦/٦يقول فيها " ان غياب ملكية الارض هو مفتاح الشرق كله" والارض في نظر القرامطة هي ملك الناس وليس ملك الدولة بالنتيجة هي ملكية مشاعية للجميع لذلك منحت لهم حق استغلال الارض وبدعم من الدولة [2]المساواة الفعلية بالحقوق والواجبات والاشتراكية في الممتلكات وتقليل التفاوت بالثروات فمن كان فقيرا اسعفوه ، ومن كان جائعا اطعموه[3] .استولوا على بعض وسائل الانتاج كما يشير عارف تامر لتوزيعها بعد ذلك على الافراد توزيعا يتفق ومصلحة المجموع واحتكروا الحوانيت والمستودعات والافران والحمامات وغيرها وكانوا يديرونها على حساب الدولة[4] . دافعواعن فكرة الاخاء وحاربوا القومية ،ففكرة الاخاء الحقيقية لا بين المسلمين فحسب

---

[1] - الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة، م س، ص ٨٨

[2] - سجل لينين ملاحظاته على هامش المراسلات بين ماركس وانجلز بالصورة التالية " مفتاح التقاليد الشرقية هو في غياب الملكية الخاصة للارض ،فالارض جميعهاملك راس الدولة "

[3] - محمود اسماعيل، م س ، ص ١١٠

[4] - عارف تامر ، م س ، ص٨٣

بل بينهم وبين جميع القبائل والشعوب والامم على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم واديانهم واستطاع نظامهم الفكري ان يجعل من اعضائه المختلفي النزعات والغايات كتلة واحدة [1].و"الاشتراكية" في نظام العمل والمجتمع فحكومة القرامطة تدفع للصناع ثمن الاتهم وتعينهم على القيام بعملهم ، واصلاح المنازل على الدولة دون اخذ ثمنه من الناس ، كما ان طحن القمح والشعير على الدولة اي ان الناس كانوا يطحنون حبوبهم من غير اجر .في حين كانت الدولة العباسية على ما يشير الدوري تفرض ضرائب على الطواحين وعلى الطحين وكل شي .

وكذلك انكروا الملكية الفردية التي امن بها الاسلام وعزز قيمها في حين جعل القرامطة الملكية مشاعية للجميع ، وليس للدولة المركزية ، فالدولة القرمطية هي معين للفلاحين .

كما رفض القرامطة لغة الاسلام في بداية دعوته والتي كانت لغة وعيد للذين امنوا به بجنات عرضها السماوات والارض "متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ويطاف عليهم بانية من فضة واكواب كانت قواريرا... ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا " هذه هي لغة الرسول وما الكافرون في نظره الا الذين لم يلبوا دعوته وينزلوا عند حكمه في حل المسائل الاجتماعية والدينية : هذه اللغة لم يستحسنها بعد عصرين القرامطة وكما يسميهم بندلي جوزي "شيوعيو الاسلام"

[1] - عارف تامر ،م س، ص٨٣

[1] ان الزكاة لم تقض على التفاوت الطبقي ، ولم تشع مبادئ العدالة الاجتماعية ، عكس القرامطة الذين كانت وسائهم اجتماعية اقتصادية اشتراكية بحتة حلوا من خلالها المعضلات الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية الطبقية . فالزكاة "ضريبة محدودة لا يقصد منها نزع الثروة من اصحابها وتوزيعها على المحتاجين بالمساواة ولا بلوغ المساواة في اسباب المعيشة كما قد يتوهم البعض " ونبي الاسلام كما يذهب لذلك جوزي لم يكن عدو التجارة الشخصية والبنوك ، ولا كان ضد جمع اراض كثيرة في اياد محدودة قليلة ، بل لم يكن مبدئيا عدوا للرق ولا من القائلين بوجوب مساواة المرأة بالرجل والابنة بالصبي مساواة تامة في الحقوق والواجبات بل كان فقط ضد سوء استعمال هذه الانظمة الاجتماعية والتطرف فيها "[2] اي ان الرسول لم يكن ثوريا بل كان مصلحا اجتماعيا ولم يكن ضد الملكية الفردية والربح، بالتالي فالقرامطة خالفوا كل مبادئه في الاقتصاد واجترحوا لهم نظاما خاصا بهم .

وكأي حركة اجتماعية ثورية تجدف ضد التيار لم تكن بلا اعداء حيث يذهب الامام الغزالي الذي نقل عنه عبد العزيز الدوري ما يلي من مبادئهم من وجهة نظره" الطعن بالسلاطين وعلماء الزمان، ويذكرون ان الفرج منتظر من كل ذلك" [3]واما من ناحية الطعن بالخلافة ومشروعيتها نخير ما فعل القرامطة ، ومن ناحية ما يسمى بعلماء الزمان ، فاي علماء هؤلاء الذين ينصهرون مع سلطة الاستبداد العباسية . من مبادئهم ايضا ما يقوله عنهم

[1] ـ بندلي جوزي، م س، ص٣٨
[2] ـ م س ، ص ٤٦
[3] ـ فضائح الباطنية ، ص٤، نقلا عن عبد العزيز الدوري ، م س، ص ٨٣

المستشرق DE GOEGE "ظهروا امام الناس بمظهر ابطال السلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون ولم يحققوهما" [1]واكد القرامطة على الناحية المادية حيث يقول عنهم الديلمي" ومنهم -اي القرامطة- رجل اصابه فقر ومسكنة فيطمعونه في سد الخلة وجبر الفاقة"[2] وهذا مبدا انساني عظيم ينبغي ان يقدر للقرامطة مقابل سلطة الجشع العباسية . وقد اوضح الحسين الاهوازي مهمته حين وصل الكوفة سوادها سنة ٢٦٤هـ اذ قال لحمدان قرمط" امرت ان ادعو اهلها"قرية قرب الكوفة" من الجهل الى العلم، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة، واستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، واملكهم مالا يستغنون به من التعب والكد" [3] ويذكر النويري ان الاهوازي قال ما معناه" امرت ان اروي هذه القرية وان اغني اهلها، وان انقذهم واسلطهم على ثروة اسيادهم" وهكذا كان للجانب المادي كبير الاثر في كسب الاتباع .

[1] ـ نقلا عن عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، م س ، ص ٨٣
[2] ـ المصدر السابق، ص٨٣
[3] ـ م س ، ص ٨٣

الفصل السادس

حقيقة القداحيين

١-حمدان قرمط والقداحيين

انتقل حمدان قرمط الى سواد الكوفة والتقى بالحسين الاهوازي ، وبعدها اعلن ثورته وبالتحديد عام ٢٧٨هـ ، كانت اول ثورة للقرامطة ثورة حمدان بن الاشعث وكان يتلقى اوامره بداية من سلمية عبر الاهوازي الا ان قيامه بالثورة لم يتم باعلان سلمية لانها كانت تنتظر ائمتها كي تختمر فكرة الثورة اكثر الا ان حمدان استعجل الثورة فقام بها وقد ايده ابو الفوارس من البصرة وابو حاتم البوراني .

ولابد من استعراض رأي المؤرخ النويري الذي يتحدث عن حمدان بن الاشعث قائلا " ان حمدان بن الاشعث كان على اتصال بمركز الدعوة في سلمية ، فلاحظ تعابير غير مألوفة في رسائل الامام تدل على تبدل مهم، فساوره الشك في ذلك، وارسل عبدان الى سلمية ليتحرى الوضع ، فعرف بعد وصوله ان " احمد بن عبد الله" قد توفي وخلفه ولده الحسين بن احمد ، ولما اجتمع عبدان بالحسين سأل عن الامام الذي يجب ان يدعى له ، وعن حجة ذلك الامام فأجاب الحسين مستفسرا باستغراب، "ومن هو الامام اذن؟ فقال عبدان : انه محمد بن اسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي دعا له احمد بن عبد الله بن ميمون وكان حجته ، فاستنكر الحسين ذلك وقال :ان الامام كان والده وانه حل محله الان، وعندئذ ادرك عبدان حقيقة القداحيين وانهم انما خدعوا الناس " [1] وهذا الراي يبين كيف ان عبدان

[1] ـ عارف تامر، مصدر سابق، ص ٢١٣

وحمدان استطاعا ان يكسرا قدسية مبدأ الامامة لدى الشيعة الاسماعيلية ويخرجوا عن طاعتهم ويكشفوا زيف ائمتهم وشجاعة حمدان بكسر هذه القدسية والخروج عليها ادت الى قتله بالنهاية على ايدي ال زكرويه وبمباركة ائمة سلمية ،عبيد الله المهدي"سعيد بن الحسين" لان الحسين بن احمد سرعان ما توفي .ويعلق عارف تامر على هذا الراي للنويري قائلا " ان فيه كل التقريب نحو الواقع والحقيقة ، وهو يؤيد ما قلناه ان احتجاب الائمة من ولد اسماعيل في سلمية باسم القداحيين واعلانهم انهم حجج لائمة مستورين ، ثم ظهورهم اخيرا بانهم هم الائمة، كل ذلك كان مجهولا حتى عن دعاة الاسماعيليين انفسهم ، ولقد اوجد من البلبلة في الصفوف الداخلية وكان سببا رئيسيا بالانقسام في الحركة وباضطراب الوضع الاسماعيلي التام، ومن ثم بهذا الارتداد الذي حصل في بعض الاقاليم بين الدعاة والمستجيبين والمؤيدين وبين ما حدث من تطورات بين الفاطميين والقرامطة فيما بعد خاصة عندما اتخذت الدعوة الفاطمية في المغرب النظرة الاكثر محافظة عن ذي قبل بنظر العالم الاسلامي، فالفاطميون عند حصولهم على السلطة الزمنية ، وجهوا دعوتهم في طريق سلمي يقوم على المحافظة على التعاليم والتفرغ لخدمة الدولة ، وهذا التبدل اثار مقاومة القرامطة وهم الشرقيون المشهورون بعصبيتهم وحماسهم واندفاعهم وتطرفهم، اذن فبالامكان الاعتراف في هذا الصدد بان النزاع الذي اثير كان بين الاعتدال الذي يمثله الفاطميون، والتطرف ويمثله القرامطة" [1] ولكن استمرار عارف تامر بتاكيده على نظرية الاستيداع اي : ان الائمة استتروا وظهر مكانهم ال القداح مستودعة الامامة فيهم، وانهم

[1] ـ عارف تامر، م س ، ص٢١٤

عبارة عن حجج بداية وفيما بعد اعلنوا عن انفسهم وان هذه الحقيقة تم اخفاؤها عن الدعاة انفسهم هو قول مرفوض يحاول من خلاله عارف تامر اثبات النسب العلوي لعبيد الله المهدي وخلفاء الفاطميين واخفاء كونهم من سلالة عبد الله بن ميمون القداح، ولا بد من الاشارة الى ان احمد بن عبد الله خلفه الحسين بن احمد ومن بعده سعيد بن الحسين المعروف بعبيد الله المهدي وكلهم من ذرية جعفر بن محمد (على راي) الاسماعيلية ومن ذرية ميمون القداح على راي القرامطة ، ونحن نذهب الى ان القرامطة ارادوا اتباع محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ليس غير وهو امامهم "المختفي" وما دون ذلك فهو غير مقبول، في حين سيطر القداحيون على السلطة عبر عبيد الله المهدي وهو "سعيد بن الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون " وهذا ما رفضه حمدان وعبدان وكان ايذانا بالانشقاق، فيشير بعض الباحثين مؤيدا ما نذهب اليه من ان ميمون الذي كان ملازما لاسماعيل بن جعفر نقل الامامة لمحمد ابن اسماعيل وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان الى اخر واخذ يضع اصول الدعوة محتملا السجن والتشريد والرواية التي يمشي عليها اهل السنة هو ان محمد بن اسماعيل لم يعقب فلذلك كان عبد الله بن ميمون هو الامام .

يشير الباحث فيصل بدير عون من ان الامام جعفر عهد بحفيده محمد لميمون القداح وكان انذاك الخليفة ابي جعفر المنصور يحكم العالم الاسلامي بيد من حديد بينما كان محمد بن اسماعيل لم يتجاوز الستة عشر عاما من عمره، اي

انه في سن لا يسمح له بالقيام بالدعوة ، ومن الارجح ان ميمونا كان يعده للامامة [1].

المهم ان محمد بن اسماعيل هرب من الحجاز وانتقل الى الري وكان له دعاة وهم ميمون والمبارك من ناحية ثانية . ومن ناحية اخرى فان الخليفة هارون الرشيد يتحين الفرص للايقاع بمحمد بن اسماعيل.

المهم انه حين مات ادعى اتباعه انه مهدي ، وانه تغيب في بلاد الروم وانه من اولي العزم ، وانه خاتم النبيين ، كما عللوا نسخ الشريعة وهذا ما يشيعه الاعداء عليهم الا ان حقيقة ايمانهم بالامام تتلخص بكونه القائم الذي اتى ليفسر القران ويؤوله باطنيا ....

وتولى الامامة من بعده عبد الله بن اسماعيل ونحن نميل الى ان من تولى الامامة بعده عبد الله بن ميمون القداح ومن بعده ابنه احمد وهكذا كما يذهب لذلك عبدان وحمدان بعد اكتشافهما ان القداحيين هم من اخذوا الامامة بعد اختفاء محمد بن اسماعيل المزمع اي وفاته . فمن بعد وفاة محمد وميمون ترك العالم من بعدهم تنقدح فيه الاراء المتباينة وخرجت الفرق من بعدهم كل يغني على ليلاه والمؤكد بأن عبد الله بن ميمون هو الذي استلم مبشرا بظهور محمد بن اسماعيل وخرج من بعده اولاده ائمة للاسماعيلية . المهم انتشر عبد الله بن ميمون ورجاله يدعون لظهور محمد بن اسماعيل والامام في " كهف الستر" لا يعلم اسمه الا الاقربون "فالامام حي موجود في انتظار التفاف المسلمين حوله " كما تشير روايات القرامطة

[1] - الافحام لافئدة الباطنية الطغام، يحيى بن حمزة العلوي، تح:فيصل بدير عون، راجعه: د علي النشار، المعارف ، الاسكندرية، بلا تاريخ، ص ٨ "المقدمة"

ويشير الباحث فيصل بدير عون ان عبد الله بن ميمون القداح (قداح الحكمة) لم يكن سوى حجة وكبير دعاة الامام محمد بن اسماعيل ، ولكنهم اخفوا ذلك ليكرهوا الناس بالائمة الفاطميين وهذا ما تؤيده جميع المؤلفات الاسماعيلية القديمة والحديثة على السواء"[1] ونحن في بحثنا هذا لا نذهب الى ما يذهب له الاسماعيليون انفسهم من ان سلالة ائمتهم من بعد محمد بن اسماعيل المتعارف عليها من ذرية اسماعيل بن جعفر لان ما بعد محمد استلم القداحيون ، ولكن الاسماعيلية تشير الى ان ميمون وابنه عبد الله كانا مصاحبين مواليين للامامين الشيعيين الباقر والصادق وعاشا قبل ظهور الاسماعيلية بزمن طويل [2] يريدون بذلك ابعاد شبهة ان القداحيين هم الائمة.

وقد رسمت رواية ابن رزام الشيعي اخو محسن الى ان الاسماعيلية اسسها رجل غير علوي "عبد الله بن ميمون القداح" الذي صور هو الاخر على انه جد الخلفاء الفاطميين ورواية ان يكون عبد الله بن ميمون هو الذي اسس المدرسة الاسماعيلية انكرها (ايفانوف) وسماها (اسطورة ابن القداح) و (عبد الله بن ميمون) ادعى انه يعمل باسم (محمد بن اسماعيل) باعتباره "المهدي المنتظر" فهذا صحيح فعبد الله كان حجة للائمة ولكن اولاده استلموا الامامة من بعده . وميمون القداح قال عنه المؤرخ الاسماعيلي ادريس عماد الدين المتوفي سنة ٨٧٢هـ في كتابه عيون الاخبار" قام اسماعيل بن جعفر في كنف ابيه ، وعهد بمحمد بن اسماعيل ، وهو ابن ثلاث سنين الى ميمون القداح قدس الله روحه، وهو كفيل له ومستودع امره، وميمون من اولاد سلمان

---

[1] ـ م س، ص ١٨٠

[2] ـ فرهاد دفتري، خرافات الحشاشين، المدى ، ١٩٩٦، ص ٤٩

وسلمان من اولاد اسحق بن يعقوب" ثم يقول" وكتم الصادق منزلة ابن ابنه- يقصد محمد بن اسماعيل- واقام له ميمون القداح وابنه عبد الله الميمون كفلاء، وكتم امر ذلك عن الخاص والعام، الا على المخلصين العارفين" [1] وهذا يؤكد ان ميمونا وابنه كانا ساترين عن محمد بن اسماعيل الذي يقول القرامطة باختفائه ويسمونه الامام المستور وقاتلوا باسمه وانه ليس له اولاد وانما كان حجته "الامام احمد بن عبد الله بن ميمون" . ويعتبر (مصطفى غالب)وهو اسماعيلي ان تاريخ ولادة ونشأة ميمون القداح يلفها الغموض والابهام، ولكن بعض المصادر توضح انه ولد في مكة وانتقل الى الاهواز ، وقيل انه جاء من محل في الاهواز يدعى"قورج العباسي" ونزل عسكر مكرم ، ثم ذهب الى ساباط ابي نوح، في حين يشير الدوري كما سيأتي ان عبد الله القداح هو الذي جاء من قورج وليس ميمون ، ولقد اثارت حياة ميمون القداح واسرته ، وعلاقتهما بالاسماعيلية عاصفة من النقاش التاريخي استمر حتى عصرنا الحاضر" [2]

١-ميمون القداح وابنه عبد الله..

خلاصة حول ميمون وابنه عبد الله ، اذ تنقسم فيهم الرؤى الى :

١- انهما اجداد الخلفاء الفاطميين وان عبيد الله المهدي هو " سعيد بن الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون" اي ان ميمون هو المؤسس الفعلي

[1] - مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، دار الاندلس، بيروت، ط ٢ ، ١٩٦٥، ص ١٥٢

[2] - م س ، نفسه، ص ١٥٤

للحركة الاسماعيلية وان هذه الحركة انما ائمتها من اولاده واحفاده، وهذا ما نذهب اليه.

٢- انهما كانا مستودع "الامام محمد بن اسماعيل" والامام مختفي ومستور وهذا ما اشار اليه عارف تامر وتنكره الكثير من الاحداث

٣- انهما ما كانا الا خادمين للائمة ولم يقوما بدور في تعيين الائمة او ما شابه.

وحاول البروفيسور "ايفانوف" ان يدحض قصة ميمون القداح وتوصل الى نتيجتين

١- ان ميمون وابنه عبد الله لم يكونا اصل الفاطميين ، ولم تجمعهم بهما اية صلة او قرابة

٢- انهما ما كانا ديصانيين او زنديقين وان عبد الله توفي سنة ١٨٠هـ لا كما يقول الجويري سنة ٢١٠هـ ولقب الميمون في رايه هو لقب "الامام عبد الله بن محمد بن اسماعيل" ويعتمد (ايفانوف) على المصادر الاسماعيلية في هذا الشأن فقد اورد الداعي ادريس عماد الدين القرشي في كتابه عيون الاخبار خطاب " الامام" المعز لدين الله الى داعي السند الذي ينكر فيه نسبته الى ميمون القداح، ويقول ان جده الحقيقي هو عبد الله بن محمد بن اسماعيل وانه كان يسمى احيانا "عبد الله الميمون النقيبة" وكانت هذه العبارة تطلق ايضا على محمد بن اسماعيل اشارة الى مركزه الرفيع في الحركة الاسماعيلية ، ويقول (ايفانوف) :باعتقادي ان ذلك يحل لغز اسطورة ميمون القداح ذلك ان محمد بن اسماعيل اذا كان يعرف باسمه السري" ميمون" فالظاهر انه كان يسمى في محافل الطائفة بعبد الله بن الميمون ويرى ايفانوف ان القصة التي

تجعل عبد الله الميمون جد الخلفاء الفاطميين انما هي اسطورة سخيفة ويعتب على المؤرخين الذين صدقوها[1] ان ايفانوف يعتمد على المصادر الاسماعيلية في اثبات نسبهم لاولاد جعفر بن محمد باعتماده (كتاب المعز) والذي لا يقدم شيئا ابدا كون المعز فاطمي وانه يروي عن نفسه انه ابن جعفر الصادق وحفيده. وليس من احفاد ميمون ، وهذا شيء مهم بالنسبة للفاطميين ، ان يدعون نسبهم العلوي ، لكي يبقى الناس متمسكين بهم ، فلا يدعم كتاب المعز راي ايفانوف.

وميمون حسب وجهة النظر الاسماعيلية كبير الدعاة وحد من حدود الدعوة الاسماعيلية وليس شخصية خيالية كما ذهب الى ذلك (ايفانوف) وهذا الرد جاء على لسان مصطفى غالب كما ان مصطفى غالب يرد على (ايفانوف) قوله ان مرتبة الاستيداع لدى الاسماعيلية لم تكن معروفة في القرن الاول للهجرة ويعتبر قوله مردود لان جميع المؤلفات الاسماعيلية وخاصة التي تبحث بالفترات تشير الى ان هناك ائمة كثيرين في الادوار كانوا يحملون رتبة الاستيداع ، ونحن نقول ان القرامطة عرفوا ان ما بعد محمد بن اسماعيل لم يكن سوى عبد الله بن ميمون حيث اعتقد القرامطة باختفاء محمد بن اسماعيل ولم يخلفه احد من ولده ، وانما كان عبيد الله المهدي هو ابن الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون وليس من ولد جعفر الصادق واسماعيل .

ويذهب الدكتور عبد العزيز الدوري من ان حقيقة مذهبهم وأصل أئمتهم يعود الى امامة محمد بن اسماعيل وبانهم اكتشفوا ان القداحيين هم الائمة من بعده وهؤلاء ليسوا من ذرية جعفر الصادق :

---

[1] ـ مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، م س ، ص ١٥٩

بداية يشير الدكتور الدوري الى ان الاسماعيلية تأتى مذهبها من ابي الخطاب الذي قتل سنة ١٣٨هـ وكان تلميذا للصادق وهو من تبرا منه الصادق نتيجة غلوه فيه .وقد اسس فرقة سميت بالخطابية مركزها الكوفة وتبين المصادر ان (ميمون القداح) واتباعه هم تلاميذ ابي الخطاب وان حركة ميمون وابنه عبد الله واليهما ينسب تكوين الحركة الاسماعيلية هي الحركة الخطابية نفسها وتعترف كتب الاسماعيلية الاولى وبعض كتب النصيرية بدور ابي الخطاب وتعتبره منشىء المذهب الاسماعيلي ويشير الدوري الى تبرا الصادق من ابنه اسماعيل لافراطه في الشراب واستهتاره ووجود صلة بينه وبين الخطابية ويؤيد ذلك الصلة الوثيقة بين محمد بن اسماعيل وميمون القداح وابنه عبد الله والاخيران من اتباع ابي الخطاب وبعد وفاة الصادق سنة ١٤٨هـ انقسم اتباع اسماعيل الى طائفتين /

أ- فرقة قالت بامامته بعد ابيه وانكرت موته وانه هو القائم وهذه هي الفرقة الاسماعيلية الخالصة .

ب- فرقة قالت بامامة محمد بن اسماعيل بعد والده " ولا يجوز غير ذلك لان الامامة لا تنتقل من اخ الى اخ" وهذه تدعى المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل واليهم انضم الخطابية ومنهم تشعب القرامطة .

ت- ويذكر المجلسي فرقة ثالثة من الاسماعيلية تقول بان الصادق عهد بالامامة الى محمد بن اسماعيل راسا ، وهو يتفق مع النوبختي في ان القرامطة من المباركية [1]

[1] -محمد باقر المجلسي، بحار الانوار، ج٢٠، "تبريز ١٨٩٨" ج٩، ص٨٠-٨٢

ويقول عبد العزيز الدوري في دراسات في العصور العباسية "ينسب الدور الاكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية وفي وضع مبادئها الى عبد الله بن ميمون القداح وهو ذو شخصية احاطتها الروايات بضباب من الاضطراب والابهام"

يخبرنا ابن رزام [1] بان عبد الله القداح كان واسع الاطلاع في جميع المذاهب والاديان وانه ادعى معرفة الغيب واستعمل الحمام لنقل الاخبار بسرعة ، كما انه وضع نظام التنشئة على سبع درجات في الدعوة ، واخرجه الشيعة الاثني عشرية والمعتزلة الى البصرة حيث التجأ الى ال عقيل ابن ابي طالب ودعا الى محمد بن اسماعيل وكان يصحبه في طريقه الى البصرة احد رجاله وهو الحسين الاهوازي ثم طاردته الحكومة في البصرة فهرب مع الاهوازي الى سلمية وبقي مختفيا حتى وفاته ونجح احد اولاده في اقامة الدولة الفاطمية ويقصد عبيد الله المهدي ، طبعا ينكر ايفانوف اي صلة بين ال القداح وائمة سلمية ويعتبر مجموع روايات ابن رزام ب"اسطورة القداح" ويرى ان اصلها متاخر وانها من اختراع ابن رزام وان لا دور لعبد الله الميمون في حوادث الاسماعيلية وهكذا ينفي ايفانوف كما يذكر عبد العزيز الدوري اثر عبد الله الميمون في الحركة الاسماعيلية ويرى ان الروايات نسبت اليه تطور الحركة خلال اجيال ويخمن وفاته بين ١٦٠-١٨٠هـ ويميل عبد العزيز الدوري ونحن نميل معه الى ان ايفانوف تطرف في نفيه لاراء القداحيين ونتائج لويس

[1] - تجد روايته في الفهرست والاتعاظ للمقريزي، والنويري وقد كتب ابن رزام حوالي ٣٦٥هـ ويرى ماسينيون ان المؤرخين الذين وضعا نظرية السنة عن القرامطة والفاطميين هما محمد بن رزام الطائي صاحب ديوان المظالم سنة ٣٢٩هـ في بغداد ومحمد اخو محسن بن العابد وهو علوي من دمشق توفي سنة ٣٧٥هـ " عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة، م س، ص ١٠٠"

اقرب الى القبول في الموضوع وقد توصل لويس بشأن القداحيين كما يذكر الدوري:

كان ميمون وابنه عبد الله من اتباع الصادق المحترمين ، وفي وقت ما اتصل ميمون بالغلاة الذين كان يتزعمهم ابو الخطاب واسماعيل فقام بدور يذكر في تكوين مبادئ تلك الفرقة وتنظيم دعوتها ، وبعد مقتل ابي الخطاب صارت اليه الرئاسة وقام بتربية محمد بن اسماعيل ، فنشاه على المذهب الباطني اما عبد الله بن ميمون فتخرج على والده وتثقف وصار حجة بعد وفاة ابيه وقد توفي عبد الله في اوائل القرن الثالث الهجري[١] اذن يتبين ان لعبد الله الميمون دور كبير لا يمكن ان ينكره ايفانوف وغيره كعارف تامر وغيرهم من مؤرخي الاسماعيلية المحدثين .

مفهوم الامامة حسب الرؤية الباطنية ....

ومن الاراء التي تنفي صلة عبيد الله المهدي"سعيد بن الحسين " بالاصل العلوي ما يذكره (ميشال ديكويا) حيث يعتبر ان ما يبديه انصار الفاطميين من تردد عندما يحاولون سد الثغرة التي تفصل عبيد الله عن محمد بن اسماعيل يعطي الدليل الحاسم على فساد مزاعم اصلهم العلوي ويضيف ديكويا "ويروي لنا صاحب دستور المنجمين وهو من غلاة المعجبين بالفاطميين انه كان لمحمد بن اسماعيل الذي التجأ الى الهند فرارا من اضطهادات هارون

---

١ - Lewis, The Origins of Ismailism . a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphare ,pp.٤٥-٤٦&٦٦-٦٧

الرشيد ستة ابناء وهم : جعفر ، اسماعيل ، احمد، حسين، علي وعبد الرحمن"[1] هذه رواية اخرى تثبت ان لمحمد بن اسماعيل اولاد بالاضافة الى الرواية التي اوردناها التي تثبت عدم وجود اولاد لديه نقلا عن مصادر سنية والملاحظ لهذه القائمة من الابناء لا يجد اسما لعبد الله بن محمد بن اسماعيل ، اي ان محمد لم يكن لديه ابن اسمه عبد الله ، في كلا الروايتين ، وهنالك رواية اخرى انه وبعد تقلد عبيد الله السلطة اثار ابو عبد الله الشيعي الشك حول حقه في الامامة مع العلم انه من اكبر المنتصرين لسلالته والمساهمين في وصولها للحكم فقتله عبيد الله المهدي سنة ٢٩٨هـ وكتب الى اتباعه في المشرق ان عبد الله الشيعي ضل فطهره بالسيف ويعتقد ان حمدان ادرك هذه الحادثة وان المهدي ليس الا رئيس الدعاة سعيد الذي هرب من سلمية والامام ما هو الا اسطورة خدعا بها فتنكر اثنين من اكبر انصاره في العراق وهما حمدان وعبدان له وما قتل عبدان وربما حمدان كذلك الا بتدبير عبيد الله المهدي [2] ، وهنا يعلق الدوري عن هذه الرواية قائلا هذا التعليل يجعل انفصال حمدان سنة ٢٩٨هـ في حين ان المصادر تبين ان دور حمدان انقضى نهائيا قبل ٢٨٧هـ وان حركات القرامطة في العراق والشام بين ٢٨٩-٢٩٤هـ كانت بزعامة ال زكرويه[3] ، اي ان هذه الرواية لا تنفع تاريخيا في نفي نسب عبيد

[1] ـ ميكال ديكويا، القرامطة، نشأتهم ، دولتهم ، علاقتهم بالفاطميين، ت: حسني زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٨-١٩

[2] ـ م س ، ص ١٩" لم تذكر كل هذه التفاصيل في المصدر الذي اشرنا اليه فديكويا يذكر الرواية كما هي في كتابه القرامطة المترجم ، وما ينقله عنه الدوري عن بعض التواريخ في قتل ابو عبد اله الشيعي يرجع الى مصدر يعتمده الدوري وهو " de goeje,memoire sur ies caramshes du Bahrain et les fatimides ,pp ٦٦-٦٨ ونحن دمجنا المعلومتين سوية

[3] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، م س ، ص ١٢٦

الله المهدي عن البيت العلوي وتشير اغلب المصادر الدرزية نقلا عن ديكويا ان اصل عبيد الله المهدي هو ميمون القداح .

وليدكويا راي مهم حول حقيقة عبيد الله المهدي اسوقه كما هو :

كان حسين بن عبد الله بن ميمون اول من بعث الى سلمية وقد توفي في ايام ابيه وكان سعيد" عبيد الله المهدي" ما يزال طفلا كما يذهب دي ساسي اي حوالي العام ٢٧٠هـ عندئذ انتقلت شؤون الدعوة الى اخيه احمد الملقب بأبي الشلعلع ، فقام بالوصية على سعيد حتى حضرته المنية حوالي العام ٢٨٠هـ وفي تلك الحقبة تسلم سعيد شخصيا زمام الامور وصار اماما وفي العام ٢٨٠ هـ ولد له ابن سماه محمد وهو الذي سيصبح من بعد ثاني الخلفاء الفاطميين ومن الواضح حسب التسلسل التاريخي للاحداث ، انه ليس بامكاننا افتراض عدم كون سعيد عبيد الله حفيدا لعبد الله بن ميمون بل حفيد احد ابنائه او حتى حفيد احد احفاده ولعل هذا الابهام ناتجا من تسمية احمد الملقب بالشلعلع بمحمد ايضا [1] وهذا يعضد كلامنا من كون عبيد الله هو حفيد لميمون وليس لمحمد بن اسماعيل . بالنتيجة فرواية ديكويا ترفض ان يكون ابو عبيد الله المهدي هو الحسين بن احمد بن عبد الله كما يذهب لذلك مصطفى غالب واوردناه . بل ابوه هو الحسين بن عبد الله بن ميمون واحمد بن عبد الله الذي هو اخ الحسين كان وصيا على سعيد بن الحسين لصغر سنه.

ومن المرجح ان ميمون استقر في سلمية ومات فيها في نهاية القرن الثاني الهجري ودفن هناك [2] وهذا القول يبرهن على دوره الكبير في نشأة الخلافة

---

[1] ـ ديكويا ، م س، ص ٢٩

[2] ـ مصطفى غالب ، م س ، ص ١٦١

الفاطمية واخذه الخلافة اي الامامة لولده عبد الله بن ميمون بعد وفاة محمد بن اسماعيل . كذلك لدينا دليل على ان محمد بن اسماعيل لم يستلم ابنه عبد الله (على فرض ان لديه ابن بهذا الاسم وعلى فرض ان لديه ذرية) كما تشير الروايات الاسماعيلية فمصطفى غالب يشير الى ان محمد بن اسماعيل توفي سنة ١٩٣هـ وابنه عبد الله ولد سنة ١٧٩هـ اي انه استلم الامامة وهو بعمر ١٤ سنة سنة ١٩٣هـ وهذا امر مردود جدا لصغر سنه ، مما يدلل ان من استلم الدعوة بعده هو عبد الله بن ميمون القداح واولاده من بعده .

ولا ننسى ان للاسماعيلية روايات تشير بان الائمة من ولد محمد بن اسماعيل استتروا وكني الدعاة باسمائهم تقية وسترا عليهم مما هم به وقد كانت هذه الامور موجبة حسب ادعاء الاسماعيلية للقول بان الامام من ولد محمد بن اسماعيل هو ميمون القداح المعروف لدى الاسماعيلية بقداح الحكمة ومن بعده الى ولده عبد الله بن ميمون القداح وهذه كنايات وصفات لا يفهمها الا اهلها ورموز ظهر منها اختلال النسب لكل من لم يقف على الحقيقة[1] وهذا الكلام لا نقبله كون مروي من طرق الاسماعيلية وهو يميل الى اثبات ان الامامة في زمن حمدان قرمط وان نسب الخلفاء الفاطميين كان نسبا علويا بحتا. ناكرين بذلك ما اكتشفه حمدان وعبدان من فعل القداحيين.بعد وفاة محمد بن اسماعيل.

ويشير الدكتور علي سامي النشار والاستاذ فيصل بدير عون في تحقيقهما لكتاب"الالحام لأفئدة الباطنية الطغام" ليحيى بن حمزة العلوي الى ان "دوائر اهل السنة اتهمت ميمون وابنه عبد الله بانهما ديصانيان، وقيل انهما يهوديان

[1] ـ مصطفى غالب، م س، ص١٨٢

من الفرقة العيسووية اليهودية ، وهي احدى الفرق الاولى من طائفة القرائين، وانهما انشأ المذهب الاسماعيلي لتقويض دعائم الاسلام" وهذا خطأ ، فميمون القداح كان مولى للباقر وجعفر الصادق، وقد عاش في هذا الوسط العلمي وتتلمذ على شيخي المذهب الامامي ،الباقر والصادق وقد قبض المنصور في اواخر ايامه على ميمون ، وفي السجن اتفق مع جماعة من الشيعة على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن، وخرج ميمون من السجن واجتمع بامامه محمد بن اسماعيل متنقلا معه من مكان الى اخر ، وفي كل مكان كان يجمع حوله فلول المباركية والخطابية والجعفرية ويعد العدة لمذهبه الجديد.

وقرامطة العراق انكروا امامة عبيد الله المهدي "سعيد بن الحسين بن احمد" و أبقوا على ولايتهم لامامة محمد بن اسماعيل الامام "المختفي " حسب وجهة نظرهم فيعتبر الاستاذ عليان ان بقاءهم على امامة محمد بن اسماعيل دليل على عدم انفصالهم عن الاسماعيلية ، وقضية عدم انفصالهم عن الاسماعيلية قول مردود لان سعيد بن الحسين حرض على قتلهما وهذا ما ينكره العليان ص ٨٢ من كتابه "قرامطة العراق" فبقاؤهم على امامة محمد بن اسماعيل ليس دليلا على ان الحركتين كانتا واحدة حتى النهاية وينفي المشاكل الكبرى التي حصلت بينهما اي بين القرامطة والاسماعيليين ، اما الغاء مقتل حمدان هو طعن بحمدان ذاته لانه اختفى بظروف غامضة وتشير اغلب مصادر القرامطة الى مقتله على يد الحسين بن زكرويه ويشير العليان الى ان القرامطة من ال زكرويه قتلوا عبدان طمعا بالرئاسة بعد حمدان ويحاول العليان ان يبعد شبهة قتل عبدان واختفاء حمدان عن ائمة الاسماعيلية "بيد ان قتل ال زكرويه لعبدان لم يتم بالاتفاق مع زعماء الاسماعيلية كما ذهب اخو محسن، لان طموح

ال زكرويه حملهم على ارتكاب هذه الجريمة" [1] وهذا كلام غير مقبول لان قتل حمدان وعبدان تم بارشاد من ال زكرويه وبمباركة من عبيد الله المهدي .

اننا اذن امام تطور كبير في الحركات الاجتماعية انذاك يقوم على رفض مبدأ الامامة والاعتماد على الذات في قيادة الحركة وهذا ما ابتدأ به الشخصية الاشكالوية حمدان قرمط .

---

[1] ـ العليان، م س ، ص ٨٤

الفصل السابع

عقيدة القرامطة

١-الباطنية

ان الباطنية هي عقيدة لدى القرامطة ، فهم يؤمنون بتفسير القران وتأويله وليس الاخذ بظاهره كالاشاعرة ، وانما بالباطن وهم بذلك يشبهون المعتزلة والمتصوفة بقضية الاخذ بالتأويل فيما يخص القران وتفسيره، ولكن الفرق بين المعتزلة والقرامطة انهم "كانوا يؤولون الديانات واحكامها وشعائرها تاويلا يؤدي الى نفيها على حين ان المعتزلة كانوا يحاولون ان يوفقوا بين الدين والعقل بدون ان يضحوا احدهما للاخر "[١]

بالتالي فقد اعتقد الاسماعيلية والقرامطة ان كل شيء ظاهر محسوس في هذا الكون له معنى اخر خفي يعرف بالمعنى الباطن، فالفاظ القران مثلا لها معنى باطن غير المعنى الحرفي الظاهر ، والعبادات العملية كالصلاة والصوم والحج وغيرها، دلالات على معاني باطنية، وجسم الانسان نفسه شيء ظاهر وباطنه النفس، ولذلك فان عالم المحسوسات ينقسم الى قسمين :عالم الظاهر وعالم الباطن، ويستتبع ذلك وجود نوعين من العلم هما، :علم الظاهر ، وعلم الباطن، ولذلك رمى الاسماعيلية غيرهم من المخالفين بالجهل لتمسكهم بالظاهر وعدم المامهم بعلم الباطن، وذهبوا الى ان توحيد اهل الظاهر هو الى الشرك اقرب [٢] كما اعتقد الاسماعيلية والقرامطة بان الامام علي اختصه الاله بتأويل الظاهر ، ولذلك فهو صاحب التأويل ، كما ان الرسول محمد صاحب التنزيل، وورث الائمة الاسماعيلية هذه الخاصية عن علي .

---

[١] - بندلي جوزي، م س، ص ١٣٩

[٢] - عليان ، م س ، ص ١٨٤

ومن هذه الانطلاقة استطاع الاسماعيلية عن طريق العقيدة الباطنية ان يحيطوا امامهم بهالة من القداسة لانه مصدر التأويل ، بل غالوا في رفع منزلته حتى جعلوه فوق مستوى البشر .

فقالوا ان امامهم ينزل عليه طعام اهل الجنة وانه يملك ناصية الامور [1] على فرض انهم يعترفون بالجنة لاننا اشرنا الى انهم في رؤاهم يعتبرون ان الخير في الدنيا هو الجنة كما اشرنا الى ذلك. ولكن هذا لايمنع من تعظيمهم لائمتهم وقادتهم وان كان ذلك في ابتداء دعوتهم، وكانوا يخرون سجدا عند رؤيته ، وهذا ما فعلوه مع زكرويه عندما خرج من اعتكافه عندما هرب عن اعين ال حمدان اذ هموا بقتله بعد مقتل حمدان وعبدان . ويستبيحون دم من يخرج على الامام او يعصي له امرا ، كما انهم ذهبوا الى انه لايمكن معرفة معاني القران واخبار الرسول الا بالرجوع الى امامهم المعصوم .

ولكن القرامطة فيما بعد عملوا على محاربة الائمة من ولد اسماعيل كالمهدي والمعز الفاطمي وغيرهما ، مما يدعونا الى ان نتأمل ان القرامطة وقفوا الامامة عند محمد بن اسماعيل ، الا انهم كالاسماعيلية في انهم يعتبرون العلم مستمدا من الامام .

الا ان تأويلاتهم للامور الدينية لم تسر على وتيرة واحدة لان بعض الدعاة كان يسمح لهم بالتأويل دون الرجوع الى الامام ،[2] فتأثرت التأويلات باشخاصهم وبظروف البيئة التي كان يعمل فيها كل منهم، فكانت متطرفة ، في بعض الجهات كاليمن ، ومعتدلة في الاخرى مثل بلاد المغرب ومصر .

---

[1] ـ عليان ، م س ، ص ١٩٩
[2] ـ عليان ، م س ، ص ١٨٥

وقد اطلع نظام الملك على كتاب البلاغ السابع وهو احد مؤلفات عبدان اكبر علمائهم ورمى القرامطة بالكفر والالحاد، كما قرأه ابن النديم[1] وقال عنه "قد قرأته فرأيت فيه امرا عظيما من اباحة المحظورات" ومن المعروف ان هذا الكتاب كان يتضمن خلاصة المذهب، ولا يمكننا الاخذ برايه فهو من اعدائهم ، بالاضافة لذلك فان اراءهم تختلف مع ما يذهب اليه

كانت نصوصهم المقدسة لا تفقه بمعناها الظاهر وانما كان يفهم منها رموز ومعان خفية باطنية ، ويتهمهم مؤرخو الفرق ان الغرض من التاكيد على الباطن هو ابطال الشرائع والانسلاخ من الدين وهنا يعلق الدكتور عبد العزيز الدوري عن هذه النقطة بالتحديد" نحن نرى ان غايتهم الاساسية سياسية اجتماعية وان تطبيق طريقة التاويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الاديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة" [2]

٢.رأيهم في الإله:

القرامطة حالهم حال الفرق الباطنية تؤمن بوجود الهين اطلقت على احدهما السابق، وعلى الاخر " التالي" وذهبت الى ان السابق علة التالي، بحيث يصير التالي معلولا للسابق الذي هو العلة وبين يحيى بن حمزة العلوي ان حدوث العالم لديهم تم بأن خلق السابق العالم بواسطة التالي من حيث ان الاول كامل اما التالي فناقص ، كذلك ان السابق لا زمان له، بمعنى انه موجود من

[1] ـ الفهرست، نقلا عن عليان، م س ، ص ١٨٦
[2] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة، م س ، ص ١٠٥

الازل ، ليس عن شيء البتة، وبالجملة فالاول ليس مخلوقا اما التالي فكان من السابق، ولهذا فهو حادث، ثم بعد ذلك حدثت النفس من التالي، وهذه النفس بحركتها حدثت الحرارة وعن سكونها حدث البرد، ومن ثم الكيفيات الاربع التي هي مصدر الكون وهكذا حدث العالم ، وهنا نجد وجه الشبه تاما بين حدوث العالم عند الاسماعيلية والقرامطة وحدوثه عند الفلاسفة القائلين بنظرية الفيض والصدور ، فالسابق هنا يمثل الله الذي هو العقل المحض اما التالي فهو العقل الاول تليه النفس.

٣.رأيهم في النبوات :

الباطنية تنكر بعض ما امتاز به الانبياء ويقول البعض عنهم بانهم ينكرون النبوات والوحي ونزول الملك ، وابطلوا المعجزات، وذهبوا الى ان ما روي منها رموز لا يعرفها اهل الظاهر ، فثعبان موسى حجته، وتظليل الغمام امر موسى ، ومعنى ان المسيح لا اب له انه لم ياخذ العلم عن امام، وانما كان تقيا من اتقياء ذلك الزمن، اما احيائه الموتى فاشارة الى علمه الذي يهدى به ونبع الماء بين اصابع النبي اشارة ، الى كثرة علمه، وقالوا : ان محمد بن اسماعيل نبي نسخ شريعته من شريعة محمد ، وذهب ابن رزام الى انهم يقولون : محمد بن اسماعيل خالق ومصور [١] وهذا الكلام لا نستطيع تصديقه تماما الا ان ما ارتكبه القرامطة تجاه الاسلام يدلل انهم ما كانوا ينتمون للدين وشعائره خصوصا الصلاة والصيام والحج . وذكر يحيى بن حمزة العلوي في كتابه" الافحام لافئدة الباطنية الطغام" ان غالبية المذاهب الباطنية ذهبوا الى ان النبوة

[١] ـ الافحام، م س ، ص ٢١

ليست الا اتصال عقل النبي بالعقل الفعال عن طريق القوة المتخيلة ، وفي هذه الحالة يدرك النبي حقيقة الاشياء ، لكنه لا يدركها في ذاتها، بل في صورة مثالات محاكية لها، الامر الذي بسببه يجب ان تؤول هذه المثالات الى ما ترمز اليه في الواقع" [1]

٤.رأيهم في الامامة:

قرر الباطنية ومنهم القرامطة ان الامام ضروري لكل عصر ، وانه يقوم بما يقوم به النبي من تاويل لظاهر القران، وتفسير بعض الايات ، وان يوضح للناس ما لهم وما عليهم، وان يحسم الخلافات بينهم وذهبوا الى ان الامام يتصف بمعظم صفات النبي ، فالامام يساوي النبي في العصمة والاطلاع على كنه الامور لكنه يختلف عن النبي من حيث ان هذا الاخير قد نزل عليه الوحي ، اما الامام فلم يحدث ذلك له، ولما كان المسلمون يجمعون على انه لا يمكن ان يوجد اكثر من نبي في زمن واحد ، فان الاسماعيلية والقرامطة ذهبوا الى انه من الممتنع ان يكون امامان في عصر واحد ، كذلك ذهبوا الى ان " مذهب التعليم ،يلزمه الوحدة ، وهي دليل الحق ، والكثرة يلزمها الاختلاف وهي دليل الباطل، لان الفرقة المخالفة للتعليم يكثر اختلافهم، وهو امارة العدول عن الحق" ويعلق الباحث فيصل بدير عون على هذا الراي لهم قائلا" على ضوء ذلك فان الامام وحده القائم على الدين، والمتفهم حقيقته "باطنه" فهما تاما، ولهذا فان من شأن هذا الامام تعليم الناس وتفهيمهم امور دينهم، لانه المطلع على باطن الايات والعالم بما ترمز اليه، وهذه الرموز لا

---

[1] ـ الافحام، م س ، ص ٢٦

يمكن للعامة او حتى المتفقهين في الدين، من غير الامام فهمها بحال من الاحوال" وفي هذا نجد اراء غريبة لهم في تفسير بعض الكلمات الواردة في اوائل بعض السور ، مثل" كهيعص" و"الم" و"نون" وغيرها.

وهكذا استقل القرامطة في دولهم بعيدا عن الامامة ولكن في بداياتهم كانت هكذا هي نظراتهم للامامة . وبقيت رؤيتهم لها مع ايمانهم بمحمد بن اسماعيل وبالتالي اعتقدوا" ان معرفة الحقائق الالهية وبيان اسرار الاحكام الشرعية كلها مأخوذة من جهة الامام ، وانه المطلع على الامور" ومن ارائهم في الامامة ان الباطن لا يعرفه "الا قليل من الخواص" وهذا النفر القليل يستقي معلوماته من الباطن من مصدر مقدس واحد "يرجع اليه في جميع العلوم ولا يلتفت الى العقل اصلا" وذلك هو الامام ف"للشرائع باطن لا يعرفه الا الامام" الذي "يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقيقة الاشياء" [1]

وهذا ما امن به ليس القرامطة فحسب في نظرتهم لامامهم الغائب محمد بن اسماعيل بل امن به كذلك الشيعة الاثني عشرية في نظرتهم لائمتهم ويذكرالدكتور عبد العزيز الدوري كتاب اسماعيلي سري مهم للغاية نظن ان القرامطة امنوا به كليا وهو " كان محمد بن اسماعيل متمم الدور الاول المنتهية اليه غاية الشرائع المختومة به المشتمل على مراتب حدودها المحيطة بعلومها وهو القائم بالقوة صاحب الكشف الاول" وانه" ناسخ شريعة صاحب الدور السادس اي محمد ببيان معانيها واظهار باطنها المبطن فيها" [2] ويرى برنارد

---

[1] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، م س، ص ١٠٥

[2] ـ نقلا عن الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، م س، ص ١٠٦

لويس ان هذا الاختفاء للائمة مع وجود فكرة الابوة والبنوة الروحية عند الاسماعيلية كان مدعاة لتكوين سلسلتين من الائمة في تلك الفترة "بين محمد بن اسماعيل وعبيد الله المهدي" الائمة المستودعين والمستقرين ،فالامام المستقر هو الامام الحقيقي وله حق نقل الامامة الى اولاده، واما الامام المستودع فهو ابن الامام الروحي وحجته وعنده اسرار الامام ، ولكنه لا يحق له نقل الامامة الى اولاده، ففي وقت الخطر يجوز للامام المستقر ان يفوض لحجته القاب الامامة ووظائفها بينما يبقى هو مستورا ، والغاية من هذا التفويض توجيه الحركة ومعرفة حقيقة الراي العام دون ان يتعرض المستقر للخطر [1] وعلى ضوء هذه النظرية يرى برنارد لويس ان بعض القداحيين من نسل ميمون القداح قاموا بوظيفة ائمة مستودعين في اوقات الخطر كما ان زكرويه واولاده قاموا بالدور نفسه واستنتاجه الاخير هو ان سعيدا ابي عبيد الله المهدي اخر ائمة فترة الخطر واول الخلفاء الفاطميين كان قداحيا وانه عند وفاته لم يخلفه ابنه بل الامام المستقر الذي اشتغل سعيد له وهو ابو القاسم محمد القائم من نسل محمد بن اسماعيل ، وهو ما نرفضه جملة وتفصيلا لان المصادر الاسماعيلية تشير الى ان محمد القائم هو ابن عبيد الله المهدي ، والمهدي هذا من غير الممكن ان يسلم الخلافة من بعده لشخص ليس من ولده ، فالقداحيين استمروا في السيطرة على الخلافة الفاطمية . ويرد (ايفانوف) جملة وتفصيلا على هذا الراي معتبرا ان (برنارد لويس) كان قد اعتمد على روايات خرافية اوردها الدروز في مراجعهم ، المهم اننا وبعد كل ما اوردناه بحقيقة اتباعهم للائمة نصل الى نتائج مهمة ان محمد بن اسماعيل قضى القسم الاخير من حياته

---

[1] - م س، ص١٠٧

في الاهواز حيث صار له اتباع، وبعد وفاته في فترة التشرد كما يشير الدكتور الدوري كانت فئة صغيرة من المباركية "اتباع المبارك مولى اسماعيل والذين قالوا بامامة محمد وان اسماعيل قد توفاه الله" والمباركية ترى الامامة في نسل محمد بينما يرى جل المباركية وهم طليعة القرامطة بان محمد لم يمت وانه الامام السابع والاخير وينتظرون رجعته وهو القائم وخلف محمد ولدين هما عبد الله والحسين، ويرى باحثون ان مؤسس الاسماعيلية هو عبد الله والذي استقر في مدينة عسكر مكرم في الاهواز وفيها بدأ دعوته وعمل بالتجارة وجمع ثروة وتظاهر بموالاته للشيعة وبانه رجل علم وارسل دعاته الى عدة مدن ولما انكشفت دعوته هرب الى البصرة ورافقه الحسين الاهوازي كما اوردنا هذه الرواية والتي هي لاخي محسن ، ونشط عبد الله في البصرة وكون جماعة حوله وارسل الدعاة وهرب للشام بصحبة الحسين الاهوازي واختبا في دير في جبل السماق قرب معرة النعمان " ابن رزام" وولد له ابن اسمه احمد والذي خلفه في رئاسة الدعوة وخلف احمد الحسين الذي توفي حوالي ٢٦٨هـ كما يشير عبد العزيز الدوري وخلف من بعده سعيد وكان للحسين اخ اسمه محمد ابو الشلغلغ كان في سلمية ويعتقد انه استلم الدعو بعد وفاة الحسين لان سعيدا كان صغيرا ، علما ان الحسين توفي سنة ٢٦٨ هـ وبعد وفاة ابي الشلغلغ استلم الحكم عبيد الله المهدي سنة ٢٨٦هـ وبعد فترة من استلامه اختفى حمدان وقتل عبدان ، وهذا حسب التراث الاسماعيلي يكون الائمة الفاطميين من نسل جعفر الصادق وكما اوردنا وهذه الرواية لا تهمنا كثيرا ولا نقر بها لاننا نميل الى ان عبد الله هذا الذي اسس الاسماعيلية ما كان ابنا لمحمد بن

اسماعيل بل ابنا لميمون القداح وكما سنرى .[1] وللدوري راي يذكره بحذر وهو ان انفصال حمدان واتباعه من الدعوة راجع الى تباين في المبادئ ، فالنوبختي يذكر ان القرامطة جماعة حمدان كانوا من المباركية ثم اختلفوا عنهم بان قالوا اول الامر بان الامام السابع هو محمد بن اسماعيل وهو الامام القائم المهدي وهو رسول وكونوا لهم طريقة خاصة بهم وزعموا ان محمد بن اسماعيل لم يمت وانه في بلاد الروم وانه القائم المهدي ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة ويبشر بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ،اذا فالقرامطة كانوا ينتظرون عودة محمد بن اسماعيل ليبشر بالشريعة الجديدة وبكلمة اخرى انهم لا يرون في اعمال الدعوة الا تمهيدا لرجوعه واذا فلا معنى للامام المستور عندهم ، ويؤيد هذا الراي ما يقوله النويري عندما يذكر ان عبدان قال للقداحي حسين بن احمد ان الدعوة لمحمد بن اسماعيل وان القداحي هو حجته فقط ، واذا فهذا الاختلاف بين جماعة حمدان وغيرهم هو سبب انفصالهم . [2] ونحن نذهب الى ان الخلاف كان بالشكل الذي اظهره الدكتور الدوري بعد ان اشارت اغلب المصادر الى الخلاف بين حمدان والحسين بن احمد بمافيها بعض المصادر الاسماعيلية ومنهم مصطفى غالب ، ان التغيير الذي ادخله عبيد الله المهدي يتصل بالامامة ، فالاكثرية الساحقة للاسماعيلية الاوائل اعترفوا بسبعة ائمة اخرهم محمد بن اسماعيل القائم والناطق السابع وهذا تشهد به المصادر الاسماعيلية القليلة الباقية من الفترة قبل الفاطمية "وهذا ما اشار اليه دفتري

[1] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، م س، ص ١٢٣
[2] ـ المصدر السابق نفسه، ص ١٢٤

"[1] ومن ذلك كتاب شجرة اليقين المنسوب الى الداعي عبدان [2] فهو يشير الى النطقاء السبعة ، وبعد ان يعدد ستة منهم من ادم الى محمد ويبين ما خص به كل منهم ، يقول :" واما القائم سلام الله عليه فهو صاحب التاويل الذي يجمع به جميع شرائع النطقاء واعمالهم وهو صاحب الكشف والتأويل" [3]ويتحدث عن ادوار النطقاء الستة من ادم الى محمد والى ظهور القائم عند انقضاء دور محمد وهو يتطلع الى قرب ظهور القائم "صاحب الزمان والعصور الذي خصنا الله بعهده وطاعته وجعلنا من تابعيه والسائرين على خطاه بمنه وكرمه"[4] ويبين الباحث فرهاد دفتري "ان الاعتقاد الاسماعيلي بمهدوية محمد بن اسماعيل لا يدع مجالا لائمة اخرين، ويرى ان قادة الحركة الاسماعيلية تصرفوا على انهم حجج الامام الغائب او المختفي محمد بن اسماعيل ودعوا الناس الى طاعته وباصلاحه فان عبيد الله رفع نفسه واسلافه في الواقع علنا من حجج للقائم المنتظر الى ائمة فعلا وهذا يعني نفي مهدوية محمد بن اسماعيل[5] وهذا يؤيد الاختلاف الكبير الذي حصل بين القرامطة والاسماعيلية حيث بقي القرامطة يؤيدون اختفاء محمد بن اسماعيل في حين اخذ الاسماعيليون بامامة عبيد الله المهدي وهو الامام ولا امام يدعو اليه قط . وهذا يؤيد وجهة نظرنا من ان القرامطة والاسماعيلية اصبح التباين بينهم كبير ولا يمكن ان يتم التوافق بينهم.

---

[1] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات ، م س، ص ١٢٤

[2] ـالقرمطي عبدان، شجرة اليقين، تح: عارف تامر، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٨٢

[3] ـ م س، ص١٢

[4] ـ م س، ص ٩

[5] ـ نقلا عن عبد العزيز الدوري، م س، ص ١٢٥

حاشية الامام :

١- **الحجة او الباب :** ويأتي في المنزلة والرتبة بعد الامام مباشرة ، بحيث يمثل نائب الامام ، لا يفارقه البتة ، فلا امام دون حجة ولا حجة بدون امام ، اما اطلاق القول "باب" فراجع الى انه حامل مباشرة سر الامام ومكنون اعماله ، وهكذا كان عبد الله بن ميمون حجة الامام وبابه اي الامام محمد بن اسماعيل حتى وفاته ثم استلم هو من بعده الامامة ومن بعده ولده حتى الحسين بن احمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

٢- **داعي الدعاة :** وهو الرئيس المباشر للداعين ، وهو مسئول مباشرة امام الامام عن احوال الداعين من ثقافة وسلوك وطرق في الدعوة وتوزيعهم على البلاد وحسن اختيارهم ، وهذا منصب كان يشغله الحسين الاهوازي حيث كان يبلغ الاوامر التي ترده من سلمية الى حمدان وال زكرويه.

٣- داعي البلاغ : ومهمته تبليغ الاوامر السرية التي يرسلها داعي الدعاة الى البلاد موضع الدعوة ، وهو المسئول عن توزيع كل الاسرار التي تصله

٤- **الداعي المطلق:** وهو رجل بلغ حدا من الثقة جعله صالحا صلاحية مطلقة لان يسافر الى الاقاليم التي يراها في حاجة الى الدعوة.وداعي الدعاة هذا يتسلم اسراره بطبيعة الحال من داعي البلاغ.

٥- **داعي المأذون:** وياخذ عن الداعي المطلق "الاسرار" وليس من حقه ان يجوب البلاد الا باذن من الداعي المطلق.

٦- **الداعي المحصور:** وواضح انه محصور في منطقة معينة يحددها له الداعي المطلق ، حيث يسال امامه عن مدى تبليغه الاسرار في هذه المنطقة المحددة التي انحصرت فيها اختصاصاته.

٧- **الجناح الايمن والجناح الايسر :** سبق وان تكلمنا عنها في بحثنا هذا وخلاصتها انهما يلازمان الداعي المطلق في جولاته التي يقوم بها في البلاد، وهما يسبقان الداعي المطلق الى البلاد التي يقرر الذهاب اليها لسؤال الناس ومعرفة احوالهم ومدى استعدادهم للاستجابة الى الداعي المطلق. والمكاسر والمكالب ، حيث ان المكاسر هو رجل اخذ نصيبا وافرا من القرمطية واصبح له قدرة لا باس بها على المجادلة والمناقشة ، والمكالب او ما يسمى ب"كلب الصيد" حيث يصطاد الاخبار والحوادث التي تحدث ولها ارتباط بالدعوة كأن يتعرف على نوعية الافراد وميولهم .ثم يبلغ ذلك الى داعي الدعاة. واخيرا المستجيب

٥.رأيهم في تاويل النصوص القرانية والظواهر والاخبار :

وفيه يبين يحيى بن حمزة العلوي في كتابه"الافحام" ان الاسماعيلية و القرامطة حاولوا ان يدعموا اقوالهم بنصوص من القران وببعض الاحاديث المروية عن الرسول ، لكنهم وجدوا ان النصوص بظاهرها لا تؤدي غرضهم ، وبالمثل فيما يتعلق بالاحاديث ، ومن اجل هذا اولوا هذه النصوص بما يتفق ويتلاءم مع مذهبهم ، ونحن ذكرنا بعضا من الايات التي اولها حمدان كي يستحصل من اتباعه الفطرة وغيرها من الاتاوات والضرائب ومن جملة تاويلاتهم " ان الصلوات الخمس ليست الا دليلا على الاصول الخمس التي هي: السابق – التالي- الاساس- الناطق- الامام" والصيام هو في حقيقته امساك عن كشف السر كما اوضحنا، والكعبة هي النبي وعلي بابها، وهذا ما اوضحناه

٦.رأيهم في المعاد:

ذكروا ان معنى القيامة هو : قيام قائم الزمان، وقال بعضهم هو قيام ابتداء دور الفلك بانقضاء زمان دور له، وقالوا: والمعاد عود كل شيء الى اصله من الطبائع الاربع، ولا يثبتون سوى الدنيا دارا وما يروى من المأكول في الجنة لا يقرون به ، وقالوا باستحالة اعادة الاجسام[١].

اما مذهبهم في التاويل فهو الاخذ ببواطن الامور لا ظواهرها ، فذهبوا الى انه يجب معرفة حقيقة الشرائع خلاف ما عليه اهل الظاهر ، ومن عرفها سقط عنه العمل، وكذلك لكل شيء في العالم ظاهر وباطن ، حى قالوا ذلك في الشرائع ، وقالوا : والصراط والجنة والنار ، والملكان الكاتبان وملك الموت ودابة الارض والرجال ويأجوج ومأجوج واشباه ذلك اشارات الى معاني باطنة، وذكروا ان الظهور اشارة الى تولي الامام والتبرؤ من الطاغية ، والماء اشارة الى علم الامام، والتيمم الاخذ من الماذون، والصلاة اشارة الى الناطق ، والجنابة مفاتحة المستجيب بالعلم الذي لم يبلغ اليه، والزكاة تطهير النفس بمعرفة الحق ، والطواف السبعة الائمة السبعة ، والكعبة: النبي، والباب: علي، وقوله

" ولله على الناس حج البيت" يعني: معرفة الامام[٢] يبدو انهم توغلوا في هذه التفسيرات الى حد كبير بحيث لم يتركوا اية الا واعطوها معنى باطنا مخالفا لما يفهمه المسلمون منها، والكلام صحيح بان هذه اراءهم والدليل انهم لم يعترفوا

---

[١] - م س ، ص٢١

[٢] - م س ، ص ٢٢

بصلاة او صيام او حج وخصوصا الحج فتبين ان هذه تاويلاتهم تمنعهم من اداء الحج والتمسك بالشعائر الاسلامية .

ومن رؤاهم في التاويل الباطني ايضا ان الطوفان هو العلم اغرق به المتمسكون بالشبه، والسفينة حرز الذي يخص به من استجاب لدعوته، وان نار ابراهيم عبارة عن غضب النمرود وذبح اسماعيل عبارة عن اخذ العهد عليهم وعصا موسى حجبته لا الخضب المعهود، وانفلاق البحر افتراق علم موسى فيهم. والنار عبارة عن الاغلال بالاوامر التي هي التكاليف فما داموا مستمرين عليها فهم معذبون ، فاذا قالوا بعلم الناطق ، وعملوا به وضعت عنهم اغلال التكاليف ، وسعدوا بالخلاص منها وهذا هو الجنة[1]

٧.البلاغ السابع:

سنعتمد المؤرخ البغدادي (الحانق على القرامطة) في معرفة بعض ما جاء في كتاب البلاغ السابع لعبدان الكاتب كونه المصدر الوحيد الذي وقعت عليه يتحدث عن هذا الكتاب المهم ، وسنحاول مناقشة بعض الفقرات الواردة فيه وهل ان القرامطة كانوا قد طبقوها فعلا ويقدم لنا المؤرخ البغدادي ، صورة عن اتصالات عبيد الله المهدي اول خليفة فاطمي بأبي طاهر الجنابي الذي نهب الكعبة ، وذلك في صورة رسائل ارسلها عبيد الله الى سليمان الجنابي ويقول انه قرأها في كتابهم المترجم "بالسياسة والبلاغ الاكيد" ويعلق الباحث فيصل بدير عون "يبدو ان الفقرات التي سيذكرها البغدادي من كتاب البلاغ

[1] ـ الافحام ، م س ، ص ٧٣

السابع "[1] ان هذا الكتاب يبطل القول بالمعاد والعقاب ويعلن ان الجنة هي نعيم الدنيا وان العذاب هو اشتغال اصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد " وهذه صحيحة في نظري وقام بها القرامطة وطبقوها حينما ذكرنا مدينة هجر"الاحسا" حسب وصف ناصر خسرو لا يوجد فيها جامع واهلها لا يصلون ولا يصومون ولا يحجون وعموم القرامطة لا يحجون . ودليل انهم يؤمنون بان الجنة هي نعيم الدنيا، انهم امنوا بالملكية المشاعية وان الاموال يتقاسمها الجميع هو دليل على انهم كانوا يريدون مجتمعا خاليا من الفقر وتتجسد فيه العدالة الاجتماعية كي يتحقق النعيم .

ثم يورد البغدادي الفقرات الاتية من الرسالة او من كتاب عبيد الله "ان اهل الشرائع يعبدون الها لا يعرفونه ولايحصلون منه الا على اسم بلا جسم، واكرم الدهرية فانهم منا ونحن منهم" ثم يرى البغدادي ان الباطنية يرفضون المعجزات ونزول الملائكة من السماء بالوحي والامر والنهي، ويزعمون ان الانبياء قوم احبوا الزعامة ، فساسوا العالم بالنواميس والحيل بدعوى النبوة والامامة ، وان كل نبي فيهم صاحب دور مسبع اذا انقضى دور سبعة تبعهم سبعة في دور اخر. وفسروا النبي والوحي : بان النبي هو الناطق ، والوحي اساسه الفاتق والى الفاتق تاويل نطق الناطق، ومن صار الى تاويله الباطن فهو من الملائكة الابرار، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة " وهذا الكلام صحيح فهم اي القرامطة كانوا يعملون بالباطن ودليلنا ما جاء من رسالة الاهوازي الى قرمط والتي يدعو فيها الى تاويل القران ، وكذلك فعل حمدان قرمط بتاويل ايات بحد ذاتها لاخذ الاموال من الناس تحت تاويلات قرانية

[1] ـ الافحام لافئدة الباطنية الطغام، م س ، ص ١٤

معينة كما راينا ، ثم يضيف البغدادي" انهم تاولوا لكل ركن من اركان الشريعة تأويلا ، يخرجه عن حقيقته ، فزعموا ان معنى الصلاة موالاة الامام، والحج زيارته ، وادمان خدمته والمراد بالصوم الامساك عن افشاء سر الامام دون الامساك عن الطعام ، والزنا عندهم افشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل " [1] ويقدم لنا البغدادي فقرة اخرى من الرسالة ، يقول فيها عبيد الله المهدي مخاطبا سليمان الجنابي والتي يعتقد انها مستلة من البلاغ السابع" اني اوصيك بتشكيك الناس في القران والتوراة والزبور والانجيل وبدعوتهم الى ابطال الشرائع والى ابطال المعاد والنشور من القبور وابطال الملائكة في السماء، وابطال الجن في الارض ، واوصيك بأن تدعوهم الى القول بانه كان قبل ادم بشر كثير، فان ذلك عون لك على القول بقدم العالم" ولانهم كانوا لا يصلون ولا يصومون لذلك ليس من المستبعد ان تاويلاتهم للصلاة والصيام ان تكون بهذا الشكل ، كما ان الفرق الباطنية من يمثلهم في العصر الحديث من نصيرية واسماعيلية هم كذلك لا يلتزمون بالشعائر ، ثم يقدم البغدادي فقرة من الرسالة عن تناقضات الانبياء في اقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود: لا ارفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الاحد بدلا من السبت ، واباح العمل في السبت، وابدل قبلة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ثم قال : ولا تكن كصاحب الامة المنكوسة ، حين سالوه عن الروح ، فقال: الروح من امر ربي ، لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة ، ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة، ولما لم يجد المحق في زمانه عنده برهانا

[1] ـ المصدر السابق، ص١٥

،قال: لئن اتخذت الها غيري ، وقال لقومه :انا ربكم الاعلى لانه كان صاحب الزمان في وقته.

ومما ورد في الرسالة ايضا " ان صاحبهم – ويقصد الرسول محمد- حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الاله الذي يزعمونه، واخبرهم بكون مالا يرونه ابدا من البعث في القبور والحساب والجنة والنارحتى استعبدهم بذلك عاجلا، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا، واستباح بذلك اموالهم بقبوله"لا اسئلكم عليه اجرا الا المودة في القربى" فكان امره معهم نقدا وامرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل ارواحهم واموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة الا هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها الا ما فيها اصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج، وانت واخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع اصحاب النواميس فهنيئا لكم ما نلتم من الراحة في امرهم، " ويشير الباحث فيصل الى ان الرسالة ماخوذة من كتاب البلاغات السبعة كما يعرفه ابن النديم او البلاغ السابع[1].

وهنا نستشهد بالحسين الاهوازي الذي فسر الفرق بين التأويل والتفسير " التأويل بمفهومه العلمي يختلف اختلافا كليا عن التفسير الذي يقول به علماء الظاهر وعامة الناس، لان التأويل بنظري هو الرجوع الى الاصل ، لادراك معاني القران، واستنباط جوهر الحقيقة ومعناها الروحي العرفاني الذي يوافق

[1] ـ الافحام، م س ، ص ١٧

العقل السليم "[1] فالتاويل بنظر الداعية الاول للحركة الحسين الاهوازي هو ادراك معاني القران الباطنية وليس التركيز على ظاهر القران . هذا من جانب ومن جانب اخر فهم لا يعترفون بما يسمى بالتفسير القراني وهذه ظاهرة مهمة نتلمسها من ادبياتهم .

ويضيف الاهوازي " المحور الذي يرتكز عليه علم التاويل هو المثل والممثول ، او الظاهر والباطن والموجودات قسمان :قسم ظاهر للعيان وهو الغلاف او القشرة ، وقسم باطن هو اللب او الجوهر ، فالظاهر يدل على الباطن ، كجسم الانسان الذي هو الظاهر ونفسه التي هي الباطن" [2]

ويشرح احد اهم كبار القرامطة وهو عبدان الداعية معنى الباطنية في فكرهم اثناء حديث يجمعه بالحسين الاهوازي .

يقول عبدان للحسين " نظرتي يا مولاي الى امثال اولئك العلماء تختلف عن نظرة الناس اليهم ، فهم في نظري مرتزقة لا يعلمون الا القشور ، اذ ليس بمقدورهم ان يسبروا اعماق الفكر والمعارف لاستخراج الجواهر الساطعة ، والدرر الثمينة، فالعلماء يا مولاي هم ورثة الانبياء"[3] وهذا الحديث يدلل على ايمانه بالباطنية كمبدأ حياة ينشده .

كما اعتقد الباطنية ومنهم القرامطة ان الائمة كائنات خلقت من طين اسمى من طين البشر ، واستخدموا في الدور السري فكرة العقول الافلاطونية المحدثة ليحققوا فكرة السبعة وامنوا بالفيض فكان ادم اول جسماني ، فهو صاحب

[1] ـ مصطفى غالب، القرامطة بين المد والجزر، م س ، ص ٣١
[2] ـ مصطفى غالب، م س ، ص٣٢
[3] ـ مصطفى غالب، م س ، ص ١٠٦

الدور الاول وكانت حجته زوجته حواء اما نوح فهو صاحب الدور الثاني، ثم على التوالي ابراهيم وموسى وعيسى ثم محمد وهو صاحب الدور السادس، والائمة من بعده متممون لشريعته ومحيون لسنته، ثم نصب اساسه علي بن ابي طالب ، ويأتي بعده القائم السابع متمما دور القران العظيم، وهو خاتم الدائرات العظمى ومنتهى السدرة [1] فالقرامطة يؤمنون بمحمد بن اسماعيل خاتم الائمة وهو المؤول للقران .

كما تجلت الباطنية لديهم بعلل اخرى نذكرها كالتالي:

٨.نظرية الدور :

في هذه النظرية بالتحديد اتهام من مؤرخ السلطة الطبري للقرامطة وبالتحديد الفرج بن عثمان احد دعاتهم حيث اتهم الفرج بن عثمان قال عن نفسه انه"داعية المسيح" وان المسيح تصور له في جسم انسان وقال له" انك الداعية وانك الحجة" ويشير عليان انه من المرجح ان الداعي القرمطي يقصد بكلمة المسيح الامام الذي يدين بطاعته، لان الاسماعيلية يعتقدون ان ائمتهم يحملون صفات من سبقهم من الانبياء ، وذلك طبقا لما يعرف عندهم بنظرية الدور ، والنظرية تقول " اعتقادهم ان الله تعالى خلق الدنيا في ستة ايام وقسم الحياة فيها الى ست مراحل تبتدئ بدور ادم وتنتهي بدور محمد وعلى راس كل دور من هذه الادوار الست نبي يطلقون عليه اسم الناطق" ويعتقدون ان بين كل ناطق واخر ستة ائمة يخلفون الناطق في الاشراف على شريعته واول

[1] ـ الافحام لافئدة الباطنية الطغام، يحيى العلوي، م س ، ص ١٤

هؤلاء الائمة يعرف بالاساس وهو - كما يقولون- الباب [1] ومفردة الباب يستخدمها الشيعة في تاريخهم الطويل حتى ان البابية استخدموا هذه المفردة في العصر الحديث ..

٩.الاستدلال بالاعداد والحروف:

يرى القرامطة ان نظام تعدد الاشياء في الكون له دلالات معينة، وهي في تقديرهم تشير الى اصول العقيدة الاسماعيلية التي يدينون بها، ، فالسموات سبع والنجوم السيارة سبع ؛حسب رؤاهم في تلك الفترة ، لان النجوم السيارة ويقصدون بها الكواكب التابعة لمجموعتنا الشمسية اصبحت تختلف عن حساباتهم اليوم ، والارضون حسب العقيدة الاسلامية سبع، وهذا يدل على ان دور الائمة يتم بسبعة ، ولعل ذلك هو اصل تسمية القرامطة، وجميع الاسماعيلية بالسبعية، يقول الغزالي في كتابه "فضائح الباطنية" واما السبعية فانما لقبوا بها لامرين: احدهما اعتقادهم ان ادوار الائمة سبعة ، وان الانتهاء الى السابع هو اخر الدور، ، وهو المراد بالقيامة [2] وفي نظرنا ان الايمان بالارقام على هذه الحالة هو حالة من الغنوصية التي كان يتبعها القرامطة ، كذلك ما فعله الحسين الاهوازي كما مر بنا في الكوفة ، حينما اتخذ من اتباعه اثني عشر نقيبا"مساعدا" وقال لهم"انتم كحواري عيسى بن مريم" .

---

[1] ـ الاسماعيلية يقولون كما الشيعة ان النبي قال "انا مدينة العلم وعلي بابها، فمن اراد العلم فليأتي الباب" احمد حميد الكرماني ، راحة العقل، ص٤٢٤

[2] ـ عليان، م س ، ص ١٨٨

١٠.الحلول

في نظر الاسماعيلية عموما ان العالم الروحاني تسيطر عليه قوتان :العقل الكلي والنفس الكلية وان هاتين القوتين تتجسدان على الارض بشخص الناطق والاساس ثم في شخص خليفتهما وممثلهما الامام الاسماعيلي [١]

ويسوق عليان بعض الامثلة التي تدلل على ايمانهم بالحلول ولا نجدها ادلة دامغة ومنها: عندما قبض على ابي الفوارس وهو احد دعاة القرامطة خاطبه الخليفة العباسي المعتضد" اخبرني ، هل تزعمون ان روح الله تعالى وارواح انبيائه، تحل في اجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم الى صالح العمل" [٢] وانا اجد ان هذه الرواية التي يسوقها عليان كدليل على ان القرامطة امنوا بالحلول هو ليس بدليل ، لان الخليفة العباسي وكان من اعداء القرامطة في موضع اتهام لابي الفوارس، ولم تستكمل الرواية كي نعرف ما كان رد ابي الفوارس على المعتضد العباسي ، فلا اعرف ولا نعرف المسوغ الذي حدا بالاستاذ عليان ان يسوق هذه الرواية وهي على لسان اعداء القرامطة كدليل علمي على ايمانهم بالحلول ، والرواية الثانية التي يسوقها الاستاذ عليان لا تدلل على ايمانهم بالحلول وهي مقطع من رسالة المعز الفاطمي الى الحسن"الاعصم" القرمطي الذي كان يحارب الفاطميين، وهو دليل على انه ما كان يؤمن بالحلول في ائمة الاسماعيلة والا لما شن حربا شعواء عليهم ، والمقطع يذكره بولاء ابائه للفاطميين "الم تعلم انهم كانوا عبادا لنا اولي بأس شديد" ومن هذا المقطع يمكن ان نفهم انهم كانوا بمنزلة الخدام لهم(ان صح ذلك طبعا وقد

[١] الكرماني، راحة العقل، القاهرة، ١٩٥٠، ص٢٩٦-٢٩٨

[٢] - ابن الاثير ، الكامل، بيروت ، دار الكتب العلمية

ناقشناه في الباب الثاني من هذا الكتاب) ولا يوجد اي دليل على مبدأ الحلول في هذا المقطع.

ولكن هنالك رواية فيها اشارة الى الحلول ، وهي لكبير دعاتهم الحسين الاهوازي والذي كان يبشر بالدعوة ، تقول الرواية" عندما تقابلا لاول مرة في سواد الكوفة ، فحين عرض حمدان عليه ركوب احد ثيرانه، رفض الاهوازي بحجة انه لم يؤمر بذلك، فقال له حمدان" ومن يأمرك وينهاك؟ قال الاهوازي: مالكي ومالكك ومن له الدنيا والاخرة ، فبهت حمدان قرمط واخذ يفكر ثم قال له: يا هذا ما يملك ما ذكرته الا الله، قال صدقت والله يهب ملكه لمن يشاء "[1] ولا بد ان حمدان قد اقتنع بداية بصحة ما قيل له عن الامام وعظمته بدليل الحاحه على الاهوازي ليدلي اليه بأسرار علم الامام ومكنون فضله، ثم اعتناقه الدعوة الاسماعيلية دون تردد وهذه حسب اشارات الاستاذ عليان ونراها في خضم هذه الرواية صحيحة نوعا ما ، فقد يكون حمدان قرمط قد امن بمبدأ عظمة الامام الاسماعيلي ابتداء

ومما يدل عل ايمان القرامطة بمبدا الحلول ان انصار زكرويه بن مهرويه سجدوا له عندما ظهر لهم بعد اختفائه الطويل ... يقول المنصوري" فلما استخرجوه حملوه على ايديهم وسموه ولي الله، وسجدوا له" [2] والواضح ان القرامطة ابتدؤا باتباع قادتهم وترك اتباع الائمة الاسماعيلية بل اختلفوا معهم اختلافا كبيرا ويعلق الاستاذ عليان مؤكدا هذا " المعروف ان زكرويه كان

[1] ـ النويري، نهاية الارب، ج٢٣، ص٥٦ـ٥٧ ، نقلا عن عليان ، م س ، ص ١٩١
[2] ـ عليان، م س، ص ١٩٢

قد ادعى الامامة بعد ان اختلف مع الامام الاسماعيلي عبيد الله المهدي"سعيد بن الحسين"[1]

ومن عقيدة القرامطة انهم كانوا يرون بطلان عقيدة اهل السنة ، يشهد بذلك ما قاله احد القرامطة من اتباع الحسين بن زكرويه لأمه التي لم تكن على مذهب القرامطة عند مقابلته لها بعد طول غيبة حيث سألها" اخبريني ما دينك؟ فقالت: ما تعرف ديني؟ فقال ما كنا فيه باطل. والدين ما نحن فيه اليوم [2] وهذا ان دل على شيء انما يدل على ان القرامطة انكروا دين الاسلام سواء كان سنيا او شيعيا واتبعوا دينهم او عقيدتهم الجديدة حسب هذه الرواية ، وان اعترضنا عل كلمة"دين" فان المذهب القرمطي هو الدين الصحيح في نظره وما عداه باطل، كما يتضح موقفهم من عقيدة اهل السنة مما كتبه الحسين بن زكرويه الى احد عماله حيث قال " اما بعد، فقد انتهى الينا ما حدث قبلك من اخبار اعداء الله الكفرة ، وما فعلوه ناحيتك من الظلم والعبث والفساد في الارض" [3] وهي ردة فعل طبيعية نتيجة تكفيرهم من قبل اهل السنة.

اما "علماء اهل السنة" فتتضح نظرتهم الى عقيدة القرامطة الدينية من الالقاب التي اطلقوها عليهم، ومن امثلة ذلك تسميتهم القرامطة بالخرمية والمزدكية والبابكية .وهم يختلفون عن كل هذه المذاهب والاديان على الرغم من انهم افادوا منها.

[1] - عليان، م س ، ص ١٩٢

[2] - ابن الاثير، الكامل ج٦، ص١٠٥

[3] - المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا، جمال شيال، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٢٠

١١.كيف صمد القرامطة بتبنيهم العقيدة الباطنية:

كانت لديهم عدة طرق للصمود منها /

١- استخدام اساليب التخفي والتستر "حتى ان المستجيب وهو احد مراتب الحركة" كان لا يعرف شيئا عن الدرجات التي تلي درجته وهكذا ...

٢- برعوا منذ نشأتهم في تنظيم خلاياهم وعشوشهم تنظيما رائعا فحملوا لواء البلاغة والعلم.

٣- نظام التخصص لديهم كان نظاما واعيا.

٤- كان دعاتهم المنتشرون في كافة انحاء المشرق الاسلامي اشبه بجواسيس ينقلون الى مركز الدعوة اسرار العباسيين واخبار العمال والاقاليم بشكل منظم

٥- نظام اخذ العهد على المدعوين كان له عظيم الاثر في جذبهم وجعلهم تحت الطاعة يقومون على مبدأ الاخوة والمودة .

٦- يرى الفرد حياته بتماسك الجماعة ، حيث كان يعتقد باخلاص زعمائه وصدق ايمانهم وانهم وحدهم على الصراط المستقيم وان على الافراد طاعتهم طاعة عمياء لهذا كانوا مصدر الر عب في قلوب اعدائهم [1]وهذه النقطة بالتحديد تبين ان المذهب الاسماعيلي ايضا كان ينتهج النهج الدوغمائي في جعل الافراد يلتحقون بالائمة منهم ويتبعوهم دون رؤية عقلية ، وهذا يدلل على السلوك الشمولي الذي انتهجه المذهب مع مريديه، وحتى من يكسر النمطية منهم ويخرج عن طاعة ائمته من الاسماعيلية كما حدث مع حمدان قرمط

[1] ـ عارف تامر ، ص ٩٥-٩٦

وال زكرويه فيما بعد الا انهم اي القادة والدعاة يبدؤون سلوكا مع الافراد في ضروروة اتباع القيادة الجديدة اتباعا اعمى اي انهم يخرجون الناس من دكتاتورية لينظموهم في دكتاتورية اخرى .ولكن يشير البعض الى انهم انتهجوا مبدأ عدم اجبار الناس على البيعة وصيانة الاسرار الا عن اهلها وعدم بذلها الا لمستحقها (وهذا نراه لدى القرامطة، اما ائمة الاسماعيلية فكان في نهجهم من يقف بالضد منهم فهو كافر خارج عن الطاعة كما حدث بتهديدهم لال زكرويه كونهم خرجوا عن طاعة ائمة الدعوة الاسماعيلية) اما القرامطة فما كانوا يجبروا احدا على البيعة كما عبر عن ذلك عارف تامر.على الرغم من الاستبداد الذي تبنته الحركة في مرحلة من مراحلها سيما ما فعله ال زكرويه .

الفصل الثامن

اساليب وطرق نشر الدعوة

١.بداياتهم:

كان لبدايتهم كبير الاثر في نشر دعوتهم فأوفد الاسماعيلية الحسين الاهوازي وكان فيما يبدو صاحب جزيرة اي /المسؤول عن الاشراف على امور الدعوة في الجزيرة ، وكان يرتبط دائما بكبير الدعاة المقيم في مركز الدعوة الاسماعيلية ويكون على اتصال مباشر به ليأخذ عنه العلم ١ فاستجاب له بعض الاتباع ممن عرفوا باسم القرامطة فاتخذ من بينهم اثنى عشر نقيبا (مساعدا) وقال لهم "انتم كحواري عيسى بن مريم" ٢ لذلك قسمت منطقة الدعوة لديهم الى اثني عشر شهرا والشهر ثلاثين يوما واليوم الى إمرة كل واحد منهم ثلاثون نقيبا يأتمر بأمر كم منهم أربعة وعشرون داعيا وهذا التقسيم بالأساس فلكي .

كان نظام الدعوة الاسماعيلية يقضي بأن يلازم صاحب الجزيرة داعيان يعرف احداهما بالجناح الايمن والاخر بالجناح الايسر ، يختصان بالذهاب الى البلدة التي يزمع صاحب الجزيرة زيارتها لجمع المعلومات والبيانات الكافية عن احوال اهلها وظروفهم المختلفة ، ووضع ذلك كله امام صاحب الجزيرة كي ينتفع به عند القيام بزيارته ، ويرى الاسماعيلية ان هذين الجناحين بالنسبة لصاحب الجزيرة بمثابة اليدين للجسم، ولذلك كانوا يطلقون على كل منهما اسم "اليد" [٣] وكانت هذه الاجنحة المرتبطة بصاحب الجزيرة تسبق وفود الحسين الاهوازي الى سواد الكوفة زيارة هذين الجناحين لها ، وهنا يعلق الباحث عليان على هذا الموضوع "لا نعجب اذا لاحظنا ان الاهوازي كان على علم

---

[١] ـ عارف تامر ، القرامطة ، ص٨٠-٨٢

[٢] ـ الطبري، تاريخ الامم، ج٨، م س ، ص ١٦٢

[٣] ـ عارف تامر ، ص٨٣

مسبق بسوء المعيشة في بعض قرى سواد الكوفة ، فأشار الى ذلك في كلامه مع حمدان قرمط عند اول مقابلة لهما بقوله: "وامرت ان اشفي اهلها ، وانقذهم مما هم فيه من سوء حال، وأملكهم أملاك اصحابهم" [1] ولقاء حمدان بالاهوازي كما قلنا كان مخططا له لسابق علمه بان حمدان كان له اصحاب كثيرون ، وانهم جميعا فقراء متذمرون ويأملون في الخلاص على ايديهم ، وليس ادل على ذلك من سرعة اخذه العهد وان لقاء الاهوازي بحمدان لا يمكن ان نجرده من كونه لقاء بسيطا بل هو من صلب جوهر الحركة الفكرية للقرامطة ، ويتضح مما ذكره النويري والمقريزي :ان القرامطة قاموا بتقسيم منطقة سواد الكوفة الى جهات مختلفة واسندوا الاشراف على كل منها الى احد كبار الدعاة ـ واوجبوا على كل منهم ضرورة الاقامة في الجهة التي يشرف عليها كي يتيسر له مقابلة صغار الدعاة الذين تحت اشرافه والتمكن من توجيههم مرة كل شهر ، وتشير بعض الروايات الى ان قرامطة العراق خضعوا للحسين الاهوازي بداية وبعد اختفائه خضعوا الى احد ابناء عبد الله بن ميمون القداح الذي كان يقيم في الطالقان ، ويبدو انه كان همزة الوصل بين قرامطة العراق وبين داعي الدعاة الذي كان يقيم في مركز الدعوة الاسماعيلية بسلمية ولكي يتم هذا الاتصال بسهولة ، انتقل حمدان الى كلواذي(الكرادة حاليا) ليكون قريبا من الطالقان (في ايران حاليا) ، وقد اطلق الاسماعيلية على كل من يقوم بعمل ابن عبد الله القداح اسم"داعي البلاغ" وكان مسؤولا عن تبليغ اوامر داعي الدعاة في سرية تامة الى دعاة الاقاليم ، ونقل اخبار دعاة الاقاليم الى داعي الدعاة حتى يعرف مدى قيام كل منهم بواجبه مثل عزل

[1] ـ عليان ، م س ، ص ١٦١

يحيى بن زكرويه من قبل (الحسين بن الاسود)عن دعوة الكوفة بسبب طموحهم بعد قتلهم لعبدان. وقد اهتم القرامطة باختيار دعاتهم اهتماما كبيرا فكان لابد من توافر شروط خاصة في كل منهم حسب مرتبته والدليل المؤلفات التي وجدت لديهم عن الدعاة ومنها "رسالة تحفة القلوب وفرجة المكروب في تركيب الحدود للداعي حاتم بن ابراهيم، وكتاب الحدود لعبدان [1] فيتضح ان القرامطة اهتموا بالدعاة اهتماما فكريا واوجدوا صفات كثيرة يجب توافرها بالداعي لانه المفتاح لدعوتهم ولجذب الناس اليهم فيجب ان تتوافر في اية داعية :العلم والتقوى .

ومما يؤسف له ان مؤرخا معاصرا كبيرا وهو الدكتور عبد العزيز الدوري كان قد اعتمد على مصادر تتحدث عن الحركة من اعدائها فقط ولم نجد له مصدرا محايدا قط ومن المصادر التي اعتمدها: الطبري، ابن الاثير، البغدادي، الفرق بين الفرق ، الغزالي:فضائح الباطنية، وكلها مصادر ناقمة على القرامطة ، لذلك نراه ينقل نصا ما اورده البغدادي" انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الجهلة الذين كانوا يئنون من جشع الجباة واستغلال الملاكين"الفرق بين الفرق" " انتشرت الحركة - والكلام للدكتور الدوري- بين اهل الحرف وعوام المدن، وقد كان مستوى معيشتهم واطئا ، وفيهم يقول الغزالي" والعامي الجاهل يظن ان التلبيس بالاديان والعقائد مثل المواصلات والمعاقدات الاختيارية، فيصلها مرة بحكم المصلحة، ويقطعها اخرى" (الغزالي فضائح الباطنية) والملاحظ لحديث الدكتور الدوري انه مقتنع بكلام الغزالي والا لما اورده ، او لكان رد عليه، وحتى استخدامه لعوام المدن استخدام فيه انتقاص

[1] - عليان ، م س ، ص ١٦٣

لهم فليس كل عوام المدن هم جهلة او يمشون وراء مصالحهم كما ورد عن الغزالي. كما ينقل عن البغدادي ليفاجئنا هذه المرة :فقلة ثقافة العامة جعلتهم يجهلون دقائق العقيدة ، وينجرفون بسهولة في تيار الدعوة القرمطية الماهرة"البغدادي، الفرق بين الفرق" وانا ارد على هذا الكلام واقول ان جشع الارستقراطية وكذلك كبار ملاكي الاقطاعيات وموظفي الامبراطورية اصحاب الامتيازات وطمعهم وظلمهم للشرائح المسحوقة من عامة الناس كالفلاحين والاجراء واصحاب المهن الصغيرة هي التي شجعت عوام المدن على ان تتبع الحركة .

٢.صفات الدعاة وكيف يتم اختيارهم :

ان الدعاة أشار اليهم اغلب المؤرخين فكانوا على مرتبتين الاولى : المستجيب والثانية : المكاسر وقيل ان عبدان الكاتب وضع كتابا في شروط اختيار الدعاة عرف بكتاب "الحدود" حدد فيه صفات الدعاة كالعلم والتقوى والسياسة والمداراة والمقاتلة والقدرة على الجدل والخطابة والداعي يجب ان يكون خبيرا بعلوم القران والحديث متعمقا في دراسة الجدل والكلام ، فضلا عن المامه بالتأويل الباطني لأمور الدين وفق العقيدة القرمطية اما التقوى فهي ان يلتزم الداعي بالخير ويعمل به، ويجتنب الشر ويحذره ، ويعمل بطاعة الله وفروضه ، ويجتنب معاصيه حسب العقيدة كما يجب ان يكون الدعاة فصحاء لهم جاذبية في الحديث يمتازون بالبلاغة والذكاء والتعقل ، كما ان القرامطة وجهوا عناية فائقة الى اعداد الدعاة مثلما كان يفعل جميع الاسماعيلية ، يتضح ذلك من اهتمامهم بالداعي المكاسر او المكالب وهو اقل مرتبة في الدعاة ،

وكان يسمح له بمناقشة العلماء من غير الاسماعيلية امام الجماهير بقصد اظهار عجزهم وتشكيك الناس في معلوماتهم وكان يلجأ الى الكلام عن المعنى الباطن لامور الدين ، حتى يبدو امام الناس انه يعلم ما خفي على غيره

خاصة وان المكاسر كان يطلب من هؤلاء العلماء الاجابة عن بعض الاسئلة التي لا يمكن الاجابة عنها ، مثل :لماذا خلق الله الدنيا في ستة ايام؟ وما معنى الحروف التي ذكرها القران في بداية سوره؟ وكانت هذه المناقشات تسفر عن اظهار فصاحته ، وغالبا ما كان يلتف حوله في النهاية اعداد غير قليلة من السامعين ، وخاصة السذج منهم، يلتمسون معرفة الاجابة الصحيحة عليها ، وكان يعمد الى تركهم فترة من الزمن ثم يلتقي بهم مرة اخرى ، ويدعي لمن انس منهم استعدادا لقبول الدعوة القرمطية ، انه تعرف على احد العلماء الافذاذ الذي يستطيع الاجابة عن هذه الاسئلة فيهرعون الى مقابلته ، ولم يكن هذا العالم الذي يشير اليه المكاسر في الحقيقة سوى احد كبار دعاة القرامطة والمكاسر يتم اختياره من قبل القرامطة من بين ابناء البيئة التي سيباشر فيها نشاطه حتى يطمئن اليه الجميع ولا يرتاب احد في امره، كما اهتموا بضرورة ان يكون المكاسر كريم المحتد ومن ذوي العصبيات الكبيرة حتى يكون عزيزا في قومه محترما من الجميع هذا بالاضافة الى ضرورة اتصافه بالورع والتقوى

وينبغي للداعي اختبار امر من يدعوهم وتعرف احوالهم رجلا رجلا ، كما ينبغي له ان يتهيب عند اهل دعوته ، وان لا يعودهم الجرأة عليه، ولا يبسطهم كل البسط لديه فيهون عندهم ويصغر امره لديهم، فانه كلما كان

أهيب عندهم كانوا اكثر انتفاعا به[1] فاذا اطمان كبير الدعاة الى شخص تتوفر فيه الصفات التي ذكرناها تولاه بالتثقيف بالمبادئ القرمطية كما ان القرامطة اعتبروا لعلم النفس مكانة مهمة يجب ان يزود بها المكاسر بالمعارف التي تمكنه من تفهم نفسية الاشخاص على اختلاف ثقافاتهم،وهذه احدى اهم اساليب الاقناع التي يستخدمها العلم الحديث اليوم ، تقنع عندما تتعرف على شخصيات من تود اقناعهم، والمكاسر كان امام الشيعة يظهر بغضه لابي بكر وعمر ويتحدث عن الائمة من اهل البيت وعن المهدي ، وكان يحاور اليهود والنصارى وهكذا كان المكاسر يخاطب كل قوم حسب عقيدتهم ومذهبهم وعقليتهم ومن ثم كان يراعي باختياره ان يكون فطنا ذكيا صحيح الحدس صادق الفراسة .

٣.منزلة الدعاة:

هذه المنزلة تنطلق من رؤية باطنية فتصل هذه المنزلة حد انهم يشبهونهم بالانبياء ويقدسونهم اشد التقديس.

كذلك كانوا يشبهونهم بالملائكة ويقولون ان هناك واسطة بين الله والنبي ، تتمثل بالقلم واللوح واسرائيل وميكائيل وجبرائيل ويطلقون على هؤلاء اسم" الحدود الخمسة الروحانية العلوية" ويرون ان هذه الحدود الروحية العلوية يقابلها على الارض حدود جسمانية تتمثل بالنبي والامام ثم الوصي او الحجة ، ثم

[1] ـ عليان ، م س ، ص ١٦٥

داعي الدعاة، ثم اصحاب الجزائر ثم بقية الدعاة [1] وكما ان الملائكة تبلغ كلام الله الى نبيه، فان الدعاة يبلغون عن امام الزمان ويترجمون عن علمه وحكمته[2]

والمستجيب يجب ان يكون ذكيا حسن المظهر قادرًا على التأثير وجذب الاتباع وتقف مهمته عند هذا الحد فإذا ما تمرس وأظهر كفاءة ومقدرة تحول الى مرتبة المكاسر ، اي الذي يستطيع ان يمارس حجج خصومه لذا وجب ان يكون عالما بالدعوة متبحرا قادرًا على منازلة شيوخ المذاهب الاخرى ومحاججتهم وتشكيك العامة في معتقداتهم المذهبية عن طريق تفنيد أسانيد شيوخهم واقناع الناس الا مناص للخلاص الا بالدعوة للمهدي المنتظر الذي يدعو اليه وغالبا ما كان المكاسر يختار من رؤوس العصبيات القوية حتى تحميه وتشد ازره اذا ما حلقت به الاخطار او تلتف حوله او تدخل في دعوته لعلو مكانته فالناس على دين ملوكهم .

٤.وسائل الدعوة

ان وسائل حمدان مؤسس الحركة في نشر الدعوة سبعا وليس تسعا وهي التفرس والمؤانسة والتشكيك والتعليق والربط والخلع والسلخ ويعتقد الدكتور محمود اسماعيل ان التدليس والتلبيس هي من المراحل التي وضعها خصومهم عليهم لتشويه دعوتهم فليس معقولا على حد قوله ان يصم القرامطة أنفسهم ب التدليس والتلبيس ويضيف ان وضع المرحلتين بين مرحلتي الربط والخلع تدليس واضح فبدونهما يبدو التسلسل المنطقي واضح وجلي ومتسق مع روح

---

[1] ـ عليان، م س ، ص ١٦٦
[2] ـ عليان، م س ، ص ١٦٧

النظام وفلسفته السبعية التي تحدثنا عنها ودلالة الرقم سبعة يعزى للكواكب السبعة، وهو مفهوم فلكي يعتقد انهم اخذوه من الصابئة. والتطابق السباعي " الائمة سبعة ، السماوات سبعة ، الارض سبعة" هو ضمن الرؤية الباطنية للقرامطة ويعلق عليها الدكتور كامل مصطفى الشيبي تعليقا نورده هنا" هكذا دخلنا في بحر الباطنيات " [1]

وسنستعرض هذه المراتب مع شرحها وكذلك التدليس والتلبيس لغرض تبيان امرهما للقارئ وليس بكونهما جزء من الدعوة ومراحلها.

يقول الدكتور محمود اسماعيل " جعل حمدان مراتب الدعوة سبعا لكل منها بلاغا حسب رتبة الفرد في البناء التنظيمي الهرمي فالبلاغ الاول للعامة ،والثاني لمن فوقهم قليلا والثالث لمن دخل في المذهب سنة ثم يعطي بعد ذلك بالغا كلما طال بقاؤه سنة اخرى ، حتى يصل الى الدرجة السابعة فيتلقى البلاغ السابع [2] وهو البلاغ الذي يتضمن اسرار المذهب وحقائقه الاساسية.

١- التفرس : حيث يختار الداعية بعين فاحصة الشخص المراد استقطابه للدعوة فيخاطب بلغته المحببة مدخلا في روعه انه على نفس مذهبه سنيا كان او خارجيا او شيعيا

متعاطفا معه فيما يعاني من مشكلات محاولا إلقاء تبعتها على الخلافة

والتفرس : هو اختيار الاشخاص الذين يلمس الداعي فيهم لين العريكة وسرعة التأثر بما يلقي عليهم ، ولم تكن دعوة هؤلاء تتم على وتيرة واحدة ، بل كان يراعي عقيدة الشخص وطبعه فان رأى الداعي الشخص مائلا الى الزهد

---

[1] - كامل مصطفى الشيبي، م س، ص٢١٧
[2] - محمود اسماعيل ، م س ، ص١٢٦

والتقوى ، دعاه الى ضرورة التمسك بالعبادات والبعد عن الشهوات، وتأدية الامانات والصدق وان كان يميل الى المجون والخلاعة ، صرح اليه بان العبادة بله والروع حماقة ، وان الفطنة في اتباع الشهرة ونيل اللذة ، وكان يتظاهر امام السنيين بانه سني متعصب، وامام الشيعة بانه شيعي متطرف ، وامام الصوفية بانه من الاقطاب ، وكان ذلك يتطلب من الداعي ان يكون مشتعل الحدس ذكي الخاطر [1]

معنى ذلك اتباع صيغ التضليل والترغيب في كسب الانصار للحركة ، هذا يخالف تأكيد القرامطة لاهمية المكانة الاجتماعية والاخلاقية التي يجب ان يتحلى بها من ينخرط في صفوفهم ، ان الحقيقة تحتاج دوما لمن يكشف عنها الغطاء ومن يكسر الاغلال التي تطوقها.

٢- المؤانسة : يهتم الداعي في هذه المرحلة بمؤانسة المدعو وملازمته ويجتهد ان يقوم بالاعمال التي يرى انها محببة الى المدعو مع مراعاة المبالغة في ذلك حتى يطمئن اليه ، ويميل قلبه الى الاصغاء الى كلامه وحينئذ يبدأ في مفاتحته بالطعن في السلاطين والعلماء وجهال العوام ، بالتالي هو يعمل على اغرائه بهذه المرحلة ويخبره بان الفرج منتظر من كل ذلك ببركة (ال البيت) واذا ذكر له اية او حديث اشار ان لله سرا في كلماته لا يطلع عليه الا من اجتباه من خلقه وميزه بمزيد من لطفه" [2]

---

[1] ـ عليان، م س ، ص ١٦٧

[2] ـ الغزالي ، فضائح الباطنية، نقلا عن عليان، م س ، ص ١٦٨

٣- مرحلة التشكيك: وفيها يرمي الداعي الى تحرير التابع من معتقداته المذهبية فيربط بين المذهب السائد وبين الظلم الاجتماعي وينتهي الى فساد سياسة الحكام ترجع لفساد مذهبهم فالتشكيك إذن يكون في مذهب الدولة .

وحينها يطلب التابع مذهبا بديلا ويدعوه حينها لاتباع مذهب القرامطة ، وتسمى هذه المرحلة بالتعليق اي التي يتعلق بها ويتوقف عليها دخول التابع في الدعوة والانخراط في سلكها .

وسبيل الداعي في ذلك هو توجيه عدد من الاسئلة من مقررات الشرائع وغوامض المسائل وعن المتشابه من القران ، فيقول في معنى المتشابه: ما معنى "الم" و"كهيعص" الى غير ذلك مما جاء في اوائل السور، ويشككه في احكام الدين قائلا: ما بال الحائض تقضي الصوم دون الصلاة مع ان الصلاة مقدمة عن الصوم؟ وكذلك في اخبار القران فيقول :لماذا كانت ابواب الجنة ثمانية بينما ابواب النار سبع؟ثم يستطرد في القاء الاسئلة قائلا" لم كانت السماوات سبعا ؟ ولم كان في رأس الادمي سبع ثقوب؟ ولم جعل راس الادمي على هيئة الميم ويداه اذا مداها على هيئة الحاء والعجز على هيئة الميم ؟ والرجلان على هيئة الدال بحيث اذا جمع الكل يشكل كلمة محمد؟ ولا يزال الداعي يسرد هذه الاسئلة وامثالها حتى يوهم المدعو ان هناك اسرارا خافية عنه يجب ان يعمل على تفهمها والاطلاع عليها [١] ويتضح ان مرحلة التشكيك هي مرحلة مهمة تجعل المتلقي يشك في مبدأه وعقيدته ، وهي تنطلق من اعمال الفكر في القضايا المطروحة وتسليط الجانب العقلي عليها ، وهي توضح ان القرامطة ما

---

[١] ـ الحمادي اليماني كشف اسرار الباطنية ، نقلا عن عليان ، قرامطة العراق، م س، ص ١٦٩

كانوا يؤمنوا بالكثير من المقدسات الاسلامية بل عملوا على التشكيك فيها ، ومبدأ الشك استخدمه في الفكر الحديث ديكارت مما يوضح ان القرامطة سبقوا ديكارت ب١٣٠٠ سنة وكان قد سبق القرامطة الى هذا المبدأ المعتزلة وعلى راسهم الجاحظ.

٤- التعليق: وفي هذه المرحلة اذا ابدى المستجيب اشتياقا الى معرفة الاسرار التي حدثه الداعي عنها، فان الداعي لا يسعفه بالاجابة عليها، بل يهول الامر عليه بقوله" ان الدين اجل من ان يعبث به او يوضع في غير موضعه ، ويكشف لغير اهله" فان وجد منه اصرارا يتركه معلقا الى حين، دون ان يكاشفه بشيء ، فاذا الح صارحه الداعي بضرورة اخذ العهد عليه، لان الله تعالى لم يدع سره للانبياء الا بعد ان اخذ عليهم العهود والمواثيق والنبي لم يبح بالدعوة الى الانصار الا بعد ان اخذ عليهم البيعة ، ثم يطلب منه الداعي ان يحلف على كتمان ما سيدلي به اليه، فان وافق استمر معه، والا اعرض عنه [1]

وبالنتيجة نلحظ ان الدعوة بدايتها كانت سرية وان هذا هو نفس النهج الاسماعيلي في الدعوة ، الا ان القرامطة خالفوه على يد حمدان قرمط وفيما بعد ال زكرويه وجعلوا دعوتهم علنية ، وبالتالي نستطيع ان نؤكد ان هذا المبدأ اسقطه القرامطة بعد ان باحوا بالدعوة وبشكل علني.

٥- الربط : وهو ان يؤخذ على المدعو عهد بكتمان اخبار من يعرف من الدعاة ، والطاعة المطلقة للامام واهل بيته، ويرتبط بذلك بايمان مغلظة وعهود مؤكدة ، لايجرؤ على نكثها او مخالفتها، وقد حرص الحسين الاهوازي على ان

[1] ـ نقلا عن عليان، م س ، ص ١٦٩

ياخذ على حمدان قرمط عهدا بالولاء للامام الاسماعيلي ونصرة دعوته، كما اشار المؤيد في سيرته الى اهتمامه باخذ العهد على اتباعه بقوله" وفتحت صحيفة الاستحلاف لهم بأيمان البيعة" [1].ويتجلى لنا ذلك فيما فعله انصار يحيى بن زكرويه اذ خضعوا لأخيه الحسين بعد مقتل يحيى ،لان العهد يتضمن ان ينتصر المستجيب للداعي والمقربين اليه وينصح لهم، وحين رفض الحسين بن زكرويه الاستماع الى نصيحة اتباعه بالفرار بعد ان ضيق القائد العباسي محمد بن سليمان الخناق عليه، قال له اتباعه: ما كنا لننصحك لولا ان لك في رقابنا بيعة، كما استباح ابناء زكرويه قتل زوج اختهم لانه -في زعمهم- خرج عن طاعة الامام [2]

فإذا ما ظهر التابع استعداده للالتزام بالطاعة للائمة من ال البيت الاسماعيلي وتنفيذها بدقة وتفنن أخذ عليه الداعي عهدا بذلك مقتضاه يصبح مرتبطا بالدعوة ومن هنا عرفت هذه المرحلة بالربط.

٦- التدليس: وقد تكون هذه المرحلة حقيقية استخدمها القرامطة ، ولكن اعدائهم سموها (التدليس) فليس من المعقول ان يسمي القرامطة هكذا تسمية على انفسهم.والتدليس هو: كشف الداعي لشيء من اسرار الدعوة القرمطية مع التمويه على المستجيب ببعض الامور حتى يسهل تقبله لها، ومن الامثلة على ذلك:

"قول الداعي بان الامام وحده هو الذي يستطيع تفسير القران، تفسيرا صحيحا لا يرقى اليه الشك، لانه من عترة الرسول ، ويستشهدون بقول الرسول

---

[1] ـ سيرة المؤيد ، ص١٢، نشر محمد كامل حسين، نقلا عن عليان، م س ، ص ١٧٠

[2] ـ النيسابوري، استتار الامام، نقلا عن عليان، م س ، ص ١٧٢

حين ساله البعض عن كيفية معرفة الحق بعد مماته" الم اترك فيكم القران وعترتي؟[1] ويحاول الداعي في مرحلة التدليس ان يقنع المستجيب بأن معرفة علم الباطن هي المعرفة الحقيقية ، لان الظاهر بالنسبة للباطن كالقشر بالنسبة للب، كما يدخل في روعه ان طلاب الحق والقائلين به من بين طلاب الجهل افراد واحاد، واذا لاحظ الداعي ان المستجيب لايزال يساوره الشك ، ذكر له اسماء بعض كبار الشخصيات، ممن يشهد لهم المستجيب بالفضل ويعتقد فيهم الذكاء والفطنة ، ويزعم انهم يعتنقون مذهبه سرا، ولكنهم لايبوحون به، ويجتهد الداعي في اختيار من يكون بعيدا منهم عن مقر المستجيب حتى لايسهل عليه استقصاء اخبارهم والوقوف على حقيقة مذهبهم [2] كذلك لم يفت الداعي ان ينوه للمستجيب عما ينتظر الدعوة من القوة والنجاح، وما يتوقع لانصار الدعوة من السعادة .

٧- التلبيس:

وهو مفاتحة المستجيب في بعض الامور المسلم بها، والحقائق المتعارف عليها ، ثم استدراجه بنتائج معينة يقول عنها الخصوم انها باطلة ، كقوله: ان اهل السنة لهم مذاهب متعددة يعتقدون بصحتها جميعا، مع ان اقوالها متعارضة ، والله تعالى يعلم الحق ولا يمكن ان يخفيه لذلك اودع الائمة علمه، وهؤلاء يرشدون الخلق الى الحق، ولذلك فان اولئك الذين لايؤمنون بولاية الائمة، ولايدينون لهم بالطاعة، " انما يتخبطون في الوصول الى الحق خبط العشواء،

---

[1] ـ عليان، م س، ص١٧٢

[2] ـ الغزالي، فضائح الباطنية ، نقلا عن العليان ، ص١٧٣

ويقتحمون فيه الحماية العمياء"[1]وهذا الكلام حول التلبيس والتدليس نرفضه كاملا وذلك لانه لم يصدر عن مصادر قرمطية وانما صدر عن خصومهم سيما ان الغزالي كان احد خصومهم وحتى ان القرامطة من الصعب ان لم يكن مستحيلا ان يختاروا لانفسهم مفردتي:" تلبيس وتدليس" كما اوضحنا للدعوة الى مذهبهم وذلك لما في المفردتين من استغلال واضح للمستجيب وهذا ما لا يريدوا اشاعته عن مذهبهم لذلك فان هذين المبدأين التدليس والتلبيس مما اشاعه الخصوم عليهم نذكرها كما وردت لاهمية ماقاله اعداء الحركة عنها.وكما بينا فقد يكونوا قد استخدموها كافعال ولكن كأسماء فهذا امر مستبعد جدا. ويطلق الديلمي على هذه المرحلة السابعة اسم "التأسيس" ويقول ان الداعي في هذه المرحلة يضع مقدمة لا تنكر الظاهر ، ولاتبطل الباطن يستدرج بها المدعو الى حيث لا يدري فيقول له: ان الظاهر قشور والباطن لب، والظاهر رمز ، والباطن هو المقصود حتى يدخل في روعه، ان العبادات الظاهرة كالصلاة والصوم والحج وغيرها، امور يقصد بها طاعة الامام والاخلاص للدعوة القرمطية ، بالتالي نجد ان القرامطة فيما ورد عنهم تركوا العبادات مما يدلل على ان القرامطة غير ملتزمين بظواهر الدين وملتزمين بعون الفقراء والانسان. فقد كانوا يركزون على الباطنية كمبدأ . والتأسيس هنا بدلا من التلبيس.

والتدليس والتلبيس كلاهما يشتغلان على المفهوم الباطني، وانما اراد الاعداء سيما اهل السنة ان يشيعوا عن المفهوم الباطني بهذين المبدأين والا فهما اي المبدأين يخصان الباطن في التفسير والتأويل ، على رأينا .

---

[1] ـ الغزالي فضائح الباطنية ، نقلا عن عليان ، ص١٧٣

٨- الخلع:

ويرتبط بالتشكيك مرحلة الخلع وتعني توقف التابع عن مباشرة تعاليم مذهبه السابق بعد إعلانه الدخول في الدعوة و الغزالي يقول :تخلي التابع عن التكاليف الشرعية وهذا ما أشار اليه دكتور محمود اسماعيل ، وليس من المستبعد ان يكون هذا المبدأ من صلب عقيدتهم . المهم ان اهل السنة يتهموهم بتركهم التعاليم الدينية كي يكفروهم ، ومع ذلك نقول ان تركهم للتكاليف الشرعية يدلل بأنهم اهتموا بالانسان كقيمة عليا بعيدا عن التكاليف الشرعية المرهقة للانسان .

فاذا اقتنع المسستجيب بان فائدة الظاهر تقتصر على فهم ما اودع فيه من علم الباطن، لا العمل به، اذ لا معنى لما يقوله الظاهرية من العمل بالظاهر بل العمل به جهل والمقصود به معرفة باطنه، سمي ذلك خلعا، ومتى وقف المستجيب على علم الباطن ، سقط عنه ، حكم الظاهر وهو المراد بقول القران" ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم" يريد بذلك التكاليف الشاقة من الصلاة والصيام وغيرها من شرائع الاسلام وكذلك الكف عن المحرمات التي تتوق الانفس اليها[1]

٩- السلخ:

وحين يثبت الداعي التزامه بتعاليم الدعوة ومباشرة شؤنها يكون قد انسلخ عن مذهبه السابق وأصبح عضوا في الدعوة القرمطية وبذلك يتم استقطاب العضو الدعوة بعد اجتياز تلك السبع والتسليم ببلاغتها ونجد لذلك سندا في رواية ابن النديم عن البلاغات السبعة في الدعوة القرمطية، فاذا توقف

[1] ـ القرامطة ، عليان، م س ، ص ١٧٤

المستجيب فعلا عن القيام بالتكاليف الشرعية- وهذا ما نرجحه وليس عيبا فيهم بل نعتبره فكرا متقدما على زمنهم بايمانهم وتقديمهم مصالح الناس على حاجات الدين - سمي ذلك سلخا .

ويرى المقريزي ان مراتب الدعوة عند الاسماعيلية والقرامطة كانت سبعا، ثم زيدت فيما بعد الى تسع مراتب ويبدو انه بنى هذا الرأي على اساس ما ذكره كل من ابن النديم [1] والغزالي [2] في هذا الامر ، فابن النديم يشير الى القرامطة بقوله" ولهم البلاغات السبع، وهي كتاب البلاغ الاول للعامة ، والبلاغ الثاني

لمن هم اعلى من هؤلاء قليلا ، وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة، وكتاب البلاغ الرابع لمن دخل المذهب سنتين، والبلاغ الخامس ثلاث سنين، الى البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الاكبر .

عموما ان دعاة القرمطية يجمعون بين القيم الدينية والعدالة الاجتماعية من هنا نجحوا في كسب الانصار .

[1] ـ الفهرست، ج١ ،ص٢٦٨، نقلا عن عليان ، القرامطة، ص ١٧٥

[2] فضائح الباطنية، ص٣١ـ٣٢، نقلا عن عليان، القرامطة ، ص ١٧٥

الفصل التاسع

المزدكية والبابكية واثرهما في الحركة القرمطية

١.القرامطة والمزدكية

ظهرت المزدكية في مطلع القرن السادس الميلادي، كحركة اصلاح، في الديانة المانوية ، لكن التغييرات التي ادخلتها على المانوية على المستويين النظري والاجتماعي جعلتها ديانة مستقلة عن المانوية كثيرا ، ظهرت النظرية الاجتماعية للمزدكية التي نظن ان القرامطة استقوا بعض افكارهم منها " ان الله انما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم، بالتساوي " [١]

حيث تشير الكثير من الروايات التي اطلعنا عليها ان القرامطة قد اخذوا بعض النصوص من الديانة المزدكية واستندوا اليها ، وقد اشار البيروني في كتابه "اخبار المبيضة والقرامطة" الى الديانة المزدكية وفيها اي في المزدكية بعض مما اعتمده القرامطة .. واعتمادهم هذا اعتبره البعض اتهام ضدهم خصوصا مؤرخي اهل السنة ولكنها ليست تهمة بقدر ما تدلل على انهم استفادوا من افكار من سبقهم كونها حركة تحررية ، وظهر قبل القرامطة ، "ظهر هاشم بن حكيم المعروف ب المقنع ، بمرو بقرية تدعى "كاوة كيمردان" ، واباح لجماعته الاموال، قتل ١٦٩هـ" [٢]

وهكذا دعى حمدان اتباعه لتقسيم الاموال بينهم وتطبيق المبدأ الاشتراكي الذي استقاه من الديانة المزدكية التي سبقته في هذا خصوصا وان الترجمات

---

[١] - ايران في عصر الساسانيين ص٣٢٩، نقلا عن سعيد الغانمي ، اقنعة المقنع الخراساني ، منشورات الجمل ، بغداد- بيروت، ٢٠١٦، ص٨١.

[٢] - سعيد الغانمي، اقنعة المقنع الخراساني، التراث الملتبس للمانوية والمزدكية والزندقة في الاسلام، مع تحقيق كتاب "الرد على الزنديق اللعين " للقاسم الرسي، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٦.

في عصرهم موجودة ، واذا عرفنا كذلك ان حمدان من الاهواز وكون الاهواز قريبة من ايران فهو قد اطلع ضمنا على حال المزدكيين، وطبقها على القرى والقصبات التي سيطر عليها القرامطة وهو شيء متقدم انماز به القرامطة عن مجايليهم وهم بالتالي استفادوا من تجارب امم سبقتهم وطبقوها في مجتمعاتهم و بذلك خالفوا الاسلام الذي امن بالملكية الفردية وملك الجواري والى ابعد الحدود ودون تقييد ، اما القرامطة فقد طبقوا ما عجز الاسلام عن تطبيقه في مراحله الاولى الا وهو مبدأ "العدالة الاجتماعية " عندما جعلوا المال مشاعا بين الناس دون تفضيل لاحد على اخر.

نخلص الى ان التشابه بين المزدكية والقرمطية كان بالشكل التالي:

١- انتشار المزدكية في ايران بين طبقات الفلاحين والحرفيين

٢- سريتها بسبب كونها لا تروق لللاشراف والمتنفذين "البصرة رفضت القرمطية كونها حوت تجار كثر وكانت مدينة اصحاب الاموال والثروات والقرامطة كانوا يدعون للمساواة في الثروات" لذلك اعتنق المزدكية الطبقات الفقيرة في ايران. وكذلك اعتنق القرمطية الفلاحين والصناع والحرفيين والعبيد.

٣- القرمطية حركة غنوصية باطنية وكذلك المزدكية فالنور الالهي ينتقل من امام الى اخر ، ولايتجلى في شخص واحد فحسب ، بل يتجلى في جميع الادوار والحقب وهذا هو معنى الدورات النبوية المتكررة في الغنوصية عموما، وليس في القرامطة او المزدكية وحدها وهنا يشير الغانمي الى ايمان الاسماعيلية بهذه الدورات وليس بعيدا ان ياخذ بها القرامطة كمنهج لهم . والواقع ان فكرة الدورة النبوية هي فكرة غنوصية ربما تعود الى الشيتية وتستخدم مكتبة "

نجع حمادي" المصطلح اليوناني "ايون" (aeon) وهي كلمة يونانية تعني الزمن والعصر والاوان واستخدمتها الغنوصية كاشارة للحقب النبوية المتتابعة "صاحب العصر " "قطب الزمان" واستخدمها القرامطة "صاحب العصر" على امامهم محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الغائب عنهم حسب ايمانهم .

٤- اباح القرامطة والمزدكيين الاموال .

٥- قسوة النظام العباسي دعت الفلاحين والطبقات الفقيرة من الحرفيين الى تبني القرمطة ، وكذلك قسوة النظام الساساني اجبرت الطبقات الفقيرة على اعتناق التنظيمات السرية المعارضة فكريا وعقائديا للنظام انذاك واخص بالذكر المزدكية.

٦- ظهرت المزدكية كحركة اصلاح في المانوية ، وكذلك القرامطة ظهروا منادين بالعدالة الاجتماعية ونجحوا في تطبيقها داخل الاسلام ، فهم حركة اصلاح داخل الاسلام.

٧- ويتلخص مذهب مزدك فيما يذكر الطبري مع تعليقاتي عليها [١] بما يلي :

أ- ان الله انما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم، وهذا وجدناه لدى القرامطة من خلال طريقتهم الاشتراكية .

ب- ياخذ الناس من الغني ويعطون الفقير ، وياخذون من المكثرين ويعطون المقلين حتى لا يكون لاحد فضل على غيره. وهذا ايضا لدى القرامطة في تصرفاتهم في الحكم لاشاعة العدالة الاجتماعية

[١] ـ نقلا عن الدكتور عبد المحسن عاطف سلام، ابحاث في الادب العربي :الثورة البابكية واثرها في الادب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ص ٤٨

ت- المساواة والاخوة في كل شيء ، وهذا ايضا وجدناه لدى القرامطة .

٢.القرامطة والبابكية:

البابكية ظهرت قبل القرمطية ايضا حيث خرج بابك الخرمي في ايام المأمون سنة ٢٠١هـ وبدأت حربه منذ ذلك التاريخ حسب ابن الاثير والطبري [١] والبابكية والتي هي حركة خرمية ترجع في اصولها الى المزدكية حسب الغزالي وانهم اسقطوا التكاليف عنهم ومن عقائدهم التي تشابه القرمطية في بعض جوانبها والتي لا ننفي ان يكون القرامطة استفادوا منها كونها حركة سبقتهم :

١- دينهم لا يرفض الاسلام وقد بنى بابك لهم مساجد يؤذن فيها فقط لا للصلاة

وهكذا القرامطة هم مسلمون الا انهم لا يصلون لانهم باطنية يفسرون الصلاة كما اوردناها في معرض حديثنا عن المذهب الباطني.

٢- يعلم البابكيون اولادهم القران " كذلك يفعل القرامطة فهم يستعينون بالقران لتفسير رؤاهم"

٣- يرفضون الصيام في شهر رمضان " كذلك القرامطة يرفضون الصيام وهم كباطنية يعتبرون الصيام هو الامساك عن كشف سر الامام"

٤- لا يرون جهاد الكفرة، القرامطة لايرون جهاد الكفرة الا انهم يجاهدون مخالفيهم بالمذهب جهادا كبيرا، ويعلق الدكتور عبد المحسن عاطف ان "البابكية نوع من الخرمية وهي ايضا نوع من المزدكية ، تدين بالمساواة والقضاء على حيازة المال والنساء شأنها في ذلك شأن المزدكية ولكنها تختلف

---

[١] - م س ، ص ٤١

عنها في الطابع الجديد الذي يرفض بعض التعاليم التي اتى بها محمد عليه السلام وتقبل البعض الاخر وتؤمن بالقوة والعنف" [1] واذا اجرينا مقارنة بين اقوال دكتور سلام والقرامطة لراينا ان القرامطة تتبع البابكية من حيث/

١- تدين بالمساواة لحمدان قرمط اسس للمساواة بين افراد المجتمع القرمطي بعيدا عن عوائلهم وانتساباتهم واموالهم .

٢- قضى على حيازة المال ، فالمجتمع كله يضع امواله تحت تصرف الحكومة القرمطية وهي التي تقوم بتوزيعه حسب حاجات الناس ولا يوجد شيء اسمه الملكية الفردية .

٣- لم يقم القرامطة باباحة النساء كما شيع عليهم البغدادي ، فهم قد اعطوا المراة حقها كاملا غير منقوص واسسوا جمعيات نسوية تقودها نساء منهم كانت لهن قوة وكارزما امثال رقية بنت زكرويه ، وليلى الجنابي.

٤- رفض بعض التعاليم التي جاء بها الرسول محمد مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها وتقبل البعض الاخر وبالتالي تتشابه مع البابكية التي سبقتها فبالامكان انها افادت منها .

٥- كذلك فان البابكية انتشرت سريعا بين العاملين في اراضي غيرهم بالاجرة ، وكذلك القرمطية انتشرت بين صغار الفلاحين

٦- كذلك كانت البابكية حركة متسامحة مع مخالفيها وكانوا يسمحون للمسلمين باقامة شعائرهم بينهم وكان الغرض من حركته اي (بابك) هو اقامة نظام لا طبقي وليس مقاومة الاسلام ولا ضرب الخلافة ، وكذلك القرامطة كانت حركتهم الاساسية هو اقامة نظام لا طبقي ومحاربة النظام الاجتماعي

[1] - م س ، ص ٥٣

القائم على الظلم والاستبداد، ان بابك واتباعه ومن بعده القرامطة كانوا يرومون الى هدم ذلك النظام المستند على اصحاب الاملاك ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر ولا ظالم ولا مظلوم ، نظام مبني على العدل والمساواة . واهم الفقرات في برنامجهم الاجتماعي والتي تشابه برنامج القرامطة :

أ- نزع الاراضي الواسعة من اربابها الذين اغتصبوها سابقا من الفلاحين او الدولة وتوزيعها مجانا على المزارعين المحتاجين اليها .

ب- تحرير المرأة الشرقية من عبوديتها الابدية واعطائها اهم ما للرجل من حقوق. وهذه الرؤية قد اخذت من المزدكية ، ومنهم اخذ القرامطة قضية اشتراكية المال والاراضي وتحرير المرأة وجعلها تتبوأ اهم المناصب . المهم ان ما دعى لقيام الحركة البابكية ومن بعدها القرمطية هم الفلاحون الذين لا يملكون اراض ، كانت اعدادهم كثيرة وان حالتهم كانت تسوء يوما بعد يوم مما كان يضطرهم مرارا الى الخروج على ساداتهم والثورة عليهم وزاد على ذلك حالة الفلاحين الاحرار لم تكن بأحسن من حالة من ذكرنا من غيرهم من الفلاحين لاسيما بعد ان اصبح جمع الخراج والمكوس وسائر الضرائب في ايدي ملتزمين من اصحاب الوظائف والنفوذ في البلاد يقاضونها بجميع الطرق ولايراعون في جمعها الا مصالحهم وشهواتهم.

والبابكية اخذت من المزدكية كما قلنا ومن التراث المزدكي نقرأ" ان الموجود الاعلى وهب الناس جميع وسائل الحياة بسخاء لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لاحد اكثر من غيره، لان عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب وما الاغتصاب الا محاولة بعض الناس ارضاء شهواتهم على حساب غيرهم مع ان

الطبيعة والعدل يقتضيان ان لا يكون لاحد اراض او عقار او نساء اكثر مما لغيره وعلى ذلك يجب عند اختلال هذه القاعدة ، ان يؤخذ من الغني المغتصب ما يزيد على حاجته ويعطى المحتاجين ليعود الناس الى المساواة الاصلية هذا هو العمل الطيب الذي يرضي الله ويجازي المرء عليه اضعافا "[1] حيث يتضح ان القرامطة اخذوا من هذه المبادئ واستقوا منها مشاعية المال والاراضي وان الكل يهب امواله للدولة كي تقسمها بينهم بالعدل والمساواة .

[1] ـ نقلا عن بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، م س ، ص ١٠٤

الفصل العاشر

العدالة الاجتماعية في الحركة القرمطية

ان ثورتهم سواء اكانت الدعوة الإسماعيلية احتوت الثورة الاجتماعية في العراق او ان الثورة الاجتماعية استترت بالدعوة الشيعية لخدمة أغراضها فالثابت ان اللقاء بين الدعوة والثورة قد تم وأسفر عن نجاح الثورة التي انفصلت عن الدعوة الإسماعيلية والعدل الاجتماعي هو الأساس في الثورة .الدكتور محمود اسماعيل .

١.مقدمة عن العدالة :

العدل: Justic في اصله اللغوي هو المماثلة والمساواة وفي هذا يتفق اللغويون جميعا [1]والعدالة : هي الاعتدال والاستقامة والميل الى الحق وعند ارسطو هي فضيلة بالنسبة الى الغير وليست مطلقة [2] والعدالة ترجع الى الدولة عندما تتولى قسمة الاموال بين المواطنين وهي مرادف المساواة ، ومن هنا كانت المساواة ، امام القانون من الحقوق الاساسية في المجتمعات المتمدنة، وذلك نابع من معنى العدالة التوزيعية [3] والعدالة هي الحكمة ، والعادل الصالح هو : الحكيم الصالح، لدى افلاطون.

يعد مفهوم العدالة الاجتماعية من المفاهيم المهمة جدا التي تبنتها الحركة على المستوى الاستراتيجي لها ، العدالة الاجتماعية التي هي يوتوبيا الحركات التي تدعم مفهومها لتحقيقها على ارض الواقع ، وحتى حركات النضال الاجتماعي تبنت هذا المفهوم على المستوى الاستراتيجي حديثا ف(غاندي)

---

[1] -معن زيادة ، الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الاول، معهد الانماء العربي، ط١ ، بيروت، ١٩٨٦، ص٥٧٩

[2] - مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة ، ط٣، القاهرة ، ١٩٧٩، ص٢٦٥

[3] - م ن ، ص٢٦٥

كان يبحث عن هذا المفهوم لتحقيقه لملايين المضطهدين الهنود وكذلك (مانديلا) وهكذا الحركات السلمية التي بحثت عن مفهوم العدالة الاجتماعية ففكرة العالم المثالي والفردوس الارضي او اليوتوبيا هي فكرة راودت الانسان منذ افلاطون والى القرامطة وحتى اليوم مرورا بالفارابي وغيرهم ممن نادى بمفاهيم تحقيق العدالة ، وقد تناول (توماس مور) في "يوتوبيا " اهم ما يمكن ان يرد في وصف حال المجتمعات التي يسلط عليها الظلم ، وكيف يتم التخلص منه ، عبر مملكة فاضلة تشيع فيها العدالة ومفاهيمها ، فكان يطمح الى السلام والاشتراكية والعدل ويحتقر الحرب والظلم والجشع والسعي وراء المال ويؤكد وجوب التخطيط لحياة سعيدة وامكان تحقيق ذلك، وكان يقدم الدليل في النهاية بتقديم وصف كامل لتلك البلاد التي زارها والتي يتمتع اهلها بحكم عادل ويحيا اهلها حياة طيبة ، يضعه في مقابل ما هو سائد في اوربا انذاك من بؤس وفقر نتيجة لانعدام الحكم العادل وقيام الحياة الاجتماعية .(توماس مور) كان ينادي كما نادى القرامطة من قبله بضروروة تحقيق العدالة للشعوب وكيف يصان سلم الناس وكيف يكون الملك راعيا لشعبه وليس سيفا مسلطا على رقابهم. يدلل (روفائيل) في الرواية على عدم وجود العدالة بالاشارة الى العقوبة الصارمة التي تفرض على السرقة ذلك في الوقت الذي لا تعمل فيه الدولة على توفير العمل للناس فيما تعيش الطبقات البيروقراطية المرتبطة بالدولة في ثراء ورفاهية ، وهذا ما وجدوه القرامطة في الدولة العباسية وثاروا من اجله لاصلاح النظام الاجتماعي .

والسبيل الذي كان ينادي به (مور) لتحقيق العدالة فهو اشتراكية الحياة ، فالملكية الخاصة والعمل في سبيل تحقيق اكبر قدر من الربح الشخصي هما

اساس الظلم والحرب "فالطريق الوحيد الذي لا يوجد سواه لتحقيق الرفاهية للجميع هو تحقيق المساواة في جميع الامور" كما قال الفيلسوف افلاطون وذلك لا يتحقق الا بالغاء الملكية الخاصة ، وهكذا عمل القرامطة على الغاء الملكية الخاصة وجعل حيازة الارض حيازة اشتراكية للفلاح وتعمل الدولة على دعمه والغاء حيازة الطبقات البيروقراطية للارض وجعل الارض مشاعا . يقول هيثلوداي من يوتوبيا" فطالما بقيت الملكية الخاصة سيظل الجزء الاكبر بكثير ، والافضل بكثير من الجنس البشري مثقلا دائما بعبء ثقيل، لا مفر منه من الفقر" نرى (توماس مور) ايضا يصف الطبقات البيروقراطية النبيلة بالقول"هنالك اولا ذلك العدد الكبير من النبلاء الذين لا يكتفون بأن يعيشوا عاطلين مثل ذكور النحل على عمل الغير وكدهم ، واقصد اولئك الذين يؤجرون اراضيهم ، والذين يسلبونهم كل صغيرة وكبيرة" وهكذا كانت الطبقات البيروقراطية في العصر العباسي تفعل الشنائع بالفلاحين وصغار الملاكين ويضيف مور"وهذا لكي يوصل رجل شره لا يعرف الشبع ووباء على بلاده بين حقل واخر ويحيطهما بسور واحد ، اما ان يطرد المستأجرون والزراع من الارض فيبعدوا عنها اما بالغش والاحتيال واما بالعنف والقهر وتنزع منهم حتى ممتلكاتهم "[1] وهكذا حارب القرامطة كل ما من شأنه ان يسيء للعدالة كهذه الاعمال التي تحدث عنها (مور) ، ولكي تكون هنالك عدالة اجتماعية يجب ان يحد من سلطة الاغنياء على الفقراء وان تشجع الصناعات " حدوا من حق الاغنياء في شراء كل شيء، ومن ذلك الامتياز

[1] - توماس مور، يوتوبيا، تقديم: د انجيل بطرس سمعان ، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧، ص١٠٧

الذي يخول لهم ممارسة نوع من الاحتكار لمصلحتهم ، لا تسمحوا لهذا العدد الكبير ان ينشأ عاطلا، اعيدوا الزراعة الى سابق عهدها ، واحيوا صناعة النسيج" [1] وهكذا نجد ان توماس مور يشخص الاخطاء الكارثية التي كان يمارسها الاغنياء بحق الفقراء ،ويطالب بدولة عدالة اجتماعية تسودها الرفاهية وحق الافراد ، وهذا ما اراده القرامطة وبوقت مبكر جدا قبيل قرون من فكر (توماس مور) .

وفي العصر الحديث اتخذت العدالة اشكالا عديدة في بيانات وافكار ورسائل مفكرين منها (البيان الشيوعي) ل(كارل ماركس وانجلز) الذي انتصر للطبقات العاملة "هؤلاء العمال المرغمون على بيع انفسهم يوميا هم سلعة لا تختلف في شيء عن اي سلعة اخرى تباع وتشترى ، ومعرضون بالتالي كالسلع الاخرى لجميع مصائب المزاحمة ولجميع تقلبات السوق" [2] كذلك يعتبر البيان الشيوعي "كلما اصبح العمل اكثر بشاعة ، ازدادت الاجور انخفاضا" وهذا ما حاربه القرامطة قبل الف سنة عندما دعموا النقابات ضمن مشروعهم في العدالة الاجتماعية ودعموا موضوعة الاهتمام باهل الصناعات كثيرا، كما يتحدث ماركس عن "استغلال اصحاب المصانع للعامل الذي يجد نفسه فريسة لاعضاء اخرين من البرجوازية :لمالك البيت، المرابي، وصاحب الدكان. وبالتالي ينظر البيان الشيوعي لموضوعة العدالة الاجتماعية على انها تبدأ بشكل تناحر بين الطبقات الظالمة والمظلومة كي تستطيع الطبقات المظلومة من

---

[1] - توماس مور ، م س

[2] - ماركس – انجلز، البيان الشيوعي، ترجمة: العفيف الاخضر، منشورات الجمل، بغداد، ط ٢، ٢٠١٥، ص ٧٨

الانتصار لنفسها. و(الثورة الشيوعية حسب ماركس وانجلز هي القطيعة الاشد راديكالية مع النظام التقليدي للملكية)[1] ويدعو الى ان يكون العمال هم اصحاب الدولة فالخطوة الاولى للثورة العمالية هي تشكيل البروليتاريا في طبقة حاكمة وانتزاع الديموقراطية ، و(تستخدم البروليتاريا سيطرتها السياسية لتنتزع من البرجوازية شيئا فشيئا راس المال كله، ولتركز جميع ادوات الانتاج بين يدي الدولة اي : البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة ولتنمي الطبقة المنتجة بأقصى سرعة ممكنة) [2] والقرامطة عملوا على هذا النهج في العدالة قبل هذا البيان بقرون عندما انتزع العمال والفلاحون راس المال من الدولة واضحى الحكم بيدهم وتمت تنمية اهل الصناعات بسرعة كبيرة ودعم نتاجهم على الرغم من الاختلاف بين المفهوم البروليتاري لدى ماركس وبين مفهوم العمل الذي كان شائعا انذاك في الدولة العباسية . كما الغى البيان الشيوعي الوراثة وحقها ، كان القرامطة قد الغوا الوراثة وبوقت مبكر جدا وضاعفوا من ادوات الانتاج واحياء الاراضي الموات وتحسين الاراضي ، .

ومن اليوتوبيات القديمة ايضا يوتوبيا كونفوشيوس الصينية حيث نادى كونفوشيوس بمبدأ سيادة الشعب. فهو يقول أن الأمة هي صاحبة السيادة ومصدر السلطة. وعلى الرغم من اعتناقه للمذهب التيوقراطي واعترافه بالحق الالهي للأباطرة. لم يترتب على هذه الفكرة اي نتائج إذ حارب السلطان المطلق للأباطرة. وعدّ سلطة الملك غير مشروعه مالم تقترن برضى الشعب حتى انه حبذ الثورة على الحاكم الذي يستبد بالسلطة او يسيء استخدامها.

---

[1] - ماركس وانجلز ، م س ، ص ١٢٤

[2] - م س ، ص١٢٤

و تميزت فلسفته باتجاهات اشتراكية واضحة. وجعل من أهداف الحكومة التي يسميها "الهيئة العادلة المستقيمة" العناية بالإنتاج القومي حتى توفر للشعب الحاجات الضرورية. كما دعى إلى اقامة عدالة اجتماعية واعانة المرضى والعاجزين عن العمل.

كما دعا إلى اتحاد شعوب العالم جميعا في "جمهورية عالمية واحدة" وهكذا فهو يدعو الى يوتوبيا قوامها ان يكون الشعب ضمن منهج العدالة الاجتماعية .... كما كان كونفوشيوس يدعو الى ان يكون التعليم متساويا وحقا شرعيا لجميع الناس دون ان يكون هنالك فرقا بينهم ،فالعدالة الاجتماعية كانت لدى الكثير من الاقوام والديانات هاجسا انسانيا كبيرا ، رفعت هذا الشعار كل الشعوب المضطهدة عبر التاريخ، فكان هو الحلم اليوتوبي نحو مجتمع خال من التفاوت الطبقي او القومي او الديني والذي يتحقق فيه للجميع ما يحتاجونه ويجعلهم يبنون حياتهم بامان فيه كجمهورية افلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي والمجتمع الشيوعي لدى ماركس بمعنى الجنة الارضية كما مر لدى توماس مور وهو حلم لم ولن يتحقق للانسان وكذلك ذهبت(الديانات السماوية) الى مسمى (الجنة الموعودة) اي : بعد الحياة المادية الارضية حيث ينال الفرد وفقها(خلاصه بعد الموت الفيزيقي).

من الفلاسفة المعاصرين للقرامطة (مسكويه) الذي ت ٤٢١هـ ومن الممكن ان يكون قد تأثر بالقرامطة ومطالبهم العادلة على الرغم من كونه عمل بالسياسة ردحا من الزمن مع البويهيين يقول عن الحاكم العادل" ان الملك الفاضل اذا امن السرب ، وبسط العدل ، وأوسع العمارة ، وحمى الحريم، وذب عن الحوزة، ومنع من التظالم، ووفر الناس على ما يختارونه، من

مصالحهم، ومعايشهم، فقد احسن الى كل واحد من رعيته احسانا يخصه في نفسه، وان كان قد عمهم بالخير ، واستحق من كل واحد منهم ان يقابله ضربا من المقابلة متى قعد عنه، كان جائرا اذا كان يأخذ نعمته ولايعطيه شيئا" [1] فالملاحظ لهذه الصفات يرى كيف ان مسكويه ينشد العدل الذي يبتغي رؤيته في شخص الحاكم ولديه رسالة كاملة في العدالة ، وهو الذي عاصر الحركات التي كانت تطالب العباسيين بالعدل ومنها القرامطة فنراه يؤكد ويقول في رسالته " العادل بالحقيقة هو الذي يعدل قواه وافعاله وأحواله كلها، حتى لا يزيد بعضها على بعض ثم يروم ذلك في ما هو خارج منه من المعاملات والكرامات ، ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضا اخر سواها ومواضع العدالة ثلاثة هي :قسمة الاموال والكرامات وقسمة المعاملات الارادية كالبيع والشراء والمعاوضات، وقسمة الاشياء التي وقع فيها ظلم وتعد، فأما العدالة في الامور التي تكون في القسم الاول ، فتكون بالنسبة المنفصلة التي بين الاربعة ، اعني ان تكون نسبة الاول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع ، مثال ذلك ان يقال: نسبة هذا الانسان الى هذه الكرامة او الى هذا المال كنسبة كل من كان في مثل مرتبته الى مثل قسطه ، واما في الامور التي تكون في القسم الثاني اعني المعاملات والمعاوضات فيكون بالنسبة المنفصلة مرة وبالنسبة المتصلة اخرى ، مثال ذلك ان نقول: نسبة هذا البزاز الى هذا الاسكافي كنسبة هذا الثوب الى هذا الخف، ثم ليس يمنع مانع ان نقول: نسبة البزاز الى الاسكاف كنسبة الاسكاف الى النجار ، او نقول:نسبة الثوب الى الخف كنسبة الخف الى الكرسي ويتبين لك من هذين المثالين ان

---

[1] - تهذيب الاخلاق، مسكويه، تح: عماد الهلالي، دار الجمل، ٢٠١١، ص٢١٩

النسبة الاولى تكون بالعمق فقط ، والنسبة الثانية تكون بالعرض والعمق جميعا، اعني ان الاولى تقع بين الكليين والجزئيين وقد تقع بين الكليين والجزئيين ايضا" ويكمل مسكويه " اما العدالة التي تقع في المظالم والامور القسمية فهي بالنسبة المساحية اشبه ،وذلك ان الانسان متى ما كان على نسبة من انسان اخر ،فأبطل هذه النسبة بحيف او ضرر يلحقه به، فان العدالة توجب ان يلحق به ضرر مثله، ليعود التناسب الى ما كان عليه، فالعادل من شأنه ان يساوي بين الاشياء غير المتساوية ، مثال ذلك: ان الخط اذا قسم بقسمين غير متساويين، نقص من الزائد وزاد على الناقص حتى يحصل له التساوي ، ويذهب عنه معنى القلة والكثرة ، ومعنى الزيادة والنقصان وكذلك الخفة والثقل وجميع ما اشبه ذلك ولكن ينبغي ان يكون عالما الوسط حتى يمكنه ان يرد الطرفين اليه، ، مثال ذلك : الربح والخسران فانهما في باب المعاملات طرفان احدهما زيادة والاخر نقصان، فاذا اخذ اقل مما يجب صار الى جانب النقصان ، وان اخذ اكثر مما يجب كان خارجا الى جانب الزيادة ، والشريعة هي التي ترسم في كل واحد من هذه الاشياء التوسط والاعتدال ، لان الناس هم مدنيون بالطبع ولا يتم لهم عيش الا بالتعاون ، فبعضهم يجب ان يخدم بعضا ويأخذ بعضهم من بعض ويعطي بعضهم بعضا ، فهم يطلبون المكافأة المناسبة ، فاذا اخذ الاسكاف من النجار عمله واعطاه عمله فهي المعاوضة ، اذا كان العملان متساويين، ولكن ليس يمنع مانع ان يكون عمل الواحد خيرا من عمل الاخر ، فيكون الدينار هو المقوم والمسوي بينهما، فالدينار هو عدل ومتوسط الا انه ساكت، والانسان الناطق هو الذي يستعمله ويقوم به جميع الامور، التي تكون بالمعاملات حتى تجري على استقامة ونظام

ومناسبة صحيحة عادلة ، ولذلك يستعان بالحاكم الذي هو عدل ناقص " والعدالة لديه يتبين انها تقوم على المساواة ، اذا علمنا ان مسكويه كان احد رجالات البلاط البويهي اي انه كان جزءا من الطبقة البيروقراطية الحاكمة الا انه خرج منها وترك كل هذا التراث العظيم في مجالات العدالة العظيمة، فهو متأثر بالحركات التي خرجت بالضد من العباسيين وال بويه وغيرهم من فئات الحكم التي توافدت على حكم الدولة ، وبالتالي اصبح مسكويه الى جنب المستضعفين ، كما انه في رسالته انفة الذكر يتناول اهل الصنائع المستضعفين ويتمنى ان يكون التساوي حاضرا في المعاملات معهم ، والعادل في نظره هو الذي يساوي بين الاشياء غير المتساوية .

والعدالة لديه هي " الفضيلة كلها" والعدالة ايضا في الاخذ والعطاء وبالتالي وكما مر بنا في صفات الحاكم العادل في توسيع العمارة والذب عن الدولة والمساواة بين الرعية وغيرها مما ذكره مسكويه ، نفسه تماما هي مطالب القرامطة في حكامهم . يقول مسكويه عن الحاكم العادل" ووفر الناس على ما يختارونه من مصالحهم ومعايشتهم "[١] بالتالي استطيع ان اعتبر هذه العبارة عبارة قرمطية بامتياز فالحاكم القرمطي حمدان وكذلك الحسن بن بهرام وفرا الناس على ما يختارونه من مصالح ومعايشات .

٢.أفلاطون والقرامطة :

وقد افادت الحركة من آراء أفلاطون الفلسفية في الجمهورية الفاضلة ان شئنا ان نتوسع اكثر في مفاهيم العدالة التي افادت الحركة تاريخيا ومن آراء

---

[١] - م س، ص ٣٤٥

الفارابي ايضا في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، سيما اذا عرفنا ان الترجمة كانت قد ازدهرت في عصرهم وترجمت عشرات الكتب .

حيث ان احد اهم آراء أفلاطون التي استخدمها القرامطة ان العدالة لا تتحقق مع وجود مبدأ الملكية لذلك دعو الى الغائها

لقد افاد القرامطة منه كثيرا لانه قسم العمل في جمهوريته كالتالي :

جماعة الحكام وجماعة الحراس وجماعة المنتجين

وهذه الجماعات يتم اعدادها فالحكام يجب ان يكتسبوا فضيلة الحكمة والحزم فيصيروا فلاسفة

والحراس يجب ان يتمتعوا بالشجاعة والمخاطرة

والمنتجون يجب ان ينشأوا على فضيلة العمل والعفة والاعتدال وهذه الجماعات جميعا ترتبط برباط الإخوة والمساواة والتعاون على ما يكفل السعادة

وقطاع المنتجين فيذكر ناصر خسرو ان ثلاثين ألفا كانوا يعملون في الأحساء بزراعة البساتين وفلاحتها حتى النساء والأطفال كانت لهم مهام محددة

ويؤكد افلاطون في سياسته المثالية لنشر العدالة في مجتمع الجمهورية على ضرورة تولي السلطة من قبل حاكم فاضل يطبق القانون بكل حكمة ومقدرة لتحقيق رغبات شعبه.

ويعتبر ان العدالة يتم حمايتها من قبل مجلس اعلى " فهذا الحكم الدستوري يعتمد على ان تكون السلطة العليا في الدولة للدستور الذي يجب ان يحميه ما يسميه افلاطون مجلس يرأس الديستور وكأنما اراد ان يفهمنا ان هذا التعديل في نظرياته السياسية لا يعني التخلي عن المكانة السابقة للفلاسفة في المدينة "[1]

---

[1] ـ مصطفى النشار ،فلاسفة ايقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨، ص٩٤.

وهذا المجلس يشابه "مجلس العقدانية" الذي رسمته وأسسته حكومة البحرين وبقي حتى نهايات حكمهم .

كما كان القرامطة يقدمون العون لكل صاحب حرفة صناعية ينزل دولتهم ويعدون بيوتا خاصة لسكناهم على حساب المجموع فوجه الشبه كبير بين القوى العاملة في المجتمع القرمطي وبين آراء أفلاطون عن تكريس طبقة خاصة للمنتجين تقوم على أساس من التفاني والعفة والتعاون والاعتدال ومساواة الرجل بالمرأة في المجتمع القرمطي لها ما يشابهها في آراء أفلاطون في هذا الباب حيث دعا الى المساواة بين الجنسين

لقد تأثر القرامطة كثيرا بآراء أفلاطون الفلسفية وهذا مدعاة الى ان الحركة أخذت بعدا معرفيا تنظيميا ساهم في إبقائها طويلا ، خصوصا اذا عرفنا ان حركة الترجمة كانت على مصراعيها في عهد القرامطة وما قبله فليس من المستبعد ان القرامطة كانوا قد اطلعوا على افكار افلاطون في العدالة وهو القائل عن لسان مسكويه" ان العدالة اذا حصلت للانسان اشرق بها كل واحد من اجزاء النفس من كل واحد منها، وذلك لحصول فضائلها اجمع فيها ، فحينئذ تنهض النفس فتؤدي فعلها الخاص بها على افضل ما يكون ، وهو غاية قرب الانسان السعيد من الاله تقدس اسمه" [1] فالعدالة عندما تكون قد وصلت لمسكويه ، تكون قد وصلت تماما الى القرامطة من قبله والذين اتخذوها كمنهج عمل .

لقد استندت الحركة الى اسس اجتماعية واقتصادية ومبادئ فلسفية من اهدافها :القضاء على استغلال الانسان لاخيه ، ونزع الاملاك العقارية

[1] - م س ، ص ٣٤٩

الفردية الواسعة ، ومصادرة الايرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة ، وفرض الضرائب المعقولة المتدرجة ، ووضع جميع وسائل النقل تحت تصرف الدولة ، وزيادة المصانع والات الانتاج واصلاح الاراضي البور ، وفرض العمل الاجباري على جميع الافراد ووصل العمل الزراعي بالصناعي ..

٣.المهن والنقابات:

والعدالة الاجتماعية جاءت نتيجة ترسخ هذا المبدأ لدى القرامطة بعد ان قامت حركات كثر على العمل وفق هذا المبدا ومنها البابكية الذين تم عرض رؤاهم في هذا المجال، كذلك مناداة حركة الزنج التي سبقت الحركة القرمطية للنداء بموضوعة العدالة الاجتماعية ، كما جاءت عدالتهم نتيجة اهتمامهم وتقويتهم لما شاع انذاك قبل القرامطة باهل المهن او اصحابها او النقابات وكان اصحاب الحرف يكونون عادة اوطأ طبقة بين الاحرار ويظهر ان واردهم المالي كان يكفي لضروريات عيشهم فقط ،وخير تقدير لحالتهم الاقتصادية قول ابي الفضل الدمشقي"واما الصنائع العملية ، وهي المهن ،فقد قيل قديما الصناعة في الكف امان من الفقر وامان من الغنى ، وذلك ان الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة مالابد له منه، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة او عقد نعمة ، وايضا فانه مع ذلك اذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم" [١] وبالتالي يتبين سوء ما تعرض له هؤلاء من ضغوط كبرى جعلتهم يثورون مع الفلاحين وينقمون من السلطات العباسية انذاك ، فهم مميزون عن الناس وكسبه لا يسمح له باقتناء قطعة ارض صغيرة ، في حين الاراضي بيد موظفي

---

[١] ـ الدمشقي، الاشارة الى محاسن التجارة ، نقلا عن عبد العزيز الدوري، م س، ص ٧٥

الدولة الكبار . والطبقة الثانية من العمال هم العبيد التي تعتبر اوطأ من طبقة العمال الاحرار ويحصل عليهم بالطرق التالية:

طريق الحرب وكان بعض الولاة يرسلهم ضمن الواردات وعن طريق الشراء وكانوا يحصلون عليهم من الجنسين سودا وبيضا ويستخدمون في المهن التالية :

في خدمة البيوت، الطباخون منهم والخزانون والبوابون والملاحون في القوارب، واستخدم بعضهم في الغناءوالشعر وتلاوة القران [1]

من الصعب ان نشير الى ان النقابات او ما يسمى بالاصناف كان قد ظهر في القرن الرابع الهجري حيث حركات القرامطة ، ولكن كانت هنالك تكتلات قبل ظهور القرامطة لاصحاب الحرف وتجمعات غير منظمة يصفها الدكتور عبد العزيز الدوري" فهناك شعور بروح الجماعة بين اهل الصنايع ، وكل واحد منهم يشعر بصلة تربطه باخوانه وكان شعارهم الصناعة نسب وكان اصحاب الحرفة الواحدة يكونون جبهة واحدة امام الخطر ، فمثلا اقتتل بائعوا الاطعمة مع صناع الاحذية في الموصل سنة ٣٠٧هـ "[2]

وبالتالي يتبين ان صناع الحرف اصبحت لديهم قوة وقدرة على المجابهة في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع الهجري، حيث بدايات الحركة القرمطية ، بالاضافة الى تكتلات اهل العمل نلاحظ ان المهن اصبحت تتخذ منحى كبير داخل الدولة العباسية ، حيث ان بعض الناس تتخذ من المهنة لقبا لها "ابن الجراح"، "الحلاج" وهكذا عاش الصناع كما يشير الدكتور عبد

[1] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، م س، ص ٧٧
[2] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، م س، ص٩٠

العزيز الدوري واهل الحرف متجمعين في محلة واحدة فكانت ملامحهم واضحة في سنة ٨٤هـ حين بنى الحجاج واسط حيث " وضع باعة الطعام والبزازين والصرافين والعطارين في الجانب الايمن الممتد الى سوق الحرازين، ووضع صناع الجلود والروزجاريين في الجانب الايسر" وكانت هنالك محلات "اصحاب الصابون" محلة السواقين ، محلة القطانين، وهكذا ، ويلاحظ الدوري ان الحرف كانت مفتوحة للمسلمين وغيرهم ومع ذلك فان بعض الحرف كانت فيها اكثرية من دين واحد [1] وبالتالي فانه قبل انبعاث القرامطة ، كان اهل الحرف متواجدين في مناطق بعينها ، مدن بعينها اسواق بعينها وكانوا منظمين حيث يشار الى حرفهم ب" الاصناف" و" اصحاب المهن" و"اهل الصنائع" وللحرفة عرف و"سنة" خاصة بها، وهي مقبولة لدى القاضي والمحتسب عند النظر في الخلافات بين اهل الحرفة ويشير (عبد العزيز الدوري) الى تنظيم اهل الحرف وتقسيمات هذا التنظيم مما يدلل على وجود النقابات جنينيا" يمكننا ملاحظة تنظيم مهني عند اصحاب الحرف، فلكل حرفة رئيس من اعضائها ، تعينه الحكومة او تعترف به وهو (شيخ الصنف)، ومن هنا شاع الاستبداد عبر المركزية - ونكمل مع الدكتور عبد العزيز الدوري "وهناك الاساتذة وهم المتقدمون في الحرفة، ويليهم الصناع وهم الذين اتقنوا الحرفة وبامكانهم فتح حوانيت خاصة بهم والعمل مستقلين،وادنى درجة في الحرفة تتمثل في المبتدئين الذين ينتسبون للحرفة ولا يزالون في مرحلة التعلم " [2] وبالتالي نجد هذه التقسيمات الدقيقة قد اوجدها اهل الصناعات ، جاء القرامطة

[1] ـ عبد العزيز الدوري تأريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢
[2] ـ تاريخ العراق الاقتصادي، م س ، ص٩٢

فوجدوا هذه التنظيمات جاهزة الا انها مغلوب على امرها ووقع عليها الظلم ومستضعفة ، فجعلوا دعوتهم فيها واصبح رؤساؤها دعاة لهم واصبح الدفاع عن حقوقهم بايديهم انفسهم ،و سهل اللقاء بهم وجودهم بهذه التكتلات من قبل الدعاة القرمطيين والتواصل معهم ، ولكن مع ظهور القرامطة انتمى هؤلاء اكثرهم الى الحركة مما اكسبهم قوة مجتمعية هائلة جعلت منهم مسيطرين على مقاليد الحكم في مناطقهم بعيدا عن السلطة العباسية في بغداد الا ان عدم سيطرتهم على المركز واشتغالهم في اطراف الدولة جعل من المركز اقصد بغداد محتفظا بقوته وقادرا على قمع الحركات . ويرى لويس ماسينيون [١] "ان الحركة القرمطية هي التي قوت النقابات الاسلامية واعطتها ميزاتها الخاصة التي حافظت عليها الى الان، اذ يقول ان النقابات الاسلامية كانت قبل كل شيء سلاحا شهره الدعاة القرامطة في كفاحهم لجمع طبقة العمال في العالم الاسلامي ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة وكل ما تمثل " واستنتج (برنارد لويس) ان الحركة القرمطية قامت بدور هام في تطور النقابات الاسلامية وتركت اثرا عميقا خالدا في حياتها الداخلية ، ثم اعترف بعدم وجود برهان واضح يبين ان الحركة القرمطية اوجدت النقابات ، ولكنه يرجح ان الحركة القرمطية بعثت روحا جديدة وتشكيلات جديدة في حركة موجودة من قبل "يقصد حركة النقابات" [٢]

---

[١] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، م س، ص ١٣٨، ٢٠١١

[٢] ـ برنارد لويس، النقابات الاسلامية ، مجلة الرسالة المصرية ، الاعداد، ٣٥٥-٣٦٢(١٩٤٠)

ونرى ان بداية نشوء النقابات كانت عبارة عن تشكيلات شبه نقابية افتقرت الى التنظيم في بداية نشوئها ومن ثم نظمت واتبعت للدولة المركزية كما بينا ، ويمكن القول ان الحركة القرمطية ساعدت بل وجعلت هذه التشكيلات تاخذ شكلها التنظيمي الحرفي المعروف ، وتخرجها من سيطرة المركز وتجعل العمال واصحاب المهن احرار ولا ننسى اهمية اخوان الصفاء في دعم التشكيلات النقابية والاشارة اليها باعتزاز وكما سنبين .

كذلك وعشية ظهور القرامطة تحول المجتمع العباسي الى طور تجاري صارت فيه التجارة من اهم اركان الحياة الاقتصادية بعد ان كانت ثانوية فبدلا من الصناعة والزراعة ظهرت التجارة كمهنة تدر الكثير للطبقة البرجوازية والفئات المترفة اثر هذا التحول على البناء الاجتماعي واصبح التجار كجزء من المنظومة البرجوازية التي سيطرت على مقدرات الدولة ووسائل الانتاج ومنهم طبقة اصحاب المهن.

٤.الفتوة :

وهي في اللغة صفة الفتى التي اشتقت منه ، كالرجولة من الرجل والابوة من الاب والامومة من الام والاخوة من الاخ والانوثة من الانثى ، والفتى في اللغة هو الشاب الحدث ، واستعيرت الفتوة منذ ايام الجاهلية للشجاعة واستعير الفتى للشجاع[1] وهكذا اشترك في الفتوة معنيان مجازيان / (الشجاعة والسخاء)وكذلك الايثار وهو العنصر الاول فيها وقال بعضهم عن الفتوة :

[1] ـ كتاب الفتوة ، للشيخ ابي عبد الله محمد بن ابي المكارم المعروف ب"ابن المعمار البغدادي الحنبلي، تح:مصطفى جواد، عبد الحليم النجار، محمد تقي الدين الهلالي، احمد ناجي القيسي، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٥٨ـ١٩٦٠

الفتوة سيف مسلول وطبق مبذول وقلب مقفول ولسان سؤول . ونرى ان القرامطة كانت لديهم بعض هذه الصفات :سيف مسلول وطبق مبذول للسائلين والفقراء والمحرومين ويقسم ابن المعمار البغدادي الفتوة الى فتوة صالحة واخرى لاهية ويسمي فتوة المتصوفة بالصالحة ، اما الثائرين على الدولة واستبدادها فيسميها الفتوة اللاهية وكانت هذه في نهايات القرن الثاني للهجرة ويعبر عنها " فتوة لاهية باغية تنادي بالشطارة والعيارة ولها اتباع اكثرهم من الثائرين على المجتمع والدولة ومن الرعاع النهابة "[1] والملاحظ ان الدكتور مصطفى جواد في تقديمه لكتاب الفتوة ، فهو يسمي حركات الفتوة المنتقمة لاوضاع المجتمع المزرية انذاك وتسلط الطبقات الفاسدة البيروقراطية بالفتوة اللاهية ويسمها بالبغي وغيرها من الاوصاف ، بالتالي كان القرامطة من صنف اولئك الذين يصفهم الدكتور جواد ثائرين على اوضاع الدولة المزرية ومنتصرين للفقراء . وان كان من بينهم من كان لاهيا وهم العيارون او الشطار .

٥.المشتركات الفكرية بين القرامطة واهل الفتوة

ولا ننسى ان جماعات الفتوة التي كانت شائعة في العصر العباسي كانت تتحدث وتشتغل دائما على موضوعة العدالة الاجتماعية، فالعدالة لم تأتِ بالصدفة الى القرامطة بل هي موجودة ومعاصرة لهم الا انها كانت غير مترسخة لدى العامة من الناس، العدالة شاعت لدى جماعة الفتوة على سبيل المثال

[1] - م س ، ص١٥

يقول المحاسبي[1] : الفتوة ان تنصف ولا تنتصف، ويقول الجنيد البغدادي : الفتوة كف الاذى ، وبذل الندى وترك الشكوى ، ويقول الشيباني : الفتوة الصدق عند الامتحان والرفق عند الجفاء ، والبذل عند الفاقة [2]

ويبدو ان للفتوة صفات يجب ان تنطبق على البعض كي تصح فتوتهم ، منها ان "يكون ذكر بالغ عاقل يمكنه التنزه عن الادناس من الجنة والناس ، وتصح فتوة الصبي المميز والمراهق والجندي والعبد والنساج والحجام والحارس والنفاط والوقاد والكاس والبصير "[3]ويتضح من هذه القضية ان الفتوة تقبل في فروعها اهل المهن والحرف وقد نستطيع القول ان الفتوة قد جمعت بين عناصرها اهل النقابات وقد تكون هي صنف من اصناف النقابات وهو الصنف المبكر لها ، على الرغم من انها اشتهرت بهذه التقسيمات ما بعد حركة القرامطة ، الا انها قد ضمت هذه الفئات من اهل المهن والنقابات استكمالا للاهتمام بهم من قبل القرامطة ، مع العلم ان الفتوة قد سبقت القرامطة سلوكا ونهجا كما مر بنا . بل لا تصح فتوة "فاعل الرذائل من الحرف والمهن"

كما يتبين من الالقاب المستخدمة بين اهل الفتوة الكثير منها التي لها علاقة مع اهل النقابات ومنها: الوكيل ، النقيب، بعبارة اخرى كانت هنالك علاقات جنينية بين النقابات والفتوة . بل شدني ان هنالك تعريفا لمصطلح النقيب في حركة الفتوة حيث يعرف النقيب لديهم" بانه المنصوب من قبل

[1] - استاذ اكثر البغداديين ، وهو من اهل البصرة ، مات ببغداد سنة ٢٤٣، من المتصوفة والجنيد مات ببغداد سنة ٢٩٧

[2] - كتاب الفتوة ، ابن المعمار البغدادي الحنبلي، تح: د مصطفى جواد، مطبعة شفيق، ١٩٥٨،مكتبة المثنى ، بغداد، ص ١٥٣

[3] - م س، ص

زعيم القوم ، واسطة بين الفتيان وهوخطيب القوم والساعي بينهم بالمصالح فهو كالترجمان، وله افعال " وله الحق في ان يستنيب ويجب ان يكون صالحا مرضيا للفتيان والمستحب ان يكون من زمرتهم لانه يحرضهم على التمسك بالفتوة ، حيث يتضح من هذا الكلام ان نقيب القوم يجب ان يكون من نفس صنف اعمالهم ، فنقيب القماشين على سبيل المثال قماشا ، على الرغم من حديثهم عن الفتوة وليس اصحاب المهن، ولكن هذه الرؤية التنظيرية لاهل الفتوة تتوافق مع الرؤية التنظيرية لاهل النقابات ، حيث رئيس النقابة يسميه "شيخ الصنف" حسب ما اوردنا وهو النقيب نفسه لدى اهل الفتوة ،ولكن صفات الفتوة هذه افرزت بشكلها هذا في زمن الخليفة الناصر لدين الله العباسي حسب اشارات اهل الفتوة انفسهم اي بحدود ٥٣٣هـ وهو متأخر على شيوع النقابات في العصر العباسي حيث يشير كتاب الفتوة " حتى انتهت الفتوة وشرفت بسيدنا ومولانا الامام ابي العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين صلوات الله عليه وكان احق بها واهلها " [١] فالفتوة كمظهر من مظاهر التكتلات شاع نمطه قبل وبعد حركة القرامطة بشكل كبير ...

٦.القرامطة والعيارين

ان الشاطر لغويا : من اعيا اهله خبثا ،والشطارة : الانفصال والابتعاد، والعيارة : الكثير التجوال والطواف الذي يتردد بلا عمل والزعارة: شراسة الخلق [٢] اشتهروا في الدولة العباسية وبالتحديد كانت حركاتهم في زمن الخليفة

---

[١] ـ الفتوة ، م س، ص٢٤٧

[٢] ـ الشطار والعيارين، حكايات في التراث العربي، محمد رجب النجار، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨١، ص١٢

العباسي الثالث ١٥٨(-١٦٩هـ) يقول البلاذري " فلما كثر الصعاليك والزعار-العيارون- وانتشروا بالجبل في خلافة المهدي جعلوا هذه الناحية ملجأ لهم، وحوزا ، فكانوا يقطعون (الطريق) ويأوون اليها فلا يطلبون"[1] والان نرى المشتركات بين القرامطة والعيارين.

١- اعتمدت حركة القرامطة والعيارين كذلك على النشاط الجمعي والبطولة الجماعية فكان بمقدور الطرفين تهييج العامة عند الضرورة وشكلت كلا الحركتين ضغطا قويا على الحكومة المركزية انذاك .

٢- كانت غاية حركات الصعاليك او العيارين او الشطار هو التمرد على النظام الاجتماعي والاقتصادي لفئة اجتماعية وجدت نفسها ضحية النظام الجائر فلم تقبله ورفضته وتمردت عليه وكانت النتيجة ان شطروا على قبائلهم وانفصلوا عنها فكان ان خلعتهم قبائلهم بدورها

٣- كلا الطرفين القرامطة والعيارين كان لديهم شعور حاد بالفقر وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية فقد كان القرامطة اغلبهم من الفلاحين المحرومين وقد كانت الانظمة في وقتهم قد حرمتهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح اليها اي انسان وجردتهم من كل الوسائل المشروعة لضمان حياة حرة كريمة لهم .

٤- كلا القرامطة والعيارين قد عكسوا حلما جماعيا من احلام الفقراء في العدالة الاجتماعية والسياسية في ضوء توزيع عادل للثروات تتلاشى معه تلك الهوة السحيقة والبغيضة التي تفصل بين اقلية تملك معظم الثروة واغلبية ساحقة تقتات الفقر والحرمان

---

[1] - م س ، ص١٤

٥- تفاقمت حركة العيارين سنة ٣١٥هـ حين ارهج العيارون بغداد وعاثوا فيها واعملوا فيها النهب، وفي سنة ٣١٦هـ كانت ثورة القرامطة في اوجها ايضا في سواد العراق

٦- عملت الدولة العباسية على استمالتهم لانهم اشتغلوا في المركز "بغداد" واعترفت بلصوصيتهم بل شرع البويهيون باستقطاب بعض زعمائهم ومنهم ابن فولاذ وعمران بن شاهين وضبة الاسدي ، في حين لم يكن هنالك مهادنة للقرامطة الذين اقلقوا مضاجع الدولة العباسية في الاطراف والمدن الكبرى وكان اشتغالهم ضعيفا على العاصمة بغداد . فبالتالي استطيع القول ان العيارين اشتغلوا على المركز اكثر فهادنتهم الدولة ونجحوا في هذا المجال فكانت ان اشركتهم الدولة في بعض المناصب الادارية واعترفت بهم .

٧- كان الناس عوامهم يتغنون ببطولات العيارين تجاه الدولة .

٨- البعض اعتبر ان الفتوة كانت مع الشطار تمثلان جبهة واحدة وان الفتى هو شاطرا عيارا وان الشطار اطلق عليهم الفتيان كما ورد في الجاحظ ، بل ان بعض اللصوص كان يطلق الحكمة من فمه فهو في نظر نفسه انما عمله كان لاسترداد حقا مغتصبا ويشير محمد رجب النجار[1] الى ان الفتوة امتزجت بالعيارة والشطارة وانه كلما ساءت احوال المجتمع انقلب الفتيان الى شطارا عيارين ينشرون الاضطرابات ، وهكذا كان عمل القرامطة من نشر الاضطرابات تجاه الدولة للحصول على الحقوق الاجتماعية والاقتصادية . وبالتالي تلتقي هذه الحركات كلها في مبدأ العدالة الاجتماعية

[1] - محمد رجب النجار، الشطار والعيارين، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، ١٩٨١، ص١١٠

٩- يفرق "محمد رجب النجار" بين الفتوة اللاهية "من العيارين" والفتوة الصوفية"من الزاهدين" فثمة تداخلا بين الطرفين .

١٠- كان كلا الطرفين القرامطة والشطار امام طريقين اما ان يقبلوا الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع يخدمون السادة الاغنياء ويستجدونهم واما ان يشقوا طريقهم بالقوة قوة الجسد والنفس والعقل نحو حياة حرة كريمة وينتزعون لقمة العيش انتزاعا من هؤلاء الذين حرموهم منها دون ان يبالوا في سبيل غايتهم اكانت وسائلهم مشروعة ام غير ذلك.

١١- العيارون يمثلون حركة تقدمية فعالة في طبقات الشعب الدنيا ، الا ان هنالك فروقا بين العيارين والقرامطة تتمثل في ان الاولى تفتقد للكثير من التنظيم السياسي والاقتصادي ،فقد كانت حركة القرامطة وثوراتهم ودولتهم تتبع نظاما اقتصاديا حاذقا يمتلك اسسا اشتراكية واضحة .

١٢- وتلتقي الحركة القرمطية مع حركة العيارين في عملية الرفض العنيف للتناقض الطبقي الذي يسود مجتمع العراق ، لكن رفض القرامطة كان خاليا الى حد ما من الطابع الفوضوي غير الهادف الذي كانت عليه حركات العيارين ، فلقد انتهج القرامطة منذ اللحظات الاولى لدعوتهم سبلا اقتصادية وسياسية قويمة[١]

٧.اهم من حوتهم الحركة :

ان العدالة الاجتماعية في الحركة القرمطية تتبين في اهم الفئات التي حوتها الحركة حيث حوت بالاضافة الى الكثير من اهل المهن والنقابات

---

[١] ـ عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، م س، ص٣٣

والذي شمل العمال بالنتيجة :

١-أهل السواد وهم الفلاحين النبط في منطقة البطيحة وقد اصاب دوزي حين وصف النبط قائلا " كان النبطيون يريدون ان يتمتعوا بما في هذا العالم من خيرات وحين وعدهم حمدان قرمط بامتلاك العالم دون منازع عمل ذلك الامل في نفوسهم عمل السحر واخذوا ينضمون الى دعوته زرافات ووحدانا"[١]

-٢-الزنوج المجندين لاعمال السخرة في البصرة

٣-الزط وهم فقراء الهنود وكانوا فلاحين

-٤الكورد المضطهدين من قبل الترك والفرس والعباسيين

٥- العرب الفقراء في الجيش العباسي وقد انضموا للحركة ايضا

٦-البدو الاعراب وهم جماعة بادية السماوة وبادية الشام وهؤلاء اتصفوا بغلاظتهم .

وقد تنبه حمدان قرمط انه لم يتمكن من جذب الناس اليه الا بمحاولة رفع مستواهم المعيشي وانتهى الامر بوضع جماعته اموالهم كلها لديه واقنعهم بانه "لا حاجة بهم الى اموال تكون معهم، لان الارض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وساعده هذا التنظيم على مد يد العون الى المعوزين من انصاره حتى انه لم يبق بينهم فقير ولا محتاج، وهذا ما حدا ب لويس ماسينيون الى الاعتقاد بان حركة حمدان هذه، انما هي حركة اصلاحية شاملة ، كانت ترمي الى ايجاد مجتمع يتمتع بالرخاء التام" [٢]كما كان لدى القرامطة امل في السيطرة على اموال الاغنياء ،فقد ظهر على اعلامهم البيضاء التي رفعوها ابان ثورتهم سنة ٣١٦هـ

[١] ـ قرامطة العراق، محمد عبد الفتاح عليان، م س، ص ٢٦
[٢] ـ العليان ، م س ، ص ٢٧

"ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين"

شكلت كل هذه الطبقات في انضمامها للقرامطة حركة اجتماعية من المسحوقين والمضطهدين بوجه التسلط والامتيازات ، وهنا يقول الاستاذ عليان " اغلب الظن ان القرامطة لجئوا الى نظام الالفة لاعداد الاتباع وتنظيم الكفاح ضد المخالفين حيث انصرف الجميع لخدمة الدعوة وتحقيق اهدافها بدلا من العمل لكسب قوتهم لان هذا النظام كفل للجميع حياة رغدة ، كما مكن جميع القرامطة من حمل السلاح ،فكان نظام الالفة عند القرامطة وسيلة لاغاية"[١]

٨.نظام الالفة :

اخذ حمدان قرمط يفرض على اتباعه سلسلة متزايدة من الضرائب والفروض ، واخيرا فرض عليهم سنة ٢٧٦ ه اي قبل ثورته بسنتين نظام الالفة ، وبموجبه تجمع اموال القرية في محل واحد ليشترك الجميع في التمتع بها ، ويختار الداعي من اهل القرية رجلا ثقة يتسلم كل ما يملكه اهل القرية من مال ومتاع وحلي ودواب ، وعلى هذا الثقة ان يكسو العريان ويسد حاجات الناس الاخرى حتى لايبقى فقير بينهم [٢] وهذه المبادئ التي ارساها حمدان قرمط لا يشترك بها مع المسلمين الذين امنوا بالخمس والزكاة والملكية الفردية ، اما هذا المبدئ في العدالة الاجتماعية فقد اختطه حمدان قرمط لنفسه

[١] ـعليان، م س ، ص ٢٠٤

[٢] ـ الدوري، م س ، ص ٨٤

وجماعته بعيدا عن مفاهيم الاسلام.مع ذلك اشار عليان الى انه فرض على اتباعه الخمس وتلا عليهم قول القران" واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه" "الانفال" "فقدموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره ، وادوا اليه خمسه، فكانت المرأة تخرج خمس ما تغزل ، والرجل خمس ما يملكه" وفيما يخص نظام الالفة لا نعرف متى انهار بالتحديد ومن المرجح انه انهار في الفترة ما بين سنتي ٢٨٧-٢٨٩هـ لان الخلافة العباسية لم تهتم بأمر القرامطة وتعمل على القضاء عليهم الا في خلال تلك الفترة

واخذ كل فرد يشتغل بجد واخلاص لخير المجموع، وذلك ليحتل المركز الذي يليق بخدماته ، فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل، وحتى الاطفال يقدمون الجعل الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول، وليس لاحد ملك عدا سيفه وسلاحه، وقد قال حمدان لاتباعه، انهم في غنى عن المال لان الارض لهم [١] وبالتالي لحمدان اعتقد ان سبب التذمر هو الشقاء المادي والحطة الاجتماعية ، وانه لا يمكن تحقيق المساواة الاجتماعية دون المساواة المادية ، ولذا كان من الضروري قطع دابر الفقر ، وخير وسيلة لذلك في نظره هي اشتراكية المال، وقد قبل اتباع حمدان تدابيره بكل حماس ، ولاسيما وانه جعل ما يعطي للفرد يتناسب وحاجاته ، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع، لذا فلا غرابة في ان اعتقد نظام الملك ان الحركة القرمطية هي استمرار لحركة مزدك الاشتراكية التي ظهرت في العصر

[١] De sacy ,expose، نقلا عن الدكتور عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، م س ، ص ٨٤

الساساني والتي كان اساسها "توزيع المال حسب الحاجة"[1] ويعتبر الدكتور الدوري ان ما سنه حمدان من رؤية اشتراكية استمرت بعد مقتله حتى تم القضاء عليهم نهائيا حيث عاشت الاراء الاشتراكية في البحرين .

ان نظام الالفة كان احد دعائم النظام الاقتصادي للحركة بدليل استمراره طيلة الفترة التي استطاعت فيها الحركة من بناء تنظيمها السياسي ، وهذا ما نراه بوضوح في الجمهورية القرمطية في البحرين وكذلك في سواد الكوفة وكلواذي ،لذا يمكن القول ان نظام الالفة غاية من غايات الحركة القرمطية و وسيلة استفاد منها القرامطة في تنظيم اتباعهم وحثهم على العمل داخل الحركة . ويعتقد (لويس ماسينيون) ان القرامطة حاولوا من خلال نظام الالفة جمع طبقة العمال في العالم الاسلامي حول رايتهم، ولذلك هو ينسب اليهم مسئولية نشأة النقابات الاسلامية ، ويرى انه اصبح لهذه النقابات خاصيتين، اولاهما انها نقابات للحرف وثانيهما انها مؤسسات قرمطية[2] وقد ايد برنارد لويس ما ذهب اليه لويس ماسينيون ، حيث اعتبر ان تكتل الحرفيين حدث منذ القرن الثاني للهجرة ،اي قبل ظهور القرامطة ، وكان ذلك بسبب سوء حالهم الاقتصادي وانحطاطهم الاجتماعي وقد كان للقرامطة فضل تحويل تكتلات الحرفيين الى تنظيمات نقابية والعمل على اذكاء روح التمرد فيهم ضد مستغليهم من الملاك الزراعيين والارستقراطيين العسكريين والتجار.

لقد عززت الخلافة الاسلامية اموية كانت ام عباسية ام راشدية ملكية الاراضي وفرض الضرائب على الامم المغلوبة تحت عنوان الجزية وغيرها

[1] ـ الدوري، م س ، ص٨٥
[2] ـ عليان، م س ، ص ٢٠٤

وسقوط الخلافة الاموية وقيام العباسية لم يغير شيئا في حالة الامم المغلوبة بسبب ان سياسة العباسيين الداخلية وبالاخص ما كان له علاقة بالمال والاراضي والاقتصاد لم تكن لتختلف كثيرا عن سياسة الامويين (فالاستياء كان كبيرا في صفوف الفلاحين والعمال وكانت اولى الثورات التي قامت بها الامم المغلوبة تجاه العباسيين ثورة بابك الخرمي حيث اشترك فيها عدد كبير من الكورد والارمن والروم والفرس وهي ثورة اشتراكية واستمرت ثورته نحو اثنين وعشرين سنة).

ويذهب د محمود اسماعيل "ان الحركة تصدت للنزعات العنصرية التي أذكاها بنو العباس حين فتحوا الباب على مصراعيه للصراع بين العناصر والعصبيات فألبوا الفرس على العرب وكبحوا جماح الفرس وغلّبوا الترك فيما بعد واستخدم الطبري وابن الجوزي تعابير كمثل جفاة العرب وجفاة الأعاجم ووصف الطبقات المشاركة بالثورة بأنهم عوام وجفاة وأسافل امر لا يخلو من مغزى اجتماعي وله دلالته على ان الطبقات المستضعفة من كافة العناصر رحبت بالدعوة القرمطية " [1]

وقد اكد الباحث عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي ان حركة القرامطة وثوراتهم ودولتهم تتبع نظاما اقتصاديا حاذقا يمتلك اسسا اشتراكية واضحة ، وقد طبق القرامطة في العراق "اشتراكية تامة يعطى فيها لكل فرد حسب حاجته بينما يكون مركزه الاجتماعي مناسبا مع خدماته" [2].

[1] - محمود اسماعيل ، مصدر سابق.

[2] - دراسات في العصور العباسية المتاخرة، الدوري عبد العزيز، نقلا عن الراوي ،عبد اللطيف، م س، ص ٣٤

٩.تأثيرات (هجر) في العدالة على الاقاليم الاخرى - البصرة أنموذجا :

(هجر) هي الاحساء حاليا ، وكانت عاصمة الدولة التي اقامها ابي سعيد الجنابي"الحسن بن بهرام" ويشير بعض الكتّاب الى ان لها تأثيرات على من حولها من الاقاليم يقول الراوي" يبدو لي ان جرأة ابن لنكك وبعض شعراء البصرة وشجاعتهم في مجابهة السلطة بحقيقتها وحقيقة المجتمع الذي تسيره يرجع الى قرب البصرة من هجر "مركز القرامطة" واول بلد في التاريخ يضع الاشتراكية موضع التطبيق" [1] فابن لنكك لا يخاف من السلطة في بغداد ولا من ممثليها في البصرة لان العدالة الاجتماعية في هجر على مرمى فراسخ منه فيستطيع البصري ان يكون لاجئا لدى (هجر) اذا ما ضويق.

وهنالك شاعر بصري اخر وهو (الخبز أرزي) فبعد ان هجا البريدي "هرب من البصرة ولحق بهجر والاحساء بابي طاهر بن سليمان بن الحسن ومما يؤكد لنا هذه العدالة التي تنعم بها (هجر) ما سجله له المؤرخون القدماء للقرامطة من ذهنية عالية واسعة افق حربي واجتماعي يظهر في مروءة قادتهم وعدم استئثارهم بالسلطة وبالرأي في هجر .

يقول احد زعمائهم وهو الحسن بن احمد بن سعيد الجنابي ت ٣٦٦هـ وبوفاته افل نجم القرامطة على راي ديكويا

اني امرؤ ليس من شأني ولا أربي   طبل يرن ولا ناي ولاعود
ولا اعتكاف على خمر ومجمرة   وذات دل لها غنج وتفنيد
ولا ابيت بطين البطن من شبع   ولي رفيق خميص البطن مجهود

---

[1] ـ عبد اللطيف الراوي، م س ، ص ٢٤٨

ولا تسامت بي الدنيا الى طمع   يوما ولاغرني فيها المواعيد [1]

ويتضح من شعره القيم الاجتماعية العالية التي نشأ عليها هذا الزعيم القرمطي ،فجعلته بهذا التسامي الاخلاقي ، وبهذه الروح الشاعرة بمسؤوليتها تجاه الرعايا. وهنا يذكر (عبد اللطيف الراوي) ابياتا لابي سعيد القرمطي في كتاب وجهه الى مؤنس اواخر سنة ٣١٥هـ او اوائل سنة ٣١٦هـ عند ورود ابي سعيد الكوفة وانتصاره على ابي الساج .. يقول ابي سعيد"

قولوا لمؤنسكم بالراح كن أنا   واستتبع الراح سر نايا ومزمارا

وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي   بيتا من الشعر للماضين قد سارا

نزوركم لا نؤاخذكم بجفوتكم   ان الكريم اذا لم يستزر زارا

ولا نكون كأنتم في تخلفكم   من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

وانظر الى الاختلاف الشديد بين من كتب عن القرامطة والذي سقنا بعضه في كتابنا ، فالابيات نفسها التي يرويها عبد اللطيف الراوي عن لسان ابي سعيد يرويها بندلي جوزي عن لسان ابي طاهر وليس لدخوله الكوفة بل في دخوله البصرة [2] والصحيح ما ذهب اليه بندلي جوزي من ان الغزو قام به ابي طاهر كون ابي سعيد قد توفي قبل سنة ٣١١ هـ وكان سليمان الجنابي هو صاحب الحكم فالراوي قد اخطأ بنسبة هذه الابيات لابي سعيد . الذي توفي سنة ٣٠١هـ [3] ويهمني تعليق كبير يقوله عبد اللطيف الراوي عن البصرة وشجاعة اهلها في نقد السلطة العباسية

[1] - عبد اللطيف الراوي ،م س ، ص ٢٤٩

[2] - بندلي جوزي ، ص ١٨١

[3] - الويكي تشير الى ان وفاته كانت سنة ٣٠١هـ

لا تعني اشعار ابن لنكك او هزيمة الخبز أرزي الى البحرين او وقوف احد رجال البصرة امام ولاتها مدافعا عن ابناء مدينته، ان اهل البصرة يعتمدون كليا في شجاعتهم على قربهم من دولة القرامطة ،فقد كان للامركزية التي تتمتع بها البصرة لضعف هيمنة السلطة في بغداد على اطراف الدولة تأثير بالغ في تنمية شجاعة هذه المدينة .

رأي حول من اسس للعدالة الاجتماعية :

هنالك عدة اراء وجدناها تعضد قيام القرامطة بفكرة العدالة منها ان الحسين الاهوازي ارسل رسالة الى(الامام عبد الله بن ميمون القداح) فيها جملة مطالب وهي :

١- تطبيق نظام الالفة والمشاركة في كافة المناطق .

٢- نشر الدعوة علنا في مناطق البحرين والسواد.

٣- يأمل الاهوازي بمساعدات مالية كبيرة كي يتمكن من مساعدة العمال والمزارعين. [1]

فهذه اشارات تمهد قيام مبدأ العدالة الاجتماعية في المجتمع القرمطي. هذه الرسالة كانت بتاريخ ٢١٠هـ

ان تأسيس النظام الاجتماعي الخاص بالحركة ايده الكثير من الباحثين حولهم على قلتهم ومنهم عليان الذي كان بالضد من الحركة حيث يذكر في كتابه قرامطة العراق "لعل اهم ما يلفت النظر في تأريخ القرامطة هو ذلك النظام الاجتماعي الفريد الذي اقاموه في العراق" فهي شهادة من مؤرخ تقليدي ومحافظ، ويكمل" وعاشوا في ظله متساوين متالفين، تنازل كل منهم عما يملك

[1] ـ مصطفى غالب، م س، ص ١٦١

للجماعة، فجمعت الاموال في موضع واحد ، الكل شركاء فيها، واصبح اخلاص الفرد في العمل وما يقدمه من خدمات للجماعة ، هو الذي يحدد مركزه بين افرادها، واختفت الفوارق داخل هذا المجتمع، خاصة وان القرامطة كانوا يتعهدون بالانفاق على جميع الافراد بلا تفرقة او تمييز" [1] وهذا نظام فريد لم يوجد حتى في الاسلام ، ومتقدم ، حض الناس على اتباع المذهب ما وجدوه من عدالة . ويعلل (الباحث عليان) تنازل القرامطة عن املاكهم للجماعة بالتعليل التالي حيث يعتقد القرامطة انهم المؤمنون الصالحون الذين سيرثون الارض وما عليها بعد ان يتم القضاء على مخالفيهم ، ولذلك رضوا بالتنازل عن ممتلكاتهم لصالح الجماعة ، وكان الحسين الاهوازي قد منى اتباعه بأنه سيعمل على اسعادهم وتمليكهم املاك اصحابهم منذ اللحظة الاولى التي وطئت قدماه ارض السواد، ثم جاء حمدان فأقنعهم بانه لا حاجة الى اموال تكون معهم ،لان الارض باسرها ستكون لهم دون غيرهم [2]

بمعنى انه سيحولهم الى المتحكمين في الارض بدلا من الدولة او المنتجين المباشرين انفسهم الفلاحون وليس الطبقة البيروقراطية الحاكمة .

ولكننا نختلف مع تعليلات (عليان) حول تنازل القرامطة عن املاكهم لصالح المجموع على الرغم من كونها تحمل شيئا من الواقعية ، الا ان ارتباطهم بقادتهم وتقديسهم لهم بداية الدعوة جعلا القرامطة يتنازلون عن اموالهم عقائديا ،،وفق المبدأ الاشتراكي الذي اختطوه لانفسهم . كما تمكن يحيى بن زكرويه من تأليب الفقراء على الاغنياء ، والعبيد على اسيادهم في بادية

---

[1] عليان، قرامطة العراق، ص٢٠٠

[2] ـ عليان ، م س ، ص ٢٠٠

السماوة ، واحدث يحيى بعمله هذا اضطرابا في الحياة الاجتماعية كاد يعصف ببادية السماوة وبلاد الشام ذاتها.

١٠.الاقتصاد في جمهورية البحرين القرمطية :

قلنا ان المبدا الاشتراكي الجنيني الذي زرعه حمدان بن الاشعث في مريديه كان هو المطبق ، لان ابا سعيد كان احد تلامذة حمدان وكانت جمهورية مستقلة لا تتبع احدا في سياستها بما فيه الخلافة الفاطمية ، حيث كان نظام الحكم الاقتصادي فيها يختلف عن النظام الاقتصادي للدولة الفاطمية والمؤرخ بندلي صليبه الجوزي يذكر " واصبح امرها -يقصد الدولة القرمطية في البحرين- اليها تسير في حياتها الداخلية والخارجية على نظام جديد سنته هي لنفسها لا يعارضها في تطبيقه معارض " [١] فهذا يدلل انها كانت دولة لا تأتمر بأمر الفاطميين ابدا.

ومن موارد اقتصادها بعد ان جعل المال مشاعيا انها الغت الضرائب التي على الاراضي الزراعية والغت الرسوم التي كان يئن تحتها الزارع والعامل ، وابتكرت ضرائب جديدة منها ضريبة على المراكب التي كانت تعبر في خليج العجم "العربي" ثم ضريبة على مقاطعة عمان وعلى الحجاج الذين كانوا يامون الحرمين وضريبة على صيادي اللؤلؤ في مياه البحرين وخليج العجم[٢]

كما كانت الدولة القرمطية في بدايتها تاخذ الضرائب من المدن التي تحتلها مثل الكوفة اكثر من مرة وبعض مدن وقصبات وقرى العراق ويقدرها

---

[١] - بندلي جوزي، ص ١٩٥

[٢] - جوزي ، ص ١٩٦

بندلي جوزي ب مليون ومائتي الف دينار سنويا ونحن نعتقد ان القرامطة يصرفوه في امور اخرى لم يطلع عليها احد ويعبر عنها القرامطة بانها تذهب لصندوق الامام وليس للدولة الفاطمية ابدا ، وقسم ينفق على دار الهجرة ، وقسم تنفقه الحكومة على الاشغال والمنافع العمومية اي :على تحسين احوال المزارعين والعمال . كذلك كان القرامطة ياخذون ضريبة لقاء السماح للحجيج بالمرور الى مكة ورسما فرديا هو الخفارة يدفعه كل حاج وتفاصيل الخفارة كما اوردها ديكويا هي : "على كل عمارية كبيرة مركبة ان تدفع ثلاثة دنانير وعلى كل عمارية صغيرة دينارين، وعلى كل جمل يحمل متاعا دينارا واحدا "[1]

اما ملكية الاراضي فكانت مشاعة في البحرين والحكومة هناك لم تتعرض لنزع الاراضي من ايدي اصحابها لان اكثرها كان مشاعا بين المزارعين كما هو الحال عند البدو على الاطلاق والحكومة القرمطية كانت تشتري اراضي ايضا لتوزعها بين الفلاحين الذين لم تكن لهم اراضي يعتملونها بايديهم .

وايضا من جملة ما ذكره ناصر خسرو في سفرنامة" انه راى في الاحسا ثلاثين الفا من السودان يشتغلون في الحقول والبساتين على حساب العقدانية وهي الحقول التي اشترتها بمال الامة ، وان الشعب هناك لم يكن يؤدي لحكومته ضرائب ولا اعشارا ، وانه اذا كان يصيب احدهم فقرا او كان يقع تحت دين لا سبيل الى وفائه كانت العقدانية تسلفه ما يحتاج اليه من الدراهم الى ان يصلح حاله، وكان اذا استدان من احد دراهم لا يدفع له عند حلول

[1] - ديكويا ، م س ، ص ١١١

الاجل الا ما استدانه فقط اي بلا ربا" [1] هذه نماذج من الرؤية الاشتراكية الجنينية التي تعاملوا بها مع رعيتهم ، وقد يكون النظام الداخلي للحركة القرمطية قد طرا عليه التغيير في الحكم ايام ناصر خسرو ولكن بقيت رؤيتهم كما هي ولم يبق في البلاد فقير.

قام حمدان قرمط بوضع نظام مالية جماعته بين يديه ويقوم بتوزيعها عليهم بحيث لا يأخذ احدهم الا ما يعينه له، اصلح الزراعة واحدث الانشاءات وانفق على الرعايا واصلح المزارع ونصب الامناء على الحقول وأقام العرفاء، حتى ان الشاة كانت تذبح ويسلم اللحم الى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ولايترك شيء من الذبيحة الا وتمت الاستفادة منه غاية الاستفادة . [2] يعني حتى الدم يتم الاستفادة منه وهذا خلاف الطريقة الاسلامية ويدلل على ان القرامطة كانوا يختلفون مع الكثير من مبادئ الاسلام.

التجارة الخارجية كانت بيد الدولة وارباحها كانت تنفق على الاعمال العمومية وتحسين اعمال المزارعين والعمالة، وبسبب هذا النظام الاقتصادي عالي الدقة الذي قضى على الفقر واشاع العدالة الاجتماعية ، لم يوجد في دولة القرامطة معارضة داخلية او حركة لاسقاط حكومتهم، سوى الاختلافات التي اشرنا اليها بين اقطاب الحركة، كذلك استخدموا نقودا خاصة بهم سكت من الرصاص وهو معدن زهيد جدا وكان الغرض ان تبقى هذه النقود متداولة في البحرين فقط والبلاد المتاخمة لها ، ولا تهرب العملة الى خارج البلاد فيضعف الاقتصاد.

---

[1] ـ جوزي، م س ، ص ١٩٨

[2] ـ عارف تامر، ص٩١

وفي وصف ناصر خسرو لاوضاعهم الاقتصادية نجد انه "في الحسا تباع لحوم الحيوانات كلها ، من قطط وكلاب وحمير وبقر وخراف وغيرها ، وتوضع راس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري ، وهم يسمنون الكلاب هناك كما تعلف الخراف، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ، ثم يذبحونها ويبيعون لحمها"

ويصف الطبيعة الجغرافية لمدينة الحسا حيث يبعد البحر مسيرة سبعة فراسخ الى ناحية الشرق منها ، فاذا اجتازه المسافر وجد البحرين .. وهنا يقف ناصر عند البحرين واصفا لها" وهي جزيرة طولها خمسة عشرة فرسخا ، والبحرين مدينة كبيرة ايضا، بها نخل كثير ، ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ ، ولسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه " ويستكمل جغرافية الحسا حيث جنوبها تقع عمان ." وحين يسير المسافر من الحسا الى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف وهي مدينة كبيرة بها نخل كثير "

اما وصفه لمزارع الحسا فهو " فيها تمر كثير حتى انهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه اكثر من الف من بدينار واحد" وهذا دلالة ان ابا سعيد عندما اختار هجر " الحسا" عاصمة له ما كان ذلك الا لانه يعرف خيرها الوفير.

١١.التنظيمات المالية للقرامطة :

كان لهذه التنظيمات الاثر الكبير في نشر دعوتهم ،ففرض الحسين الاهوازي دينارا على كل مستجيب لدعوته، وكان يزعم للمستجيبين انه يجبي منهم هذه الاموال للامام المستور "الطبري"

الذي سيظهر حين تسنح الفرصة فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا ، وذهب حمدان قرمط في مطالبته اتباعه بأي مبلغ من المال حتى صار متصرفا في جميع ما يمتلكونه ، وكانوا يستجيبون له عن رضى واختيار، وكانت تلك الاستجابة دليلا على حسن ولاء الاتباع ومدى استعدادهم للتضحية ، هذا فضلا عن ان حمدان قرمط ودعاته قد استغلوا هذه الاموال ووجهوها الى مصلحة الدعوة .

وتمكن القرامطة من اغراء الفقراء بالانضمام اليهم ذلك بما كانوا يقدمونه اليهم من مساعدات [1] اذن يتضح ان طبيعة الحركة واهدافها كانت تجسد مطامع الفقراء من مختلف القوميات لذا نرى انضمامهم الى هذه الحركة لم يكن بدوافع الترغيب والاغراء كما يذهب الى ذلك العليان وغيره من الباحثين. كما تمكن القرامطة بفعل هذه الاموال من اقامة قلعتهم الحصينة بالقرب من الكوفة سنة ٢٧٧هـ اي قبل انطلاق ثورة قرمط بسنة حيث عرفت قريتهم بمهاباذ ونقلوا اليها صخرا عظيما ، وبنوا حولها سورا عرضه ثمانية اذرع ، وجعلوا من ورائه خندقا وسميت ب"ملجأ الفرار" .

وكان لحمل القرامطة السلاح ، واجتماعهم في دار هجرة واحدة ، اثر بالغ في ادخال الفزع والرعب في قلوب من جاورهم من المسلمين ، حتى ان كثيرا ممن اعتنقوا مذهبهم كانوا مدفوعين بعامل الخوف[2] وهذا كلام متحامل على الحركة وكأن السلاح لم يكن ظاهرا حينذاك ولم تسفك الدماء على ايدي العباسيين .

---

[1] ـ النويري، نهاية الارب، ج٢٣، ص٥٨

[2] ـ العليان، م س ، ص ٦٦

ويشير الدكتور محمود اسماعيل ان الظروف الموضوعية في العراق تهيأت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري لتقبل الدعوة القرمطية نتيجة الفوضى السياسية واحتدام التناقضات الاجتماعية فقد ازداد الأغنياء ثراء والفقراء فاقة وكان هنالك وعي طبقي حدث نتيجة الازدهار الفكري في هذا العصر.

١٢.النظام الضريبي القرمطي:

وقد لجا حمدان قرمط الى تأويل معاني الايات القرانية الظاهرة الى معان اخرى قال عنها انها خفية وهنا يعلق على هذا الموضوع متحاملا العليان " كي يوهم اتباعه بصحة ما يقوله عن جباية الضرائب التي فرضها عليهم ، ومن ذلك مثلا ما فعله مع اتباعه عندما فرض عليهم ضريبة الفطرة "وهي درهم على كل انسان ، وقال لهم انها فطرة الله التي فطر الناس عليها" ، وحمدان عندما يؤول القران بهذه الطريقة انما يجد افكارا اشتراكية كي يستطيع من خلالها تطبيق فكره ضمن وعاء ديني ويحقق مبدا الاشتراكية .. كذلك طلب منهم ضريبة اخرى سماها "البلغة" واشار عليهم بقوله "قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين"وقال ان هذه ضريبة البرهان الذي يطلبه الله من عباده. ويوضح المقريزي الوسائل التي لجأ اليها حمدان في جمع هذه الضريبة " وصنع لهم حمدان طعاما حلوا لذيذا ، وجعله على قدر البندقة واخذ يطعم كل من ادى اليه سبعة دنانير واحدة ، وزعم انها طعام اهل الجنة ، نزل الى الامام، فكان يرسل الى كل داع منها مائة بلغة ، ثم يطالبه بسبعمائة دينار لكل واحدة منها سبعة دنانير " وقد استمر حمدان في طلب الاموال من اتباعه مستندا في ذلك الى تأويل بعض ايات القران ، وبعد الفطرة فرض عليهم ضريبة"الهجرة"

كانت تفرض فقط على البالغين والبالغات من القرامطة واخذ يؤول بعض ايات القران كي ياخذ هذه الضريبة منهم ،فعرفهم انها المقصودة من القران" خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم" لذلك بادروا بدفعها اليه، وتسمية حمدان لهذه الضريبة بالهجرة لابد ان تكون لها دلالة معينة ويحتمل ان تكون قد خصصت للانفاق منها على الفقراء الذين كانوا يهاجرون اليه، فتكون بذلك وسيلة من وسائل نشر الدعوة .

١٣.العدالة الاجتماعية لدى حمدان وزكرويه :

ان حمدان اول ما بدأ بتنفيذ الاوامر العليا بين اتباعه "تطبيق تعاليم الحركة على قيادتها ابتداء" [١] وهو بذلك يؤسس للعدالة التي انتهجها كمبدأ حيث وضع مالية جماعية بين يديه ووزعها توزيعا عادلا تاما على جميع الافراد دون استثناء ، فكون جماعة ليس بينهم فقير واستطاع بفضل هذه السياسة التي تحمل ملمحا اشتراكيا وليس اشتراكية خالصة كما يقول عنها عارف تامر ان يعد العدة لنضال عنيف مع العباسيين فاشترى السلاح وبنى دارا للهجرة "واقام من الدعاة في كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يجمع عنده اموال قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، والمرأة كان لها دور في الحركة حيث جمعت كسبها من المغزل والصبي اجرة نظارته للبساتين وللاغلال ولكن احد منهم يملك الا سيفه وسلاحه"[٢]

---

[١] - عارف تامر، مصدر سابق، ص ٨٨
[٢] - عارف تامر ، ص ٨٨

١٤.العدالة الاجتماعية لدى مهرويه ابو زكرويه:

"وكان منهم (اي القرامطة) مهرويه، احد الدعاة في مبدأ امره ينظر النخل ، ويأخذ اجرته تمرا ،فيفرغ منه النوى ويتصدق به، ويبيع النوى، ويتقوب به، فعظم في اعين الناس قدره، وصارت له مرتبة في الثقة والدين" [١]

١٥.القرامطة وكومونة باريس :

بعد انتفاضة العمال والمهمشين المسلحة في باريس عام ١٨٧١ أُقترن تعبير الكومونة بثورة العمال في باريس وأصبحت التسمية كومونة باريس. في ١٨آذار/مارس ١٨٧١ استولت اللجان الثورية للكومونة على السلطة وحلت محل بلدية باريس في الثورة الفرنسية ثم شُكِلت حكومة باريس الاشتراكية مُسقِطة بذلك الحكومة البورجوازية.

تعد كومونة باريس التي لم تعمر أكثر من ٧٠ يوماً (من ١٨ آذار/مارس حتى ٢٧ أيار/مايو ١٨٧١) ظاهرة فريدة في التاريخ فهي استمرار للحركات العمالية في أوربا كان العمال في باريس يتهيؤون للانقلاب على الحكومة البورجوازية ، وكانت اللجنة الثورية للكومونة على صلة بكارل ماركس الذي نصح بعدم التورط بعمل مسلح في باريس بسبب عدم نضوج الظروف الاقتصادية والسياسية لنجاح ثورة بروليتارية. ولكنه ما إن حدثت الانتفاضة حتى أيّدها ودعاإلى حمايتها.

كانت كومونة باريس ثورة بكل معنى الكلمة ثورة قادتها الفئات المظلومة في فرنسا، اذ لم تجد وسيلة غير الانتفاضة المسلحة لإسقاط الحكومة

---

[١] ـ العليان، م س ، ص ٣٩

البورجوازية ونقل السلطة المباشرة إلى الشعب، وقد سلَّحت الكومونة الشعب ليحل محل الجيش والشرطة،واستبدلت بالموظفين سلطة الشعب أو جعلتهم يعملون تحت إمرة مفوضي الشعب. وبالتالي اشترك الجميع في كومونة باريس من نساء ورجال وصبية وكانوا عبارة عن سلطة شعبية حلت محل الطبقة البرجوازية وحاربت في سبيل احلال الكومونة محل السلطة البرجوازية ، وهذا شيء استطيع ان اقارنه بملامح من الثورة القرمطية التي سبقت الكومونة ب١١٠٠ سنة.

لقد برهنت الكومونة على "ان الطبقة العاملة لا يمكنها ان تكتفي بمجرد الاستيلاء على جهاز الدولة القائم وتسييره لتحقيق اهدافها الخاصة" والجميع يتقاضون اجرة تساوي اجرة عامل، وشرعت الكمونة بتحطيم اداة القمع الروحي :سلطة الكهنة " وبسبب الكمونة اصبحت السلطة بيد المنتجين انفسهم ،بالتالي ان الشعب المنظم في الكومونات يعرف كيف يسير مؤسساته والمؤسسات تماما كالافراد تعرف في ممارساتها كيف تضع الشخص المناسب في المكان المناسب ويضيف ماركس :ان وحدة الامة لم تكن ستنفصم عراها بل بالعكس كانت ستنظم بالدستور الكموني ، ان وحدة الامة كانت ستصبح حقيقية بتحطيم سلطة الدولة التي كانت تزعم انها تجسيد لهذه الوحدة في حين هي مستعلية على الامة "[١]

• القرامطة سبقو الكمونة بتحطيمهم سلطة الدولة العباسية وتكوينهم كمونات في الارياف العراقية في سواد العراق يشرف على كل قرية داعي

[١] ـ ماركس، الحرب الاهلية في فرنسا، نقلا عن ، البيان الشيوعي، ماركس –انجلز، ترجمة: العفيف الاخضر، منشورات الجمل، ط٢، بغداد، ٢٠١٥، ص ٢٦

وهذا الداعي مرتبط بمقر الحركة في كلواذا وانهوا سلطة رجال الدين ومفهوم الامامة واصبحت السلطة بيد الفلاحين انفسهم اي : المنتجين .

لم يناضل التجار العرب ضد السلطة البيروقراطية الحاكمة في سبيل اعفائهم من الضرائب على غرار ما فعلت الكومونات الغربية حيث كان التاجر متداخلا مع السلطان ومحابيا له وتابعا له ولم يك معارضا لثقل الضرائب عليه مما اضعف الحركات الثورية كالقرامطة لانها فقدت دعم التجار لها لان التاجر" كان تاجر السلطان يحابيه اقتصاديا ويقمعه الخليفة سياسيا "[1]متى ما يريد ، وبالنتيجة فقدت الحركة القرمطية دعم التجار لها بسبب مداهنتهم للسلطان عكس ما حصل في اوربا الغربية حيث ناضلت كل الطبقات ضمن الكومونة للتخلص من الضرائب .

١٦.الثورة تأكل ابناءها:

وشبيه ما حصل في الكومونة من اعدام قياداتها في باريس وارتكاب ابشع الجرائم بحق العمال الفرنسيين من قبل جيش فاراساي المدعوم من قبل المانيا ، ارتكبت جرائم مماثلة بحق قيادات الثورة القرمطية وعلى راسهم حمدان وعبدان وفي بداياتها ايضا ،مع الاختلاف بان من قتل حمدان وعبدان هم ابناء الثورة نفسها ، كذلك واجه الكومونيين جيش فاراساي بعد جرائمه بقتل ٦٤ رهينة كي يوقفوا الدماء التي ارتكبها البرجوازيين ، وهنا صاحت قواتهم انظروا الى العمال الوحشيين ما اقترفوه بحق الرهائن ، متناسين المذابح الكبير التي ارتكبها جيشهم عند دخوله باريس بتاريخ ٢١/ مايو/ ١٨٧١ م ، كما تشير

[1] - م س ، ص ٣٢٠.

التواريخ ، وهنا شبيه ما حصل مع القرامطة حيث ينادي مؤرخو السلطة بان القرامطة ارتكبوا ابشع الجرائم ، متناسين ما فعله العباسيون من جرائم كبيرة يندى لها جبين الانسانية ، بكل من ثبت انه قرمطي . او على مذهبهم.

الفصل الحادي عشر

العلاقة مع اخوان الصفا

١-اشارات تاريخية عن علاقتهم بالقرامطة ..

ان اهل الحرف تناولهم اخوان الصفا نظريا ودافعوا عن وجودهم وعن اهمية الحرف والصناعات واهل المهن ، فهل كان اخوان الصفا قرامطة كي يهتموا باهل الحرف خصوصا اذا عرفنا ان القرامطة اول ما استهدفوا في ثورتهم اهل الحرف ، واهل الحرف او النقابات تناولنا رؤية القرامطة حولهم ضمن هذا البحث.

واشير هنا الى مسألة مهمة جدا الا وهي وجود بعض الاشارات التاريخية التي نستفيد منها ان اخوان الصفا كانوا قرامطة ولكنهم ابتعدوا عن النهج العنفي واستخدموا بدلا عنه النهج الفكري المعرفي اللاعنفي عبر رسائلهم التي كتبوها والتي تناهز الخمسين رسالة ، وهي تبحث في مناهج فكرية وفلسفية عظيمة وعميقة وهم كانوا كجمعية سرية في البصرة ولكن القرامطة لم يستطيعوا التغلغل فيها سوى عبر جمعيتهم هذه ولا ننس ان بداية الحركة القرمطية كانت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، بالتالي فان الجيل الثاني من القرامطة ، يكون قد ظهر في النصف الاول من القرن الرابع، وربما يكون تنكيل العباسيين بالجيل الاول من القرامطة ، قد حدا بالبعض من الجيل الثاني الى تاليف جماعة سرية في البصرة الا وهي جماعة اخوان الصفا ، بعيدا عن سواد الكوفة ، ثم اصبح لها فروع في كثير من البلدان، ومنها في بغداد وكانت تتألف من اربع طبقات متفاوتة ولم يسموا انفسهم قرامطة كي يبعدوا الشبهة عنهم ، كما لا ننس ان القرامطة هو اسم اطلقه اعداءهم عليهم وحاول اخوان الصفاء عن طريق العلم تحقيق ما عجز عن تحقيقه القرامطة بواسطة

السيف "يعني بعبارة اخرى :العلم بدل السيف" وسنركز في مبحثنا هذا على رسائلهم المتضمنة احترام العمل والمهن واصحابها وهي تقع ضمن الدعوة القرمطية .....وتركيزنا هنا كي نؤكد ان اخوان الصفا كانوا جزءا لا يتجزا من الدعوة القرمطية لانهم امتازوا بنفس صفاتها من ناحية سريتها بالبداية ومن ناحية ارائها الباطنية الغنوصية وكذلك تناولهم لاهل المهن والصناعات وهذا اهم ما في الموضوع ، لان القرامطة هم اول من استهدف النقابات واهتم باهل الحرف والصناعات ومن هنا جاء تركيز اخوان الصفا عليهم وكما يلي :

حيث تحدث الاخوان في احدى رسائلهم وهي الرسالة رقم ٨ عن الصنائع العملية واهتموا باقل الصناعات رتبة وتم ذكرها من قبلهم "ان الاداة ما كانت خارجة من ذات الصانع كفأس النجار، ومطرقة الحداد، وابرة الخياط، وقلم الكاتب ، وشفرة الاسكاف، وموس المزين" ومن ثم يأتي الاخوان ليبينوا رايهم الواضح في تفاصيل يقوم بها الصناع ومنها: "النجار بالفأس ينحت ، وحركته من فوق الى اسفل، وبالمنشار ينشر وحركته من قدام الى خلف ، وبالمثقب يثقب وحركته قوسية يمنة ويسرة، وحركة مثقبة دورية ، وعلى هذا القياس يوجد في كل صنعة لصانعها سبع حركات " وتركيزهم على الرقم سبعة دلالة قرمطتهم لان القرامطة لديهم ان الائمة سبعة ينتهون بمحمد بن اسماعيل وهكذا المراتب وغيرها ، ثم ياتون ليقسموا الصناع الى نقابات كل صناعة لها نقابة ،" فمن الصنائع ماهي الموضوع فيها الماء حسب ، كصناعة الملاحين والسقائين والروائين والشرابين والسباحين ومن شاكلهم" فهذه نابة خاصة بالصناعات المائية والعمل الذي يخل فيه الماء، " ومنها ما هي الموضوع فيه التراب حسب كصناعة حفار الابار والانهار والقني والقبور

والمعادن وكل من ينقل التراب ويقلع الحجارة " وهكذا يتحدثون عن بقية الصناعات ويقسموها حسب اغراضها النار" النفاطين ، الوقادين والمشعلين " الهواء" الزمارين والبواقين والنفاخين" "الماء والتراب" الفخارين مثلا ،وكذلك الحدادين والصفارين والرصاصين والزجاجيين والصواغين ومن شاكلهم والنجارين والخواصين والبوارين والحصريين وهكذا هم يضعون نقابات خاصة بالصناعيين كالقصابين والشوائين والطباخين والدباغين والاساكفة ويتبين انهم اي اخوان الصفا كانوا قرامطة من خلال نصوصهم حيث يتبين لنا انهم اهتموا بالصناع وهذا دأب القرامطة في هذا المجال ، وكذلك نجد اهتمام القرامطة بالصناعات التي تعتمد على :الماء والتراب والهواء والنار ، والمعروف ان المجاميع الغنوصية الباطنية ومنهم القرامطة كانت تعتقد ان الاصول التي يتكون منها العالم هي هذه التكوينات الاربعة ، وبالتالي استطاع القرامطة ان يبرهنوا على هذا الموضوع من خلال كتاباتهم في هذا المجال.

وفي رسالتهم حول الصناعة يهتم الاخوان بالتقسيمات الصناعية وبالتفصيل " ولما كان اللباس لا يتم الا بالحياكة حسب، صارت الخياطة والقصارة والرفة والطرز متممة لها ومكملة ، وايضا لما خلق الانسان محتاجا الى القوت والغذاء ، والقوت والغذاء لا يكونان الا من حب النبات وثمر الشجر ، دعت الضرورة الى صناعة الحراثة والغرس" وهذا يشير الى اهتمامهم بالفلاحين حيث اتجهوا في بداية دعوتهم الى الفلاحين وكان جل انصارهم منهم كما بينا .

وهكذا يتبين ان اخوان الصفا ، كان ارتباطهم باهل الصناعات ارتباطا كبيرا . وقد اتخذوا من اجواء البصرة مكانة لهم وبيئة جيدة للتخفي .

من كتب الرسائل واين ومتى ؟

وليس صحيحا ما يقوله الداعي الاسماعيلي ادريس في زهر المعاني من ان هذه الرسائل من وضع الامام احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، حتى ان عارف تامر ذهب الى ان الرسائل من وضع الامام عبد الله بن محمد في سلمية ، ودليله في ذلك نقلا عن كتاب فصول واخبار لاحد الدعاة الاسماعيليين انه " لما علم عبد الله بن محمد بما الت اليه الشريعة في عهد العباسيين من الانحطاط والضعف شرع بتاليف الرسائل لتاييد الشريعة والحقيقة معا وقد امر حدوده الاربعة الحرم وكان مقرهم في سلمية ان يكتبوها " [1] وكذلك ان ما فعله المامون العباسي في رأيه من ادخال الفلسفة اليونانية هو السبب فكان دفاعهم عن الشريعة هو الاهم . ويستدل بنص اورده الداعي الاسماعيلي شرف الدين جعفر بن محمد " حتى اظهر ولي الله وابن رسوله احمد بن عبد الله رسائل اخوان الصفاء ، وفيها ما تحير فيه جميع العالم من العلوم في كل فن " ومؤلفي الرسائل بامر الامام كما يذكرهم عارف تامر هم الدعاة الاربعة " عبد الله بن حمدان، عبد الله بن سعيد، عبد الله بن ميمون وعبد الله المبارك.

والملاحظ لما ورد في اعلاه يجد التضارب فيمن الف الرسائل فالداعي ادريس ينسبها الى الامام احمد بن عبد الله في سلمية وعارف تامر ينسبها الى الامام عبد الله بن محمد كما ورد في اعلاه واخيرا ينقل تامر ان الدعاة الاربعة هم الذين الفوها ...هذا الاضطراب يجعلنا لا نتفق تماما ان مؤلفي الرسائل

[1] ـ عارف تامر، حقيقة اخوان الصفا.

ائمة الاسماعيلية ، والدافع من تاليفها هو الدفاع عن الشريعة تجاه الفلسفة اليونانية ، ولكن هذا مخالف للرسائل التي اوردت ما يعلي من شأن الفلسفة اليونانية حتى ان الرسائل تقول" الفلسفة اشرف الصنايع البشرية بعد النبوة" بل انها تحث" اقران العبادة الشرعية بالعبادة الفلسفية "وتذكر الرسائل ايضا ان النبي قال مفتخرا "انا ارسطاطاليس هذه الامة" (الرسالة الخمسون)

كذلك يقول الدكتور فؤاد معصوم: ان في الرسائل نصوص كثيرة حول احداث جرت في القرن الرابع الهجري، هذا دليل على انها الفت في عصر متأخر عن العصر الذي عاش فيه الامامان الاسماعيليان عبد الله وابنه احمد[1].

اما ما نذهب اليه فهو ما ذهب اليه ابو حيان التوحيدي: " ان زيد بن رفاعة قد اقام في البصرة زمانا طويلا وصادف بها جماعة جامعة لاصناف العلوم وانواع الصناعة ، منهم ابو سليمان محمد بن معشر السبتي ويعرف بالمقدسي، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم وكانت هذه العصابة قد تالفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة وقالوا: ان الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها وافردوا لها فهرسة وسموها رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء" [2] وابو حيان سواء كان منتميا الى هذه الجماعة كما يرى احمد امين ام لم يكن فان لكلامه قيمته

[1] - فؤاد معصوم، اخوان الصفاء، فلسفتهم وغايتهم، المدى، ط ٢، ٢٠٠٣، ص ٥٢

[2] - ابو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، تح: احمد امين، ط ٢ لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٨، م ٢

التاريخية والمعنوية ذلك انه كان متصلا بالحركات السرية في الاسلام ،وهنا الاثبات انهم الفوها للاهتمام بالفلسفة اكثر كما اوضحوا وليس كما يدعي مؤرخو الاسماعيلية ودعاتها من ان تاليفها جاء للذب عن الشريعة تجاه ما اقترفه العباسيون والمامون بالذات من ادخال الفلسفة للشريعة ، ومن ينقل عنهم عارف تامر فانهم متاخرون جدا عن عهد ابي حيان وعن القرن الرابع الهجري فصاحب فصول واخبار هو الداعي السوري نور الدين احمد توفي عام ٧٤٩هـ والداعي ادريس صاحب عيون الاخبار توفي عام ٨٧٢هـ ١٤٦٧م، كما يشير لذلك فؤاد معصوم، البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥هـ= ١١٦٩ م يؤكد كلام ابي حيان، والخوارزمي المتوفى عام ٦١٧هـ = ١٢٢٠م يقول عن مصنفيها" صنفها جماعة من الحكماء ، منهم ابو سليمان بن محمد بن مسعر المقدسي ، والزنجاني، والنهرجوري، وزيد بن رفاعة" [١] كذلك يقول ابن تيمية المتوفى ٧٢٤هـ "بل اعجب من ذلك ظن طوائف ان كتاب رسائل اخوان الصفاء هو عن جعفر الصادق، وهذا الكتاب هو اصل مذهب القرامطة الفلاسفة، فينسبون ذلك اليه ، ليجعلوا ذلك ميراثا عن اهل البيت وهذا من اقبح الكذب واوضحه" [٢]

اين كتبت الرسائل؟

اما اثباتنا انها وضعت في البصرة فهو قول ابو حيان في اعلاه من ان زيد بن رفاعة اقام في البصرة زمنا طويلا وكذلك العوقي حيث لم يذكر ابو حيان

---

[١] ـ الخوارزمي ،شرح سقط الزند لابي العلاء المعري، ج٤، ص ١٦٨١

[٢] ـ ابن تيمية ، بغية المرتاد ، ضمن الجزء الخامس من فتاواه ، ص٥٩

اسمه كاملا ولكن لقبه (عوق)يدل على اسم محلة في البصرة واسم قبيلة وعوق(بفتح اوله وثانيه محلة من محال البصرة ينسب اليها محمد بن سنان العوقي)[1]وجاء في كتاب الفهرست "العوقي من اهل البصرة ، في زماننا هذا واسمه ... وله من الكتب ..." [2] فكونه من اهل البصرة ومعاصرا لابن النديم الذي انتهى من كتابه الفهرست عام ٣٧٧هـ يدفعنا الى ان نقول ان العوقي هو خامس الاخوان الذين ذكرهم ابو حيان.

وحاول تامر بالاضافة الى نسبتها الى ائمة الاسماعيلية والتي اثبتنا بطلانها ان ينسب مكان كتابتها الى سلمية وهذا خطأ اخر ايضا حيث يقول ابو حيان المعاصر للاخوان" انها نشأت في البصرة " وكما مر بنا عن كلامه عن زيد بن رفاعة "انه اقام بالبصرة زمنا طويلا"وهذا ليس بغريب عن البصرة التي كانت ملتقى الكثير من المذاهب والاديان والقوميات والفلسفات ، ويذهب فؤاد معصوم الى انه من الممكن تحديد مكانهم بكلمات وردت في رسائلهم ففي كلامهم عن المقولات ومحاولة توضيح الفروق بينها يقولون: واما من هو فسؤال يبحث عن التعريف للشيء ، ويقول علماء النحو : ان هذا السؤال لا يتوجه الا الى كل ذي عقل ويقول قوم اخرون : الى كل ذي علم وتمييز ، والجواب فيه ان يعرف السؤال بأحد ثلاثة اشياء ، اما ان ينسب الى بلده او الى اصله او الى صناعته ، مثال ذلك: اذا قيل من زيد ، فيقال: البصري " والمرء عندما يأتي بمثال لشرح فكرة معينة ياتي في الغالب بأقرب شيء اليه ، فاختيار البصرة بالذات يمكن ان يشهد ببصريتها . وابو حيان التقى بزيد بن رفاعة

[1] ـ نقلا عن فؤاد معصوم، اخوان الصفاء، م س ، ص ٥٧

[2] ـ ابن النديم، الفهرست.

والمقدسي في بغداد، اذ لم يعرف عنه انه زار البصرة ، اضافة الى ان سوق الوراقين كانت تقع في بغداد امام باب البصرة[1] ، حيث اشتغل فيها ابو حيان،وهكذا يتبين ان جمعية اخوان الصفاء انتقلت الى بغداد بعد فترة من نشاطها ،ويعتبر طه حسين ان "ابا العلاء كان قد زارهم وغشي مجالسهم[2] ، والمعلوم ان ابا العلاء لم يزر البصرة ، اذن يكون قد زار بغداد وغشيهم هناك.

وهكذا اتخذوا من البصرة مقرا لهم لبعدها عن الانظار واتخذوا منهج التخفي والتستر

من هذا يتضح انها لم تكتب في سلمية على ادعاء الكتّاب الاسماعيليين.

متى كتبت الرسائل :

الرسائل كتبت بعد اختفاء الامام "المنتظر" سواء عند الشيعة الاثني عشرية او عند القرامطة اختفاء محمد بن اسماعيل اي بعد عام ٢٦٥هـ يقول الاخوان" من يرى ويعتقد ان الامام الفاضل المنتظر الهادي مختف لا يظهر من خوف المخالفين، واعلم ان صاحب هذا الراي يبقى طول عمره منتظرا لخروج امامه متمنيا لمجيئه ، ثم يفني عمره ويموت بحسرة وغصة انه لم ير امامه" [3] اي انها كتبت بعد اختفاء محمد بن اسماعيل او محمد بن الحسن بفترات طويلة جدا بحيث لا ترجى حياته.

ايضا كان هنالك رجل يدعى الكيال ورد ذكره في رسائلهم " رجل من اهل العلم يعرف بالكيال قد شغفبتفسير الارقام" وهذا الكيال هذا توفي سنة

---

[1] ـ نقلا عن فؤاد معصوم، م س، ص ٦٦
[2] ـ طه حسين، تجديد ذكرى ابي العلاء، نقلا عن فؤاد معصوم ، م س ، ص ٦٧
[3] ـ الرسائل، الرسالة ٤٢

٣١٣هـ [1]

ورد ايضا في رسائلهم " ان قوما من الاشرار جعلوا التشيع سترا لهم عما يحذرون من الامرين بالمعروف والناهين لهم عن المنكر فيما يفعلون وذلك انهم يركبون كل محظور ويتركون كل مأمور به، واذا نهوا عن منكر فعلوه بارزوا باظهار التشيع، واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم او ينهاهم عن منكر فعلوه ولبئس ما كانوا يعملون" [2] والاستعاذة بالعلويين ، اي اظهار التشيع للتخلص من قرار اتخذته السلطة الرسمية السنية ، كما يذهب فؤاد معصوم لذلك، وتدخل العلويين لانقاذ الرجل كان في عصر البويهيين والبويهيون استولوا على الحكم في بغداد عام ٣٣٤هـ وقبل ذلك لم تكن هذه الاستغاثة تلقى اجابة مما يدلل ان الرسائل كتبت في ذلك العهد.

وابن تيمية يحدد لنا التاريخ لتصنيف الرسائل بانه كان" بعد المائة الثالثة قريبا من بناء القاهرة" [3]ومعروف ان جوهر الصقلي بدا ببناء القاهرة سنة ٣٥٨هـ ، بل ان بن تيمية يحاول تحديد تاريخ الرسائل معتمدا على الرسائل نفسها" وفيها نفسها بيان انها صنفت بعد ان استولى النصارى على سواحل بلاد الشام وكان استيلاء الروم بدا على بلاد الشام سنة ٣٥١هـ والنص الذي اعتمده ابن تيمية من الرسائل عند تصنيفهم المؤمنين" والصنف الخامس هم انصاره المجاهدون ، وغزاة اعدائه الحافظون ثغور بلاد اتباع الناموس ، كيلا يغلب عليهم اعداؤهم ، ويفسد عليهم امر

---

[1] ـ علي سامي النشار ،نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، ج٢، ص٣٤٨
[2] ـ الرسالة ٤٨
[3] ـ ابن تيمية ، بغية المرتاد، فتاوى ابن تيمية ، ج ٥، ص٥٩

دينهم ، كما فعل بخت نصر بايلياءفي هيكل بني اسرائيل ،وهو بيت المقدس، وكما فعلت الروم بثغور المسلمين" فيكون وضع الرسائل حسب ابن تيمية في الفترة بين ٣٥٣هـ -٣٥٧هـ وهذا الراي هو الذي يذهب اليه الدكتور فؤاد معصوم وهكذا الرسائل لم تؤلف في القرن اثاني او الثالث بل كتبت في القرن الرابع الهجري

ان زمن كتابة الرسائل كان متوازيا مع وجود الدولة الفاطمية ، والسؤال لماذا لم يكتبوا رسائلهم في مصر الفاطمية وانما كتبوها في البصرة ، فهذا دلالة الاختلاف بين الفاطميين الاسماعيليين واخوان الصفاء كونهم قرامطة.

١-اشارات تثبت ان اخوان الصفاء من القرامطة :

ويشير عليان الى ان دعاة الفاطميين في مصر ، لم يشيروا الى جماعة اخوان الصفا وهذا يتماشى مع ما دب عليه الفاطميون ودعاتهم من تعمد اغفال كل ما له صلة بقرامطة العراق .

وهنالك راي اخر لبندلي جوزي من ان الاصناف الشرقية كانت في اول ظهورها اقرب الى الجمعيات الخيرية الدينية منها الى نقابات العمال في عصرنا هذا والمعروف عن اعضاء هذه الجماعات انهم كانوا متساوين في الحقوق والواجبات يعاملون بعضهم بعضا معاملة الاخ لاخيه، ولهذا اطلق عليهم اسم الاخوان وبناء على ذلك يرجح بندلي جوزي ان اول حلقة اخوية ظهرت بين القرامطة كانت "حلقة اخوان الصفا" التي تاسست في النصف الثاني من العصر العاشر ويعرفها بندلي" ان اخوان الصفا حلقة او اخوية قرمطية اسست في البصرة لنشر المبادئ الاسماعيلية والسعي وراء تحقيقها بالطرق السلمية

العقلية"[1] ونحن نقول لنشر المبادئ القرمطية لان القرامطة يختلفون عن الاسماعيلية على الرغم من ترابطهم اول الامر ونشأتهم الاولى سوية .

كما انهم امنوا بامام الزمان وهو محمد بن اسماعيل المهدي ، وقد اشار الدكتور عبد العزيز الدوري الى انهم قرامطة ثم يأتي الى اهم الاشارات التي تتبناها الرسائل وفيما بعد يتحدث عن ولاءات الجماعة ففي الرسائل" وجهة اسماعيلية واراء للاسماعيلية مذكورة بحذر لانها مكتوبة لحلقات موسعة فهي تتحدث عن الظاهر والباطن، وهي تؤكد على مسالة التاويل ، وتتضمن الرسائل نقدا مرا للخلافة العباسية وهجوما عنيفا على الاوضاع المعاصرة وهي كذلك تنتقد الشيعة الذين لا يعرفون الا النواح وزيارة الاضرحة ولا يبحثون عن العلم " وقد مر بنا ان ابا طاهر الجنابي كان لا يزور الاضرحة " ويضيف الدكتور الدوري اضافات حيث "تعرض الاراء الاسماعيلية في الامامة وترفض فكرة الامام الغائب كما تعتقد الامامية وتؤكد ان الارض لا تخلو من امام وتتحدث الرسائل عن دور الستر "فترة اختفاء الائمة " وتنتظر دور الكشف "فترة تولي الامام مسؤولياته علنا" وتبشر به وتشير الرسائل الى وجود الائمة وعدم المعرفة بهم، والى انهم يختفون عن اعدائهم وان اولياءهم يعرفون مواضعهم وتتحدث الرسالة الجامعة عن الادوار السبعة وتشير الى" الرئيس السابع الاتي في اخر الزمان سيد اخوان الصفا" وهنا يقول عبد العزيز الدوري" وهذا هو راي قرامطة العراق" الذين اختلفوا مع الفاطميين[2] ويعلق الدوري" ان نسبتها لفترة الامام المستور احمد بن عبد الله او قبله غير دقيقة، فحديث الرسائل عن

[1] - بندلي جوزي، م س ، ص ٢٢٢
[2] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، م س ،ص٩٠

دور الستر ورفضها لفكرة الامام الغائب يدلل على انها كتبت بعد ما عرف ب (غيبة الامام الثاني عشر للامامية) اي بعد ٢٦٠هـ وهذا يشير الى انها كتبت في اواخر القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع الهجري كما مر بنا ، والدوري هنا لا يؤكد ان اخوان الصفا كانوا قرامطة فهو يذكر رايه على استحياء بان الراي حول الامامة هو راي قرامطة العراق وبالتالي هو يصطف مع بندلي وعليان من ان اخوان الصفا كانوا فرعا من القرامطة ، ويستدل ايضا انه فيما تتمتع الرسائل بمنزلة كبيرة في الادب الاسماعيلي في اليمن فانها لا تجد مكانا في ادب الفاطميين وهذا يشعر ان الاتجاه الثوري للرسائل"وهو اتجاه القرامطة في الثورة على المستبدين" لم يعد مناسبا لسلطة مستقرة كدولة الفاطميين كما ان فكرة القائم الذي ياتي بدور جديد تعتبر مناهضة لسلطانهم ،فالثورة استمرت في القرامطة ، في حين انتهت عند الفاطميين بقيام دولتهم ولا ننس ان كل واحد من الفاطميين هو امام ، فالذي نستشفه مما مر ايضا ، ان الدولة الفاطمية انهت فكرة الامام الغائب ، فالامام يخلفه ابنه، ، وهكذا استمر القرامطة يدعون للامام القائم محمد بن اسماعيل ، في حين اكتفى الفاطميين بولد القداح كي يكونوا ائمتهم وهم ولد اسماعيل بن جعفر في نظر اتباع الفاطميين والاسماعيليين .

ويشير اليها الدكتور الدوري على انها جزء من حركة القرامطة قائلا : نقول ان نزعة القرامطة المادية ورغبتهم في قلب النظام الاجتماعي كانت واضحة عند اخوان الصفا الذين حاولوا قلب المجتمع وانشاء العدل الاجتماعي عن طريق نشر المعارف والتاكيد على شرف العمل واصحاب الحرف.

وعلى راي العفيف الاخضر فالقرامطة عارضوا جور الاوتوقراطي البيروقراطي بحكومة الامام العادل المشجع على الاستقرار والتقدم(يوتوبيا) عارضوا الاوتوقراطية بالعلمانية ، واستعباد الرجل للمرأة بالمساواة بين الجنسين والتحاريم الدينية بحق الانسان في ان لا يأخذ بدين من الاديان وفي ان يتبع هواه دون الاضرار بأهواء من عداه، ، ويثبت كما اثبتنا ان اخوان الصفا جزء منهم بقوله" ومنظروهم : اخوان الصفا عارضوا العلوم الدينية بالعلوم العقلية " [1]

[1] ـ نقلا عن البيان الشيوعي ، م س ، ص٣١٨

الفصل الثاني عشر

مسعى لقراءة الحركة على ضوء نمط الانتاج الاسيوي

١-الدولة العباسية مثال لنمط الانتاج الاسيوي:

في دراستنا للحركة في ضوء نمط الانتاج الاسيوي ، اريد القول ابتداء ان النظرية لم تنطبق تماما على الظروف التي كانت سائدة انذاك ، وانما كانت تحليلاتها النظرية منطبقة على الظروف التي احاطت بالحركة ، وبناء عليه بينا هذه الملامح في النظرية ،ومالم ينطبق منها على الظروف التي سبقت قيام الحركة وواكبتها اشرنا اليه ايضا،فنحن من غير الممكن ان نسقط النظرية تماما على ظروف الحركة ، النظرية حديثة وسبقتها الحركة ب٨٠٠ سنة تقريبا ، ولكن من الممكن ان تحمل الظروف التي احاطت الثورة ملامح من نمط الانتاج الذي تحدث عنه كارل ماركس وانجلز، كما اشرنا الى الاعتراضات التي سجلت ضد هذه النظرية ودرسناه ايضا ...

ان العوامل التي دفعت الى قيام نموذج يحمل صفات من نمط مركزي "نمط اسيوي للانتاج" تسيطر فيه الدولة العباسية على مقاطعات الاراضي الزراعية ويصادر فيه الفائض من نتاج الفلاحين من قبل الطبقة البيروقراطية المسيطرة حيث يتولون ممارسة حقوق الدولة بالوكالة ، وفرض الضرائب العالية على الفلاحين هو وجود نهري دجلة والفرات وهي: انهر ذات فيضانات منتظمة في مناطق تحيطها صحاري البادية العراقية وبسبب المياه كانت هنالك تعاونات بين القرى وتبادلات ، وهذه التعاونات تحدث بسبب تصدي مشايخ القرى لقيادة هكذا تعاونات فاصبح هؤلاء المشايخ نبالة خاصة سيطرت شيئا فشيئا على مناطق اتسعت رقعتها في اقاليم وامارات ومن ثم ممالك وامبراطوريات مثل الدولة العباسية وهكذا وجدت الدولة المركزية "الدولة-الطبقة" مندمجتان وجاءت الظروف الطبيعية لاستزراع الاراضي لتجعل

التراث المشاعي لدى المشتركات الفلاحية وتدفعه للاستمرار فمياه الفيضان تغطي الارض فتمحو الحدود بين حيازات الاراضي، وهذا الذي يفسر كثرة المشاكل بين اصحاب الاراضي في تلك الفترات ، وتجعل من الضروري اعادة توزيع الحيازات بفترات دورية مع اعتبار الارض الداخلة في زمام القرية حيازة جماعية للمشترك ،وهكذا كانت الدولة المركزية بواسطة ممثليها في تلك الاراضي تقوم بهذه المهام ،مهام توزيع الاراضي والتحكم بالفلاح ايضا ومصادرة حقوقه ،وكذلك التحكم في مصادر مياه الري .

وزراعة بلاد الرافدين تعتمد كثيرا على ري القنوات وتتكون المنطقة الجنوبية باستثناء البطيحة من سهل غريني قوي يتراوح ارتفاعه بين خمسين ومائة قدم فوق مستوى سطح البحر ولا تكفي الامطار للزرع كما انها تسقط في غير مواسمها وهذا ما يستوجب حفر القنوات ، بالنتيجة اقتصر السكن على ضفاف الانهر وتبع ذلك توزيع المدن والقرى .ثم ان المراعي ليست وافرة وفترة الخضرة فيها قصيرة ومن اهم ظواهر المنطقة ، انخفاض ضفاف الانهار مما يؤدي الى تكرر الفيضانات. وقد قامت زراعة نشطة في السواد بسبب وجود الحكومة العباسية القوية التي صادرت ملكية الاراضي وفرضت قوانينها وفق نمط الانتاج حيث ان الدولة في المجتمعات الاسيوية النهرية اجمالا تتولى تنفيذ جملة من الوظائف الخدمية والادارية في الحياة الاقتصادية ،وفي ميدان الزراعة خصوصا ، تغدو معها كما لو انها المحرك الوحيد للمشاريع الحيوية التاريخية ، ما يفضي بالضرورة الى ظهور تنظيمات اقتصادية كبرى تجعل الدولة في اغلب الاحوال المالك الوحيد للارض ولوسائل الانتاج وادواتها الرئيسية الاخرى ، فيما يفضي بالضرورة ايضا الى نشوء تدريجي لانظمة حكم

استبدادية بفضل بيروقراطية ومركزية الدولة ذاتها والهرمية الميكانيكية لاجهزتها التي تفرض على تلك المجتمعات الياتها هي كلازمة لتنفيذ وظائفها في مرحلة تخطيها لحالتها الاولى القروية المشاعية وانتقالها الى حالة اعلى[1] وجوهر نمط الانتاج هذا هو ان ظهور الدولة الاستبدادية يكون حتميا عند اجتماع جملة من الركائز المرتبطة وجودها موضوعيا ب"نمط الانتاج الاسيوي"

كل هذه العوامل ادت الى قيام الحركات الاجتماعية بالثورة ضد الطبقات البيروقراطية الحاكمة في المجتمع العباسي

١-الطبقات البيروقراطية في المجتمع العباسي:

بداية ينبغي ان نعرف كيف تكونت الطبقات البيروقراطية في هذه المرحلة : حيث في المراحل الاولى للمشاعية ، كان قادة القبائل هم الممثلون لتلك المصالح المشتركة ويكلفون بادارتها مقابل امتيازات بسيطة ،ولكنهم كانوا فقط الاوائل بين الانداد ، لانه لم يكن يوجد بعد فائض عمل كاف يمكن ان يكون اساسا لانفصالهم طبقيا عن سائر افراد القبيلة ، وعندما استقرت القبائل والعشائر في مشتركات زراعية قام الزعماء باعمال الادارة للمياه وغيرها ثم التنسيق او الصدام مع المشتركات المجاورة لتوزيع المياه ،والتحالف معها احيانا لصدهجمات الرعاة وسكان الصحراء"البدو" واستمر هؤلاء القادة على الاغلب في تولي الوظائف الدينية والسياسية ومع ظهور فائض العمل امكن

[1] ـ من بحث لجان سوريه كانال حول "المشكلات النظرية لدراسة المجتمعات الطبقية الاولى " منشور في كتاب "حول نمط الانتاج الاسيوي" نشره بالتعاون مع جان شينو وموريس غودالييه وترجمه الى العربية جورج طرابيشي ، دار الحقيقة ،بيروت، ١٩٧٣، وهذا نقلا عن د حسين الهنداوي، استبداد شرقي ام استبداد في الشرق، دار المدى، بغداد، ٢٠١٦، ص ١٩٤

لهؤلاء ان يصبحوا طبقة حاكمة ومستغلة في ان واحد وتحولت امتيازاتهم البسيطة الى امتيازات فاصلة بينهم وبين الكادحين والتزامات على سكان القرى واجب تاديتها دون مقابل ، اي تحولت الى علاقة استغلال ، كما ان الحق الاعلى على الارض ينتقل من زعيم المشترك القروي الى زعيم الاقليم ثم الملك اي الدولة باعتبارها الكيان الاعلى وهكذا يظهر نمط الانتاج الاسيوي وتظهر الطبقة المستغلة دون ان توجد الملكية الفردية للارض [1] ويفسر بعض الباحثين نشوء الطبقات البيروقراطية بالشكل التالي: تفرغ بعض اعراب البادية للجيش ، وعرب الحاضرة للقيادة والادارة ، جعل الاساسي من النشاط الحرفي والتجاري والزراعي والفكري شأنا من شؤون من لا حق لهم في ديوان الجيش ولامكان لهم في مناصب الدولة من غير العرب سواء اكانوا اهل ذمة ام موالي مسلمين وهذا ما يفسر الى حد بعيد احتقار البيروقراطية الحاكمة للمنتجين المباشرين وذوي الفعاليات الاقتصادية في المدينة والريف احتقارا عرقيا بدويا دينيا طبقيا ترجم نفسه في نهبهم بالضرائب والمصادرة وفرض تقسيما للعمل اضعف الاندماج الاجتماعي- العرقي بين الفاتحين والمفتوحين [2] ويضيف العفيف الاخضر ان اول شيء قاموا به بنو العباس هو نقل ملكية الارض لذويهم ومحاسبيهم وبيروقراطييهم المدنيين والعسكريين عربا وعجما بعد ان استطاع العباسيون ضم الكثير من قواد الجيش والوزراء من كبرائهم.

---

[1] - احمد صادق سعد، في ضوء النمط الاسيوي للانتاج، تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي، م س ، ص ١٤

[2] - البيان الشيوعي، ماركس انجلز ، تعليقات العفيف الاخضر ، م س ، ص ٢٨٤

وتمثلت الطبقة البيروقراطية الاسلامية تراث البيروقراطيات الشرقية وبلورت ملامحها الخاصة ، فقد بات من الضروري احتجاب الخليفة عن الناس لاحاطته بهالة تثير رعب العامة، وكعلامة على استكمال بناء الدولة وانفصالها الصريح عن الشعب وانقسام الامة الى طبقة محكومة محرومة من كل شيء وليس لها على الدولة شيء وعليها واجب الطاعة ، دفع الضرائب واحتمال المصائب، وطبقة حاكمة تتحكم على هواها بالناس ، باقواتهم ورقابهم تتالف من الخليفة وبطانته وبيروقراطييه ورجال دينه وشعرائه وكتابه هؤلاء جميعا يتمتعون بالجواري والغلمان، بالخمر ، بالغناء، بالشعر، بالقنص، باللعب والاعياد وبات لكبار رجال الدولة العباسية وغلمانهم وجواريهم مرتبات وحق في اموال الدولة ، وعلينا ان نعرف ان رواتب الطبقات الحاكمة كانت رواتب عالية جدا، ورواتب صغار الموظفين متواضعة عملا بالمبدأ البيروقراطي الحديدي كما يسميه العفيف الاخضر " لكل بيروقراطي كمية من الدخل متناسبة مع كمية السلطة التي يمتلكها، الا ان الامتياز البيروقراطي الذي يحظى به من يملك ذرة من سطوة الخليفة كالجابي او حتى الشرطي يترجم الى امتيازات مادية : هدايا ، رشاوى ، ابتزاز"[1] وهكذا كانت بيروقراطية الدولة بجميع مراتبها تتمتع بامتصاص دم شعب مكبل بجميع حبال الاستبداد الدينية والدنيوية .

---

[1] - م س ، ص ٢٨٧

٢-التفاوت الطبقي المريع:

وكنموذج لثروة الخلفاء ووزرائهم وكبار موظفيهم ساسرد اهم هذه الثروات التي حصلوا عليها وهم بأجمعهم ممن عاصرتهم ثورة القرامطة ووقفت ضدهم والتي تعطينا صورة عن نقمة عامة الناس عليهم بسبب هذه الثروات حيث نجد ان في سنة ٢٧٩هـ /٨٩٢م اي بعد سنة من ثورة حمدان قرمط التي كانت سنة ٢٧٨هـ /٨٩١م، نجد ان راتب عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد ١٢٠٠٠ دينار في السنة واستبدل سنة ٢٨١هـ باقطاع وارده ٢٠٠٠٠٠ دينار في السنة، وفي سنة ٢٩٦هـ اي ما بعد ثورات ال زكرويه كان وارد الضياع الخاصة للعباس بن الحسن وزير المكتفي ١٢٠٠٠٠ دينار في السنة ، وفي نفس السنة اعطي ابن الفرات ،وزير المقتدر قصرا خاصا على دجلة ، مع عمارات مجاورة - وكلها تغطي مساحة قدرها ١٧٣،٣٤٦ ذراعا مربعا وكان دخله يشمل:

وارده من الاقطاع الذي خصصه له الخليفة ٥٠٠٠٠ دينار في السنة وراتبه ٦٠٠٠٠ دينار في السنة وكان دخله من ضياعه الخاصة ١٠٠٠٠٠٠دينار في السنة وكان دخله من ضياعه الخاصة قبل ان يصبح وزيرا ٨٠٠٠٠٠دينار في السنة، وفي الفترة ما بين ٢٩٩- ٣٠٠هـ /٩١١-٩١٢ م (ابان ثورات ال زكرويه) دخل الوزير الخاقاني : من الاقطاع ٥٠٠٠٠ دينار في السنة ، وراتبه ٦٠٠٠٠ دينار في السنة وفي الفترة من ٣٠٠-٣٠٤هـ دخل الوزير علي بن عيسى ١١٠٠٠٠ دينار والخصيبي كان راتبه ٦٠٠٠٠ واقطاع وزارته ١٥٤٠٠٠ دينار في السنة، وفي سنة ٣١٥هـ اي قبل السنة من القضاء كليا على القرامطة في سواد العراق من قبل المقتدر

العباسي سنة ٣١٦ هـ دخل علي بن عيسى في وزارته الثانية وكان مجموع دخله ٢٥٤٠٠٠ ومن ضياعه الخاصة ٥٠٠٠٠ دينار في السنة وكان دخله من ضساعه الخاصة وهو خارج الوزارة ٣٠٠٠٠ دينار في السنة.

بالاضافة الى ذلك كان لابناء الوزراء رواتب خاصة فمثلا كان اولاد ابن الفرات الثلاثة يستلمون ١٨٠٠٠ دينار وكان ولد الخاقاني ، والخصيبي، وابن الفرات سنة(٣١١- ٣١٢هـ) وولد علي بن عيسى يستلمون ٢٤٠٠٠ دينار في السنة وكان الوزراء يستلمون هدايا من جهات مختلفة فلما صار علي بن عيسى وزيرا سنة ٣١٥هـ /٩٢٧م ارسل اليه المقتدر هدية قيمتها ٢٠٠٠٠دينار .

ومن الموظفين البيروقراطيين ايضا رؤساء الدواوين وكانت رواتبهم عالية ومنها ،٣٠٤هـ - ٣٠٦هـ راتب كاتب ديوان السواد مع رواتب موظفي ديوانه ، مع نفقات الورق، ٧٠٠٠ دينار في الشهر

٣٠٦هـ / ٩١٨م، راتب كاتب ديوان العطاء ١٨٠ دينار شهريا

٣١٤هـ /٩٢٦م/ راتب كاتب ديوان السواد ٥٠٠ دينار في الشهر

وراتب كاتب ديوان الضياع ٢٠٠ دينار في الشهر

وكان الولاة - يحصلون بطرق مشروعة وغير مشروعة - على واردات كبيرة حسب دكتور عبد العزيز الدوري: وهذه بعض الامثلة :

٣٠١هـ/٩١٣م: دخل الراسبي عامل جند يسابور والسوس ومادرايا ١٤٠٠٠٠٠ دينار في السنة

٣٠٠-٣١٠هـ/٩١٢-٩٢٢م راتب المادرائي (الحسين بن علي) ٣٦٠٠٠ دينار في السنة.

ودخله من ضياعه الخاصة حوالي ٢٥٠٠٠٠ دينار ، ودخله من المرافق ومما ياخذه لنفسه من الضرائب الحكومية ٦٦٠٠٠٠ دينار في السنة

٣١١هـ/٩٢٣م الوارد من ضياع البريديين الخاصة ، حين كانوا عمالا على واسط ٣٠٠٠٠ دينار في السنة

٣٢٤هـ /٩٥٣م : دخل البريديين ،وكانوا عمال الاهواز حوالي ٢٢٨٥٠٠٠

٣٠٦هـ /٩١٨م ، احد العمال يستلم من الوزير حامد بن العباس لمائدته : ٣٦٠٠٠ دينار ولنفقات خدمه ١٥٠٠٠ دينار سنوي وفي سنة ٣١٤هـ عامل منطقة الجبال ، ياخذ نفقات لمائدته ٦٠٠٠٠ دينار ، اما رواتب كبار الموظفين مثل محتسب بغداد ١٠٠ دينار عام ٣١٥هـ/٩٢٧م

٢٧٩هـ ٢٨٩هـ اي في بداية ثورة حمدان قرمط كانت رواتب قاضي بغداد ونائبه واولادهما ، وعشرة من الفقهاء ٥٠٠ دينار شهريا

كبار قادة الجيش من ٢٩٦هـ-٣٠٤هـ راتب كل من الفرسان في جيش المقتدر ١٢،٥ دينار في الشهر ، ٣١٧هـ /٩٢٩م راتب الفارس يساوي ٤١،٦٦ دينار في الشهر

وراتب الجندي من الرجالة ٦ دينار في الشهر [1] وسيكون من المفيد ان نذكر كم هو دخل العامة في تلك الفترات وكم يكفي للفرد الواحد من مدخول كي يعيش به عيشة مقبولة ، كي نستطيع المقارنة بين ما كان يحصل عليه الحاكمين وبين ما يحصل عليه المحكومين ، حيث يستنتج الدكتور الدوري من

---

[1] كل الارقام التي ذكرتها اعتمادا على تاريخ العراق الاقتصادي للدكتور عبد العزيز الدوري ، م س ، ص ٢٤٠-٢٤٥

خلال روايات يسوقها" ان عشرة دنانير في الشهر كانت تكفي الرجل الواحد ليعيش عيشة مقبولة ، وثلاثين دينارا في الشهر كانت تكفي في اوائل القرن الرابع الهجري لمعيشة عائلة من الطبقة المتوسطة .[1] فكيف اذن بهذه الطبقات البيروقراطية التي ذكرناها والتي تحصل على كل هذه الاموال. وكم كان حجم التفاوت الطبقي كبيرا بين الحاكمين والمحكومين .مما ادى الى ثورات عدة تجاههم للمطالبة بالعدالة الاجتماعية كان على راسها القرامطة . اما نفقات الخلفاء المعاصرين للثورة القرمطية والذين عملوا على محاربتها فهي تفوق الخيال فيعطي الصابي تفاصيل نفقات البلاط في خلافة المعتضد العباسي فكانت ميزانية البلاط الشهرية ١٢٢٩٢٠ دينارا تحتوي على تفاصيل كثيرة لسنا بصددها ، ولكن تعتبر نثرية فوق الخيال ولما توفي المكتفي سنة ٢٩٥هـ خلف

ثيابا خوارزمية وخراسانية ٦٣٠٠٠ ثوب

عمائم مروزية ١٣٠٠٠ عمامة

السجاد ١٨٠٠٠ سجادة

الجواهر والعطور ما يبلغ ثمنه ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار

من الاسلحة والرقيق والدواب ما يبلغ ثمنه ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار

وقد بلغت نفقات المقتدر في خمس وعشرين سنة مقدار اثنان وسبعون مليون دينار او ٢٨٨٠٠٠٠ دينار في السنة ، وكانت قصوره مؤثثة ومزينة بترف بالغ فكانت تحتوي ٨٣٠٠٠٠ ستارة من الحرير الخالص المطرز بالذهب و٦٢٠٠٠٠ بساط من انواع مختلفة ومن صنع بلادمختلفة وكان لديه

[1] ـ م س ، ص ٢٤٦

في بعض اسطبلاته خمسمائة حصان لها سروج مزينة بالذهب والفضة ، وكان في خدمته ٧٠٠ حاجب و٧٠٠٠ مملوك، ثلاثة الاف منهم بيض واربعة الاف سود، ويعلق الدكتور الدوري على هذه الارقام "لعل هذه الارقام تكفي لاعطاء فكرة عن البذخ العجيب لهذا الخليفة.وهذه الارقام في البذخ ، اقل منها نفقات البذخ لدى الوزراء، وهي بعمومها ادت الى التباين الطبقي ومن ثم الثورة .

وثورة القرامطة دليل وعي مبكر لدى العامة تجاه هؤلاء الحاكمين، وطبقات موظفيهم المتصلة بهم.

٣-ولادة المستبد:

وهكذا ولد المستبد حيث قاد الريع المساق للخليفة الى انتاج القاعدة المادية الفعلية للسلطة الاستبدادية ، اي الخاصة بما يمكن تسميته المجتمعات النهرية الهيدروليكية والتي تحكم تلك المجتمعات عبر جهاز بيروقراطي مركزي نشأ في الاصل لاداء مهمة تنظيم الري ، الا انه سرعان ما سيطر على كل مقاليد حياتها ، ويشترط (ويتفوغل) في نشوء الاستبداد ان يكون البلد واقعا على نهر كبير الامر الذي يتطلب بالضرورة قيام سلطة مركزية تضطلع بمهام جوهرية عديدة ابرزها تنظيم ايصال وتوزيع المياه من النهر الى الارض الزراعية وحمايتها من الفيضان وفرض نظام للري يسري على كل مناطق البلاد اذ يقتضي تحقيق هذه المهام شبكة قنوات لايصال المياه واقامة الجسوروالسدود لحماية الاراضي من الفيضان وفرض نظام للري يسري على كل مناطق البلاد ، اذ يقتضي تحقيق هذه المهام شق شبكة قنوات لايصال المياه واقامة الجسور

والسدود لحماية الاراضي من الفيضان ولتخزين المياه في فترات الجفاف.[1] وكي تكرس مطلقية استبداد السلطة ، فرضت السلطة الاستبدادية العقاب ليكون الوسيلة الجوهرية الاساسية وربما الوحيدة لتأمين ادامة سيطرتها على جميع الافراد ، والعقاب في الطغيان الشرقي هو الاسم الاخر للملك(وفي حالتنا للخليفة العباسي الذي هو ظل الله في الارض) لانه وحده الذي يحكم الكائنات المخلوقة وهو وحده الذي يجمعهم جميعا ويراقبهم ليل نهار معا. ويرى هذا المنظور ان اقامة المشاريع المائية الضخمة تتطلب تمويلا منتظما كما تتطلب عملا مستديما من جموع غفيرة متتالية من العمال والحرفيين وأصحاب المهن في مختلف التخصصات ، والحال ان توفير كل ذلك وادارته وتنسيقه يستدعي وجود ادارة مركزية صارمة واستبدادية رادعة وغير ذلك من الاحكام التي تجعلها قادرة على فرض النظام والانضباط على المجتمع ،ويسمح لها بتوفير التمويل ، وهي اهداف - حسب الدكتور حسين الهنداوي- لا يمكن ضمان تحقيقها الا اذا تركزت السلطة في يد عدد محدود من الرؤساء والمدراء الذين يتلقون توجيهاتهم من حاكم واحد اعلى سرعان ما يتحول الى مستبد على المجتمع ككل ، لان من يتحكم بمصادر الماء يستحوذ على جميع مصادر السلطة الاخرى ويحتكرها بالكامل ما ينتج سلطة مركزية مستبدة تقودها بيروقراطية حاكمة .هذا النوع من السلطة في راي (ويتفوغل) نشأ في الصين وبلاد الشرق الاوسط وهو يعقد مقارنة بين هذا النوع من السلطة وتلك التي نشأت في اوربا بمناخها المعتدل الممطر الذي سمح بقيام زراعة تعتمد على الامطار التي لا يستطيع احد التحكم بها، الامر الذي حال دون الاستبداد بالسلطة ، التي

[1] - د حسين الهنداوي، م س ، ص٢٠٦

كانت متوازنة بين الكنيسة والبلاط والاثرياء والنقابات[1]. ولكننا نرى نشوء سلطات غاشمة ومستبدة في اوربا على مر تاريخها الطويل (محاكم التفتيش)، بفعل الكنيسة واتهامها الناس بالتجديف والهرطقة وارتباطها مع الحاكم لتعزيز سلطته.

بالتالي فان من له السلطة على الموارد المائية يتسلط تبعا لذلك على ملكية الارض والتجارة والصناعة وغيرها مع ملاحظة ان سلطة ادارة المياه تتطور نوعيا هي ذاتها ويتغير جوهرها الاجتماعي بموازاة ذلك، فبعد ان كانت بيد رؤساء وزعماء محليين موسميين في البدء تتحول تدريجيا الى يد قادة تحالف البلاط والمعبد ثم الى سلطة مدنية يسندها الجيش ويدعمها رجال الدين، وتعمل هذه السلطة حسب ويتفوغل على الاستحواذ والسيطرة على مصادر الثروة وتقليص دور الملكية الخاصة وكل مراكز السلطة والنفوذ التي لا تقع تحت يد من يتربع على راس الطبقة الحاكمة .

ويشير دكتور حسين الهنداوي الى ان نظرية (فيتفوغل)هذه تعرضت لانتقادات فكرية منها ان الشواهد الاثرية والتاريخية تفيد ان المشاريع المائية الضخمة لم تظهر غالبا الا في اعقاب ظهور سلطة الدولة في الدول الاسيوية الكبرى مما يعني انها كانت نتيجة وليست سبب ظهور الدولة[2] . ولكنني اقول ان نظرية ويتفوغل صحيحة من ناحية ان السلطة الحاكمة تتأتى من وجود الريع المائي فتنشأ من خلال وجوده سدودها ومشاريعها ومن الممكن ان تكون بعض هذه المشاريع قد وجدت بالاصل قبل وجود السلطة ولكنها بسيطة ،

[1] - م س
[2] - م س، في اعلاه، ص ٢٠٨

المهم ان ويتفوغل يريد القول ان المشاريع الاروائية هو السبب في ايجاد الاستبداد والقوة ، وليس المشاريع الضخمة هي السبب في رايي طبعا. بل المشاريع الضخمة تنشأها السلطة الحاكمة .وتكبر بوجود المستبد حسب راي ماركس ، اي : ان المستبد يكون هو المسؤول عن انشائها وتطورها .

فبالنتيجة هي نتيجة المستبد وليست سببا لظهوره، كما ادعى (ويتفوغل).

ويثير الدكتور هنداوي اشكالية مفادها" ان الدولة الاسلامية لم تكن من ضمن نمط الانتاج الاسيوي"[1] ويبرهن على ذلك ان الاسلام يسمح للرعية بامتلاك الارض والاموال وكل الاشكال الاخرى ، وتناسى الدكتور حسين ان الطابع الذي مارسته الدولة العباسية طابعا تملكيا خاصا بالدولة والفئات التابعة لها ، لاغية النظام الاسلامي في تملك الارض ، وان المسلمين الغوه تماما ، فقط في عصر الرسول كان هنالك تملك ، فيما بعد حول الخلفاء اراضي الدولة الى املاك لهم يقطعوها لمن يشاؤون.

كذلك يبرهن على ما يذهب اليه قائلا " يعزز راينا بصعوبة حشر انتاج الدولة الاسلامية التقليدية ضمن نمط الانتاج الاسيوي، غياب نظام القنانة او السخرة في علاقة الفلاحين مع الارض ، فمالكو الارض في الدولة الاسلامية عملوا على ارغام الفلاحين والعمال والفقراء على العمل في اراضيهم ، الا ان هؤلاء ظلوا احرارا الامر الذي يؤكد خروج نمط الانتاج في الدول الاسلامية التقليدية الكبرى عن النمط الاسيوي"[2] وهنا كلام الدكتور هنداوي ، يبرهن انه لم يطلع على مفهوم "العبد المعمم" كما يسميه ماركس ،

---

[1] - د . حسين هنداوي، استبداد شرقي ام استبداد في الشرق، م س ، ص ٢١١

[2] - م ن ، ص٢١١

حيث ان الفلاح يشتغل في الارض وعندما تباع الارض يبقى معها لضيق ذات اليد عنده ولكونه مطلوبا لمالك الارض او الاقطاعي المسيطر عليها ، فيبقى حرا فقط في الشكل ، اما في المضمون فهو عبدا ويسمي ماركس هذا النوع من العبودية ، العبودية المعممة ، كذلك ماذا يسمي الدكتور هنداوي ظاهرة الالجاء، التي كان يضطر لها صغار الفلاحين نتيجة ارهاق الضرائب وتسلط الطبقة البيروقراطية وجشعها تجاه الفلاح ، مما يجعل الفلاح يلتجا الى طبقات بيروقراطية اخرى يلجأ لها ارضه ويبقى عبدا ومرهونا لها ، فالعبودية هنا تتحقق ليس فقط ان يكون قنا فحسب ، وواقع الحال يقول ان الفلاحين كانوا يعيشون في اكبر عبودية عرفتها البشرية في ظل الدولة العباسية وهيمنتها ، بل وصل البعض بهم عندما يعجز عن دفع الضرائب يترك الارض ويهرب .

والمستبد يبدو هنا كأنه أب لكافة المجتمعات الصغيرة العديدة في القرى ، وبذلك يحقق الوحدة المشتركة للجميع ،وينتج عن ذلك ان المنتوج الفائض كما مر بنا يعود الى هذه الوحدة العليا .

لذلك يبدو ان الاستبداد الشرقي يؤدي الى غياب الملكية قانونيا الا ان اساسه يقوم في الواقع على الملكية القبلية او المشتركة المتولدة في معظم الحالات من تمازج الصناعة والزراعة داخل المجتمع الصغير الذي يصبح من ثم مكتفيا ذاتيا تماما. ويحتوي في داخله على كافة شروط الانتاج والانتاج الفائض [١] وهذا ما نلمسه في المجتمع العباسي عندما تحول الخليفة الى الاب

---

[١] - بيري اندرسون، دولة الشرق الاستبدادية ، ت: بديع عمر نظمي، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت، ١٩٨٣، ص٦٢.

الراعي ،واصبح نفوذه وسلطته سلطة مطلقة مع تفشي غياب الملكية قانونيا ، فالفلاح لا يمتلك شيء عند الدولة مع تمازج واضح بين اهل الصناعات والفلاح ، فالفلاح نفسه يصبح صاحب صنعة عندما يفقد عمله في الارض ، وهكذا يصبح لدينا انتاج فائض يرجع ريعه الى المستبد(الخليفة) وطبقته البيروقراطية الحاكمة .

وهذه المجتمعات التي يحكمها الخليفة العباسي والتي نشأ فيها النظام الاسيوي للأنتاج يقول عنها ماركس" يجب الا ننسى ان هذه المجتمعات الصغيرة كانت موبوءة بالتمايز الطائفي وبالرق، وانها اخضعت الانسان للظروف الطبيعية بدلا من رفع شأنه ليكون سيدا للظروف، وانها حولت الدولة الاجتماعية المتطورة ذاتيا الى قدر طبيعي غير قابل للتغيير "[1] كما كان ماركس يعتقد ان الحكومات المستبدة في الشرق كانت تجند الايدي العاملة غير النظامية وغير الماهرة من بين سكانها ، الامر الذي اسماه "الرق العمومي في الشرق" وما كان يقصد الرق بمعناه المتعارف ، بل يتحدث عن سلطة الحكومات المستبدة على مثل هؤلاء الافراد (المرتزقة) . كانت الدولة العباسية تستخدم امثال هؤلاء في ضرب الناس . وقد استخدمت الدولة العباسية الرقيق حرسا خاصا مدربا في الجيش ، واستخدم المقتدر العباسي احد عشر الف مملوك في قصره، وكان في الجيش فرق كاملة من المماليك [2] حتى ان المدينة بمعناها الدقيق ينبغي "اعتبارها مجرد معسكر للامراء مفروض من فوق على الهيكل

[1] ـ الرسائل بين ماركس وانجلز، نقلا عن بيري اندرسون، م س ، ص ٦١.
[2] ـ عبد العزيز الدوري، م س ص ٧٧

الاقتصادي الحقيقي" [1] وهنا نجد ان الحواضر العربية انذاك مثل : بغداد ، البصرة، الكوفة، دمشق، كانت عبارة عن معسكرات للأمراء وتتحكم هذه المعسكرات بكل مفاصل الاقتصاد الذي تحدثنا عنه في الدولة وترهق الفلاح والعامل البسيط بالضرائب الكبيرة ، مما ادى الى ان تثور ثورة القرامطة وقبلها الزنج في البصرة على حكام العباسيين .

٤-السبب الرئيسي لقيام الحركة :

والسبب الرئيسي الذي خرجت الحركة لاجله هو سبب اقتصادي حيث ان الإقطاع لأول مرة اتخذ صفة عسكرية وتكاثرت المكوس والضرائب غير المشروعة وحصل التلاعب بالعملة كوسيلة للتوفير[2] .كان هنالك اقطاع على الفلاحين وتجارة كدست الاموال بيد فئة من الناس، ويذكر الاصبهاني في مقاتل الطالبيين ص٣٤٠ حادثة تدل على مدى ما وصلت اليه تلك الحالة من سوء ، وهي ان ابن طباطبا العلوي عندما ذهب الى الكوفة سنة ١٩٩هـ قابل هناك سيدة تسير في الطريق وراء بعض الدواب المحملة بالتمر ،لتلتقط ما عساه يتساقط منه في ردائها الرث القديم ، وحين عرف منها انها وبناتها لايجدن غير ذلك من قوت ،بكى بكاء شديدا واعلن انه سيخرج في الغد ثائرا على العباسيين من اجل تلك المراة وامثالها من المحرومين ....،

لقد كافح حمدان قرمط في سبيل ارجاع حيازة الارض للفلاح ومساعدة الدولة له في استصلاح ارضه دون ضرائب كبيرة تفرض عليه وترهقه، بل

---

[1] - بيري اندرسون، م س، ص٦٣.

[2] - عبد العزيز الدوري، تأريخ الاقتصاد في القرن الرابع الهجري، المقدمة.

وصل الامر بقرامطة البحرين بتملك الارض وليس فقط العمل بها . انها حرب الفلاحين اذن وهي شبيهة بما وصفه انجلس في مقالة بعنوان "حرب الفلاحين" " ان الهرطقة كانت التعبير المباشر عن حاجات الفلاحين وعوام المدن كما كانت مرتبطة دائما بانتفاضة ما من الانتفاضات، وكانت تريد بعث شروط اوظروف المساواة لدى المسيحية الاولى بين اعضاء الجماعة وكانت تطالب بالمساواة في الثروات جزئيا ، ان المساواة والغاء عملية السخرة الاقطاعية ، الضرائب والامتيازات، وفي كل الاحوال الغاء الفروق الهائلة بين الثروات تلك كانت المطالب التي طرحتها بهذه الدرجة"[1].

وعلينا ان نعرف ان حيازة الارض لدى العرب مرت بمراحل فالبدو قبل ظهور الاسلام يجمعون بين الملكية الخاصة للقطعان والاستخدام الجماعي للارض، وعندما تحققت"الفتوحات" التي ساهم بدو الجزيرة في تحقيقها جرى التصرف بالاراضي المستولى عليها طبقا لمفاهيم سكان المدن، فقد اقر الرسول محمد توزيع الغنائم بما فيها الاراضي بين"المؤمنين" حتى انه وهب لابنته فاطمة ارض"فدك" ولكن عندما بدأت ما سمي حينها بالفتوحات في القرن السابع بعد وفاة الرسول ، عادت التقاليد البدوية ففرضت نفسها تدريجيا ،فصودرت عقارات الملوك او الاعداء من الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، والتي كان اصحابها قد خضعوا بقوة السلاح واصبحت ملكا للمجتمع الاسلامي وتحت امرة الخليفة يتصرف بها هو وجماعته كيف يشاء ويقطعها لمن يشاء ، اما الاراضي العائدة لما اسماه المسلمون" الكفار" الذين قبلوا بالاستسلام بعد مفاوضات ، فقد بقيت في حوزتهم مقابل دفع الجزية ، في حين منح الجنود

[1] -ماركس وانجلز، حول الدين، ت:زهير الحكيم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤، ص٧٩

العرب قطائع على الاراضي المصادرة وظهرت ضريبة الخراج في اواسط القرن الثامن الميلادي ، وبالتحديد في زمن الدولة الاموية.

كانت الاراضي في كافة مناطق الدولة تحتفظ فيها بالحق المطلق ، واصبح احتكار الدولة للارض مبدأ قانونيا تقليديا للانظمة السياسية الاسلامية ، ابتداء من الدولة الاموية فالعباسية ، وانتهاء بتركيا العثمانية ، وفارس الصفوية ، فانعدمت الملكية الخاصة في الارض التي اقرها الرسول محمد ، بملك للدولة عام ومطلق، اما القرامطة فقد اعادوا للفلاح حيازة الارض والتصرف بها ودعمه كاملا دون ان تكون الارض ملكه.

يقول اندرسون (قد ادى الغياب القانوني للملكية الخاصة الثابتة للارض ، الى الدمار الاقتصادي للزراعة في الامبراطوريات الاسلامية الكبرى)[١] والمواطن في الدولة القرمطية متساوي مع الاخر دون ميزات في قضية حيازة الارض يقول اندرسون واصفا نظامهم" يبدو من شرح لويس ان النظام القرمطي في الخليج كان اقرب نظير اسلامي في التاريخ لدول المدائن في العصر الكلاسيكي القديم، وهي مجتمعات اسبرطية لمواطنين متساوين ، قائمة على الرق الزراعي" [٢]

حدد الدكتور الدوري ان الاراضي المقطوعة كانت على عدة اصناف يغيب في كلها دور الفلاح الذي وجد لدى القرامطة ما ينعش نفسه في ان تكون الارض بحيازته وله مطلق التصرف بها بمساعدة الدولة ، اصناف الاقطاع هي :

[١] - بيري اندرسون، م س ، ص ٨٦
[٢] - بيري اندرسون، م س ، ص ٩٨

١- الضياع السلطانية : وهذه تعود للخليفة او الامير البويهي ، وهي اراضي صادرها العباسيون من الامويين ،وتوسعت نتيجة الشراء، او بمصادرة ضياع موظفين ماتوا او فصلوا او عن طريق الالجاء، وكانت منتشرة في اغلب مناطق ثورة القرامطة "جوار بغداد والكوفة والبصرة وواسط والبطيحة والموصل والاهواز وايران" وقد كان الخليفة واتباعه متحكمين بها بشكل مباشر ،فكان لام المقتدر مثلا : ديوان خاصا لادارة ضياعها [1] ، استولى على اغلب هذه الضياع معز الدولة البويهي سنة ٣٣٤هـ /٩٤٥م، واعطى للخليفة اقطاعا صغيرا محلها.

٢- اراضي الاقطاع: وتقع اكثر الاراضي المزروعة في هذا الصنف، يقول الخوارزمي في تعريفها نقلا عن الدوري" ان يقطع السلطان رجلا ارضا فتصير رقبتها له ، اي: ان الارض تصبح ملكا لصاحب الاقطاع ، وحق الملكية لا يوجد طبعا ، فالمقتدر اضطر لحصول ازمة مالية الى استرجاع اقطاعات سابقة وانشأ لها ديوانا خاصا هو " ديوان المرتجعات" ، مما يدلل على هيمنة المركز على الاراضي وعلى اصحاب هذه الاراضي دفع الضرائب وكان الخليفة مانح الاقطاع الاول ، ثم شاركه امير الامراء سنة ٣٢٤هـ -٣٣٤هـ واخيرا اصبح الامير البويهي بعد سنة ٣٣٤هـ ينفرد بمنح الاقطاعات.(هذه كلها تفاقمت بعد سنة ٣١٦هـ حيث قضي على اخر ثورة للقرامطة بقيادة الحريث بن مسعود في سواد العراق) ولكنها كانت موجودة وبكثرة منذ بدايات القرن الرابع الهجري بل قبلها مارسها كل الخلفاء من امويين وعباسيين. وفاقمها البويهيون فيما بعد.

---

[1] -عبد العزيز الدوري، م س، ص ٣٨

وهذه الاقطاعات نوعين :

أ- اقطاع التمليك: وبموجبه تكون لصاحبه ملكية تامة وعليه دفع العشر .

ب- اقطاع الاستغلال: لاعطاء الارض بالايجار او بالضمان او بالمزارعة ، وكان يعطي عادة من الصوافي مقابل نسبة من الحاصل او دفع مبلغ نقدي محدود، وهذا الاقطاع ناشيء عن تسلط الجند (في العصر البويهي) وكان يعطى لرجال الجيش من ارض الخراج ويفترض فيه ان يفيد المقطع من الوارد ، ويدفع شيئا منه للدولة ، والجند لايدفعوا شيئا طبعا. ونوع الاقطاع كان يعتمد في الواقع على مركز صاحبه - اي: الطبقة البيروقراطية فلذلك هنالك عدة انواع من الاقطاع الاستغلالي:

اقطاعات مدنية : تمنح للموظفين بدلا من الرواتب ، اي انها تمنح لكبار الموظفين يقول عنها الدوري : كانت اكثر انواع الاقطاع شيوعا في مفتتح القرن الرابع الهجري ، فعندما يتسلم الوزير مقاليد الوزارة يعطى الاقطاعات هذه فاذا ما عزل اخذت منه وسلمت الى خلفه في الوزارة ، فما كانت تورث، وكانت الاقطاعات الوزارية واسعة يديرها ديوان خاص يسمى "ديوان اقطاع الوزراء" وعلينا ان نتبين الظلم الكبير الذي يحيق بصغار الفلاحين ، لانهم محرومين من اية ملكية للارض ، وانما الارض للدولة ولرجالاتها ومن يعمل معهم من كبار الموظفين ، ففي عام ٣٢٥هـ اي ما بعد ثورات القرامطة في العراق ، قدم ابن رائق احد الامراء ليحكم ، ضامن ولاية الاهواز اقطاعات يبلغ واردها خمسين الف دينار .هذا يعني انه استمر الحال في الاقطاعات بعد فشل ثورة القرامطة في سواد العراق ، ولم تؤثر شيئا بعدها على سياسة الدولة .

اما الاقطاعات الخاصة فكانت تمنح الى افراد لهم خدمات خاصة او قابليات خاصة دون ان يكونوا موظفين كالشعراء والمحدثين والمغنين [1] وهؤلاء الشعراء والمثقفين ورجال الدين ليسوا من طبقات المجتمع الاساس التي لها علاقة بوسائل الانتاج [2] وهذا بسبب ان اكثرهم لم يكن لهم ارتباط عضوي مع طبقة معينة من طبقات المجتمع فارتباطه متعلق بمصلحته التي تعمي عنده الرؤية ، فلا تجعله يفرق في اغلب الاحيان بين حاكم جائر واخر عادل، فالحاكم عدل ما دام كريما في الهبة ، فان شحت يده وقصرت عن العطاء فهو لايستحق من الشاعر ذكرا ، ان سلم من الهجاء والقدح، والحاكم يجد في الشاعر دمية صغيرة تسد فراغه ،وهكذا لايشكل هؤلاء الشعراء طبقة اساس في المجتمع ولكنهم اصحاب اقطاعيات اي: بعضهم، بسبب تقربهم من الخلفاء ، وكانت الطريقة المتبعة هي ان يجلب صاحب الاقطاع الفلاحين لاستغلال الارض ويجهزهم بالمال والبذور ، كما انه يقوم بكري القنوات ويدفع للخزينة مقدارا من المال ويتمتع صاحب الاقطاع (المقرب من الدولة) بملكية الارض ويحق له توريثها ،ويعفى من الضرائب ومن اي تدخل حكومي لغرض النماء.ثم يدفع ضرائب للخزينة ، الى ان جاء البويهيون فسيطروا على كل شيء وبسبب قوتهم ما كانوا يدفعون اية ضريبة للخليفة

والسؤال هنا: هل كان الفلاح في العصر العباسي يواجه ملاكا خاصا ام كان يخضع مباشرة للدولة ؟ اذ يقول ماركس: لم يواجه المنتجون

---

[1] ـ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، م س ، ص٤١

[2] ـ عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٧١، ص٤٩، الهامش.

المباشرون ملاكا خاصا ، بل كانوا خاضعين مباشرة كما هو الامر في اسيا، لدولة تقف فوقهم بوصفها ملاكا وملكا في ان واحد، فان الريع والضرائب تكون متطابقة او بالاحرى لا تكون ثمة ضريبة تختلف عن هذا الشكل، في الريع العقاري، وفي هذه الظروف، لا تكون ثمة ضرورة لقيام ضغط سياسي او اقتصادي اقوى من ذلك الذي يخضع له جميع رعايا تلك الدولة ، فالدولة اذن هي السيد الاعلى، وتمثل السيادة هنا في ملكية الارض المتركزة على النطاق الوطني، الا انه من جهة اخرى ، لا توجد ثمة ملكية خاصة للارض، بالرغم من وجود حيازة خاصة ومشتركة للارض معا" [1] وهذا شيء صحيح تماما في العصر العباسي حيث كان الفلاح يواجه /المالك البيروقراطي (موظف كبير في الدولة) جابي الضرائب مرتبط بالخليفة مباشرة ، وبالتالي يخضع الجميع للمركزية فالدولة هي السيد الاعلى الذي يتصرف بكل شيء،وكانت بعض الاراضي تمنح لكبار موظفي الدولة خصوصا الوزراء وسرعان ما تؤخذ منهم عند عزلهم مما يدلل على تسلط الدولة (الخليفة) هنا وقد اوضحنا هذا في انواع الاراضي ، والخليفة وهو صاحب المشاريع الاروائية التي تديم الزراعة ،وهنا يقول انغلز" بغض النظر عن ضخامة عدد النظم الاستبدادية التي قامت وسقطت في فارس والهند ،فان كلا منها كان يدرك تماما انه قبل كل شيء المقاول المسؤول عن الصيانة الجماعية للري ،في اودية الانهار والتي لا تقوم بدونها قائمة للزراعة"[2] وقد اعتنى المعتضد كما يشير الدكتور عبد العزيز الدوري عناية خاصة بحفظ نظام الري، ومن الامثلة

---

[1] - بيري اندرسون، م س ، ص٦٥

[2] - م س، ص ٦٧

المهمة على ذلك : كريه لقناة الدجيل وتطهيرها من الرواسب، ويذكر الصابي قصة تدل على مدى اهتمام الخليفة بالاشراف على توزيع المياه، فقد شكى بعض زراع منطقة بادوريا الى الخليفة بان بعض اصحاب الضياع التي تروى من الفرات تأمروا مع مهندسي الحكومة على تضييق ابواب قنطرة(دمما) الواقعة على صدر نهر عيسى الاخذ من الفرات، ليستطيعوا بذلك الاستئثار بالماء، فأرسل الخليفة وزيره مع بعض المهندسين لدرس القضية في محلها ، واستجوبت اللجنة زراع المنطقة ، وقررت توسيع الباب الوسطي للقنطرة وجعل سعته ٢٢ ذراعا [١] .

لقد اشر الدكتور الدوري اسباب سطوة الاقطاع على صغار الفلاحين

١- انتعاش التجارة منذ قيام الخلافة العباسية لان العراق اصبح مركز هذه الخلافة وعلا شأن طبقة التجار كثيرا خاصة بعد انتشار المؤسسات الصيرفية ،فانتقل المجتمع تدريجيا الى طور تجاري صارت فيه التجارة ركنا من اركان الحياة الاقتصادية ، بعد ان كانت ثانوية وادى هذا التوسع التجاري الى ظهور طبقة اقطاعية اخذت تستثمر اموالها بتوسيع تجارتها وباقتناء الاراضي فادى ذلك الى انتشار الملكيات الزراعية الكبيرة[٢] .

٢- تعرض كثير من الفلاحين الى قسوة جباة الضرائب ، وعلى العكس من ذلك نجد ان نفوذ الخلفاء وكبار رجال الدولة واصحاب الملكيات الواسعة كثيرا ما كان يرغم جباة الضرائب على التغاضي عن جزء من الضرائب المستحقة لديهم والقسوة كانت على اصناف فقد اعترف المامون نفسه بتعسف

---

[١] ـ الطبري، نقلا عن الدوري ، م س ، ص ٥٢

[٢٢] ـ عبد العزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ،م س ، ص١٢٠

عماله عندما تجشم الانتقال الى مصر لقمع اكبر انتفاضة فلاحية سنة ٨٣٢م ضد الضرائب فقد صرخ في وجه واليه عيسى الرافقي " لم يكن هذا الحدث العظيم الا من ظلمك وظلم عمالك (جباة الضرائب) حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد " ((المقريزي)) وكان من وسائل تحصيل الضرائب (منع الناس من الصلاة ، وغل ايديهم وتعليق الحجارة في اعناقهم، وهم تحت الشمس وقوف وتسليط السباع والزنابير والسنانير عليهم) وكانت الضرائب على حد تعبير المقريزي مفروضة على كل شيء الا على الماء والهواء، ويعتبر العفيف الاخضر ان الضرائب استمرت في العصور الوسطى ولم يرفع سيفها الا على يد الشيوعيين القرامطة عندما اسسوا اول سلطة ثورية في الجزيرة العربية [1] والاقطاعي الجابي للضرائب في الدولة الاسلامية ليس سيد ارض ، بل سيد سلطة ولا يتمتع بأي حصانة او ضمانة بل غالبا ما يدفع الضرائب ويمكن نقله الى اقطاعة ادنى ، مصادرته وقتله اذا خرج على دولة المستبد، وهذا هو القاسم المشترك كما يسميه العفيف الاخضر بين اعضاء البيروقراطية والرعية في دولة المستبد حيث لا احد امن على نفسه وممتلكاته والعقاب ينقض كالصاعقة على التاجر والبيروقراطي وعلى ذويه ومن له بهم اوهى الصلات كما حصل مع البرامكة ونكبتهم واقطاع الارضلا يخضع لاي ضابط سوى ارادة السلطان وكلمته العليا .والضرائب المفروضة على الناس انذاك هي:

الخراج، العشر، الصدقات، الجوالي، مال الجهبذة، الاحداث، سائر وجوه الجبايات، وهكذا نجد انواع كثيرة من الضرائب والمكوس"ضريبة كانت

[1] ـ البيان الشيوعي ، م س ، ص ٣٠٢

تفرض في البصرة على البضائع المحمولة في السفن والمجلوبة بحرا اليها، ويدعى محل جبايتها "المراصد" [1] تتصف انها ليس لها حد معين، والثانية ان جبايتها تعتمد على اهواء الموظفين البيروقراطيين من جهة وعلى الوضع العام من جهة اخرى . وكانت هنالك ضرائب ليس لها مكان في الدين مثل ضريبة الارث التي وضعت سنة ٢٥٦هـ في خلافة المعتمد العباسي حيث كانت الدولة تأخذ جزء من الورث قبل ان يوزع على ورثة المتوفي. وكانت الضرائب تجبى حتى في زمن البويهيين مما يدلل ان الاقوام الغازية الشرقية تتخذ نفس نمط الانتاج الذي تمتع به الدولة المحتلة من قبلهم وكانت الضرائب تفرض ايضا على الحوانيت والحمامات والاسواق وضريبة تفرض ايضا على الدور والبنايات وطرق الجباية كثيرا ما كانت عنيفة ومرهقة ،يقول الفقيه ابو زبير الجبائي ان نظام العباسيين المالي كان فاسدا ،وان طرق الجباية عندهم كانت مجحفة وغير عادلة .

واهم انواع الضرائب مما مر هي ضريبة الخراج :وهي ضريبة تجبى على عدة اصناف من الاراضي :

١- الاراضي التي فتحت عنوة ثم جعلت وقفا للمسلمين ، ويتفق الفقهاء على جعل السواد في هذا الصنف[2] (اي ان غالبية اراضي العراق تقع في هذا الصنف ، مما يدلل انها كانت ضريبة عامة ومكلفة للناس وباهضة عليهم) .

٢- اراضي تخلى عنها اصحابها خلال فترة الفتوحات فانتقلت الى المسلمين ويبقى هذا الصنف على راي الدكتور الدوري من الاراضي مع الصنف

[1] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، م س ، ص ١٩٤
[2] - م س، ص١٧٨

السابق اراضي خراج ويعتبر الخراج المفروض على الارض ايجارا لها ، يدفعه الزارع سواء أكان مسلما ام لا [1] الاراضي التي خضعت للمسلمين صلحا ، او (ارض الصلح) وهذه اما تنتقل ملكيتها - حسب شروط الصلح- الى المسلمين فتصير وقفا دائما لهم او تبقى ملكا لاصحابها ، وفي الحالة الثانية تعفى من الخراج، متى اسلم اصحابها، وتدخل بعض اراضي السواد في هذا الصنف ، وتقدير الخراج ، فيترك الى رأي الامام، بعد ان تؤخذ قابلية الارض بعين الاعتبار ، ويتوقف مقداره على خصب التربة ونوع الحاصل ونوع السقي - طبيعيا او صناعيا- ويضيف بعضهم الى ذلك البعد عن الاسواق . ولم يكن هنالك عدالة اجتماعية في جبي الضرائب يقول الماوردي" يلزم معاملة اهل الخراج باللطف وارجائهم في حالة عجزهم عن الدفع"[2] الا ان الواقع كان غير ذلك فقدكان ضغط الجباة احد العوامل التي جعلت اهل السواد يلتفون حول حمدان قرمط للخلاص من اضطهاد الدولة لهم في جباية الضرائب. والسيطرة على الاراضي ، فبناء على ما مر من تعريف الخراج تعتبر اغلب اراضي سواد العراق ضمنه وبالتالي سيطرة الدولة المركزية وكبار الموظفين عليها.ويجبى الخراج بطريقة من الطرق الثلاثة التالية :

- بفرضه على وحدة المساحة من الارض الزراعية ، كما فعل عمر بن الخطاب في السواد.
- بفرضه على وحدة المساحة من الارض المزروعة .
- بأخذ نسبة معينة من الحاصل ، اي بالمقاسمة.

[1] - م س
[2] - م س ، ص ١٧٩

لذلك وبناء على ما مر اضطر اهل السواد الى ظاهرة "الالجاء" وهي اضطرار المزارع الصغير الى تسجيل ارضه في ديوان الخراج بأسم احدى الشخصيات الكبيرة مقابل التنازل له عن جزء من المحصول وذلك نظير حمايته [1] حمايته من اضطراب الوضع وضغط الجباة ولما كثر عدد الملجئين في عهد العباسيين ، اضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بهم، اطلق عليه "ديوان الضياع" غير ان هؤلاء تحولوا في النهاية الى مجرد مزارعين في الارض بينما اصبح الملجأ اليهم ملاكا لها، وذلك بسبب نظام المصادرات ، وهكذا ادى انتعاش التجارة بالاضافة الى ما درج عليه صغار الفلاحين من الالجاء الى انتشار الملكيات الفردية الواسعة على حساب صغار الفلاحين مما دفعهم الى التذمر وشعر هؤلاء المتذمرون من العرب والفرس بضرورة التكاتف فيما بينهم لمواجهة وضعهم السيء امام كبار الملاك الذين تعاونوا بدورهم بدافع المصالح المشتركة[2] ، وهذا الصراع الطبقي ادى الى انتفاضات بدأت منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وكانت ثورتا الزنج والقرامطة في مقدمة تلك الثورات .ومن عوامل نجاح ثورة القرامطة ، ثورة الزنج نفسها ، حيث نبهت الاذهان في جنوب العراق الى ضرورة استنكار الاوضاع الجائرة ،فاسهمت بنصيب وافر من انجاح ثورة القرامطة وكان تصحيح الوضع المادي الجائر هو ما ابتدأ به الاهوازي مع حمدان. وقد اعتبر الدكتور فيصل السامر ان ثورة الزنج مهدت الطريق الى قيام بعض الحركات المهتمة بالوضع الاجتماعي وعلى راسها حركة القرامطة "وانه وان لم يقم تعاون بين صاحب

[1] ـ العليان، م س ،ص٢٣
[2] ـ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص١٢٧

الزنج وحمدان قرمط ، فان ثورة الزنج مهدت التربة لكي ينشر القرامطة دعوتهم على نطاق واسع ، لان الدعوتين وان اختلفتا في الاسلوب والبرنامج اتفقتا في ضرورة تغيير النظام القائم "[1] ويعتبر لويس ماسينيون ان هنالك علاقة بين راشد القرماطي وهو احد قواد الزنج وبين القرامطة ، ويستطرد ماسينيون، ان صاحب الزنج استطاع بمساعدة طحان وبائع ان ينال يمين الاخلاص من اتباعه على الطريقة القرمطية وهو يمين بالطلاق، ولكن فيصل السامر يعتبر ان "القرماطيين هم طائفة من الزنج اكتسبت هذا الاسم من موطنها الاصلي في افريقية ، ولم يكن راشد سوى احد افراد هذه الطائفة "[2] وبالتالي تنتفي اية علاقة مباشرة بين القرامطة والزنج .

عموما ان القرامطة احتجوا بان الطبقة المالكة احتفظت بثروتها ومصالحها وقد لجأت الى قوتها الاقتصادية تدافع فيها عن وجودها ومكانتها وغدت الدولة سلاحا بيد الطبقة المالكة ، ارهاق للقوى المنتجة ، اخضاعها لمشيئتها وانتزعت طبقة اصحاب الاموال زمام القوى الاقتصادية شيئا فشيئا [3]عارف تامر اعتبر ان الطبقة المالكة لرؤوس الاموال انذاك هي طبقة رأسمالية واستخدامه لهذا المصطلح نراه غير موفقا وغير دقيق ،المهم ان القرامطة تعاهدوا على محاربة الاحتكار وتحكم طبقة قليلة باغلبية محرومة وهذا هو اساس برنامجهم في العدالة الاجتماعية . ووضع الضرائب عن الناس واستبدالها بضرائب قليلة توزع بينهم بالتساوي.

---

[1] ـ فيصل السامر، م س، ص٧٩.
[2] ـ م س، ص ٨٧
[3] ـ عارف تامر، م س ،ص٨٣

لم تكن العوامل الاقتصادية وحدها التي ادت الى انتشار دعوة القرامطة في سواد الكوفة ،بل ان الاحوال الاجتماعية بهذه المنطقة كان لها اثر كبير في انتشار هذه الدعوة وهنا يقول المؤرخ البراقي نقلا عن عليان "كان فيها طبقات من الامم فكانت الافكار فيها تتضارب، والنزعات تتخالف"

يتضح اذن ان السبب الرئيسي لقيام الحركة هو سوء الاحوال الاقتصادية والاجتماعية .

كما تحدث مسكويه في كتاب (تجارب الامم) بمعلومات إضافية في هذا الصدد فالاقطاع العسكري اصبح اهم سمات هذا العصر وبسبب نقص السيولة المالية في تسديد رواتب الجند في جيش العباسيين لم تجد الخلافة العباسية بدا من ان تسلم هؤلاء الجنود مقاطعات ارض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية بدلا من الرواتب ويضيف د محمود اسماعيل ان هؤلاء الجند لم يحسنوا زراعة إقطاعياتهم ولقلة درايتهم بشئون الزراعة أوكلوا ادارة مزارعهم الى طائفة الدهاقنة من الفرس الذين أسرفوا في تسخير الفلاحين والعبيد للعمل في هذه الضياع .

واصبحت ظاهرة الاقطاع العسكري واضحة في زمن البويهيين حيث كانت السنة ٣٣٤هـ حاسمة في شمول الصفة العسكرية للاقطاع اذ ان معز الدولة اعطى الاقطاعات لقادته وخاصته ثم توسع بحيث شمل قسما من الجند واتجه الاقطاع ليكون بديلا عاديا للعطاء[١] ، ويعتبر الدكتور الدوري ان اثر الاقطاع العسكري وجشع المقطعين بالحصول على اكبر وارد دون النظر الى الري او

---

[١] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٤

العناية بالارض، والى ضغطهم على المزارعين وترك الكثيرين منهم اراضيهم ، مما كان له اثر ملموس على تدهور الزراعة وتدني الانتاج.

ويذكر الدكتور عبد العزيز الدوري في هذا الصدد ان الخلفاء العباسيين وخاصة بعد ادخال المماليك الاتراك في الجيش من قبل المعتصم ، صاروا يقطعون القادة احيانا حيث اقطع الواثق (ايتاخ) قطيعة على القاطول، وكانت ل(بغا) اقطاعات ول(وصيف) ضياع في اصبهان والجبل واقطع محمد بن عبد الله بن طاهر سنة ٢٥٠هـ من صوافي طبرستان[1] اي قبل ثورة القرامطة في السواد ، وهكذا يتضح معاناة الفلاحين نتيجة سيطرة هؤلاء القادة العسكريين على الارض . "وهؤلاء الجنود لم يتركوا للادارة المركزية اي نفوذ في اقطاعاتهم وتحكموا في زرعها كما يشاؤون واعتادوا ادارتها بواسطة وكلائهم ولم يحتفظوا بسجلات وارداتهم ، ولم يكن للمقطعين من حيث المبدأ سلطة قانونية على الزراع ولكنهم في الواقع تحكموا بهم وكثر التجاوز والمصادرة وفرض الرسوم وكثر الالجاء من قبل الملاكين الى المقطعين العسكريين تجنبا للابتزاز والارهاب كما هرب الكثير من الفلاحين تاركين الارض لهم "[2]

وهذه المعاناة سببها هؤلاء الموظفين ، فالملك او الخليفة يحكم من خلالهم فهم يسيطرون على اوجه النشاط الاحتكاري الحكومي في السياسة والاقتصاد والدين، مما يحول بين القوى غير الحكومية وبين تقدمها نحو البلورة في هيئات مستقلة ذات نفوذ كاف لموازنة ثقل الحكومة ، ولذلك ففي راي ويتفوجل[3]

---

[1] -عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، م س ، ص ٤٣
[2] - ن م ، ص ٤٠
[3] -احمد صادق سعد ، في ضوء النمط الاسيوي للانتاج، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩، ص٩

"الطغيان المائي لا يسمح بوجود سياسي غير حكومي فالحكومة المائية هي حكومة تعتمد على التخويف "اذ كانت حكومة العباسيين حكومة قائمة على تخويف الناس كونها حكومة مائية.

كما كان هنالك ادخار يقوم به كبار الموظفين ويسبب غلاء في الاسعار كبير جدا يكون في صالح التجار والموظفين ، وسببا في تردي احوال الفلاحين واهل الصناعات ،ويظهر ذلك سنة ٣٠٧هـ ، حين اخر حامد بن العباس – ضامن ضرائب السواد- بيع حاصله حتى ارتفعت الاسعار في بغداد الى درجة خطيرة، وانقذ المقتدر العباسي الموقف[1] خوفا من ثورة العامة عليه والتي كان الغالبية الكبرى من اهلها في السواد مع القرامطة في ثورتهم

وبسبب كون الامبراطورية العباسية امبراطورية كولونيالية[2] اذ سيطرت على مساحات شاسعة من العالم بحيث استخدمت عناصر من اثنيات وقوميات متعددة وصعودهم في سلم الجهاز البيروقراطي والعسكري ودخل فيه الترك والفرس واصبحوا يسيطرون على مقدرات الدولة ويساهمون في الظلم والتعسف وهنا لا بد ان نشير الى ان كثيرا ما كان يتغير راس الدولة بالوراثة او الانقلاب او الغزو ، وفي احيان يأتي السلطان الجديد معتمدا على تاييد الحركة الشعبية وخاصة الفلاحية ، ولكن سرعان ما يقهر تلك الحركة ويعدم زعمائها ويعيد النظام الى ما كان عليه او يكاد، وعندما تشتد الهوة بين

---

[1] - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي ، م س ، ص ٢٣٨

[2] الاستعمارية وتعني بالانجليزية COLONIALISM وتأتي بمعنى الهيمنة او السيطرة لدولة ما على اراضي دول اخرى وشعوبها، وقد درجت الترجمات العربية على توصيفها بالاستعمارية ، ونشأ المصطلح بالتوازي مع ازدهار الرأسمالية ، كقوة عملاقة صاعدة في العالم الغربي، والغزو الاوربي لاسيا وافريقيا، ثم بلوغه المرحلة الاعلى ، مع القطب الامريكي المتعاظم والمسماة بالامبريالية ، اذ وجد البعض فيها رديفا له .(ويكيبيديا)

الحاكمين والمحكومين لا يبقى امام الحكام الا ان يبنوا جيوشا من المرتزقة الاجانب تماما" الاغريق-الفرس-الاتراك-الارمن" بل ويصل التغريب بالنسبة لجهاز الدولة الى درجة ان يتكون من رقيق مستجلب يتكلم لغة اخرى وتحكم قوانين خاصة العلاقات بين افراده"المماليك" وهذا ما حصل في الدولة العباسية عندما كان يتغير خليفة بانقلاب عليه او غزو خارجي او وراثة فهو يعد الناس بالرفاهية ،ولكن سرعان ما تتغير رؤيته للمجتمع ويبدأ بممارسة السلطة المركزية على الفلاحين فتزداد الهوة بينه وبين الناس فيسخر الفرس او الاتراك على الناس كي يتعاملوا معهم ويدخلونهم بالجيش ويعطوهم الاراضي وهكذا ينشأ الاقطاع العسكري ، بالاضافة الى كون الدولة العباسية دولة كولونيالية فقد نشأ الإقطاع في هذه المرحلة كنمط انتاج اسيوي وهو نموذج للمجتمع الآسيوي الذي أشار اليه ماركس ، حيث كانت الدولة العباسية" الدولة المركزية" تسيطر على كافة الاراضي الزراعية عبر متنفذيها وكما اوضحنا الاقطاع العسكري الذي شاع انذاك ، بالنتيجة كانت الدولة تحتكر الاراضي وتحتكر كذلك وسائل الانتاج ، وكانت الملكيات الخاصة في الاراضي من اصول متنوعة ، فيذكر الدكتور الدوري ان الملكيات الاولى من اقطاع الخلفاء لبعض الافراد والجماعات وهو ما يسميه الماوردي اقطاع التمليك[1] حيث يتضح سيطرة الدولة عليه وان بشكل غير مباشر ، وهناك مصدر اخر لاراضي الملك، وهو بيع اراضي الخزينة او "الصوافي" وضياع الخلافة كلما وجد الخليفة نفسه في ازمة مالية وقد اقتنى الموظفون ، وغير الموظفين الذين كانت حالتهم المالية حسنة الضياع لانها كانت تعتبر ملكية مستقرة ومورها نسبيا اكيد ويضيف

[1] ـ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، م س، ص ٤٥

الدوري "كان الوزراء عادة يقتنون ضياعا واسعة" تكون على الاغلب متفرقة في عدد من المناطق ،فمثلا كانت للوزير علي بن عيسى ضياع في ديار ربيعة والموصل والسواد ودمشق ومصر واهم الملاكين فهم الخليفة وكبار الموظفين وقد حصلوا على الاراضي بسبب الالجاء الذي تحدثنا عنه . كذلك كانت الحاجة العاجلة لدفع رواتب الجند والموظفين سببا في انتشار "الضمان" في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري ، حيث اعطيت مناطق ومقاطعات بالضمان في ارض السواد(العراق) ويتولى الضامن جباية الضرائب بمساعدة الحكومة او دونها، ولكنه يخضع لاشراف الدواوين وقد يكون الضامن موظفا، او قائدا او تاجرا، او وزيرا، وهكذا كبار الموظفين هم المتصرفين بالارض في كل الاحوال،

وهنالك ملكية للارض مرتبطة بالخليفة وكبار الموظفين وتسمى"الايغار" حيث يهب الخليفة ارضا يعفي مستلمها من الضريبة، وبذلك يكون في وضع ممتاز ، كما لا ننسى الدهاقنة وهم من كبار الموظفين المرتبطين بالدولة .فكان لكل قرية رئيس يدعى "دهقان" يشتغل اهالي القرية له، ثم ظهر بالتدريج ملاكون عرب جدد بجنب الدهاقنة الذين هبطت منزلتهم الى مجرد جباة وكمكافئة لهم على هذه الخدمة، اخذ الدهاقين يجبون من الزراع ضريبة اضافية تسمى حق الدهقنة كانت مبعثا لكثير من التعدي والاساءة [1] وبالتالي يسيطر على الفلاح ، الخليفة والوزير والملاكون والدهاقنة وكبار الموظفين وهكذا الكل ياخذ من الفلاح ، فكيف لا يتبع الفلاح ثورة جديدة تخلصه من كل هؤلاء وتجعل الارض ملكا مشاعيا لهم. اذن نستشف ان الاراضي كانت تتبع

[1] - م س ص٥٩

الدولة كليا وكبار موظفيها مسيطر على الارض وليس للفلاح اي شأن يذكر سوى رزاعتها، ويذكر انه في القرن الرابع الهجري، صار الدهاقين بمنزلة الشيوخ والاشراف ، وهذا طبعا بفضل دعم الدولة "السلطة المركزية لهم" يستشارون عادة في مشاكل الري والاراضي الواقعة في مناطقهم، ويطلق على الزراع عادة اسم الاكرة والفلاحين [1] ومن هنا بعد كل هذا الضغط الذي رايناه على الفلاحين او الاكرة نجد ان بعضا منهم صاروا من كبار قادة ثورة القرامطة ومنهم حمدان قرمط الذي كان اكارا بسيطا كما راينا فيما سبق وكبار الملاكين المتمثلين بالقواد الكبار والوزراء والتجار وغيرهم كانوا يسكنون المدن وينوب عنهم الوكلاء. وهنالك ملاكون صغار خارج نطاق من ذكرنا من كبار الملاكين يزرعون اراضيهم ويقيمون في القرى ، ويشار اليهم عادة ب"التناء" بتشديد النون ، ولكن وضعهم كان يتدهور احيانا فيهبطون الى سوية الفلاحين [2] وذلك بسبب السيطرة المركزية عليهم ايضا فيضيعون وتضيع جهودهم المالية وبسبب عدم وجود دعم للفلاحين ولغيرهم من قبل الدولة انذاك.

وامتلكت الدولة وسائل الانتاج مثل الاراضي كموارد طبيعية والادوات والمعادن والاحجار والماء والمزروعات والحيوانات فالدولة تسيطر على وسائل الري ،وهنا بالتحديد كانت "الدولة العباسية تشرف على توزيع المياه ،وكانت مسؤولة بالدرجة الاولى عن انشاء القنوات والسدود وخزانات المياه والمسنيات ويتولى ذلك ديوان الخراج، وكانت تستخدم لذلك الغرض عددا

[1] - م س ، ص ٥٩
[2] - م س ، ص٦٠

كبيرا من المهندسين"[1]

وحتى الفلاحين فهم عبيد اجراء لديها والدولة تملك الفلاحين بسيطرتها عليهم ولا يملكهم افراد كالافارقة وقد اسمى ماركس هذا الامر ب"العبودية المعممة" لتمييزها عن العبودية الفردية .والفلاح في زمن الدولة العباسية عندما تباع الارض ينتقل مع الارض الى المالك الجديد، اي انها عبودية معممة حسب نظرية ماركس، وهنا يتحدث الدكتور عبد العزيز الدوري عن هكذا نوع من العبيد ويسميهم "الاقنان" الذين كانوا يعيشون في القرى ويعتبرون جزءا من الارض ، وكان هؤلاء في الاصل من الفلاحين النبط الاحرار ، وليس لهم ما يملكون الا مقدرتهم على العمل، وعندما تنتقل ملكية الارض التي يشتغلون عليها ، سواء كان ذلك بالفتح او بالشراء، كانوا يبقون على الارض، وكان السادة الجدد يعتبرونهم جزء من ملكيتهم الجديدة ويعاملونهم معاملة العبيد ، ويضيف الدوري "انه لم يكن بالامكان تحرير الاقنان او بيعهم ، لانهم ليسوا عبيدا من الوجهة القانونية وان كانوا كذلك في الواقع ولكنهم بقوا مرتبطين بالارض"[2] وهكذا نرى كيف ان نظرية ماركس في العبودية المعممة تنطبق تماما على فلاحي العصر العباسي كثيرا مما كان سببا في انتفاضتهم تجاه العباسيين واللجوء الى القرامطة .

وهنا فان حمدان قرمط كان عبدا معمما ، لانه كان فلاحا بسيطا عندما تباع الارض فهو ينتقل معها ، ولكن هذا العبد المعمم اصبح قائد اكبر حركة فلاحية تحررية عرفها التاريخ الاسلامي .وهؤلاء الاقنان من المؤكد

[1] ـ عبد العزيز الدوري، م س ، ص٦١
[2] ـ عبد العزيز الدوري، م س، ص ٧٨

انهم كانوا من اوائل من اتبع حمدان في ثورته ، ، لذلك لم تستثمر ثورة حمدان قرمط العبيد في فلاحة الارض واستغلالهم ،وانما كانوا هم سادة الارض في الثورة.

ومن هنا تكون الاستبداد في المركز بغداد تجاه الامصار الاخرى لاسيما البصرة والكوفة والبحرين وكل المناطق التي نشأ بها القرامطة بالنتيجة استعبد الناس في هذه الامصار من قبل المركز "بغداد"من قبل فئة حاكمة مستبدة وكانت هذه الفئة تصادر فائض منتوجات القرويين في سواد العراق، ان الطبيعة الراكدة للمجتمع كانت رهينة عاملين متداخلين من الظروف يفسران ما قبل انطلاق الثورة القرمطية : ١- الاعمال العامة التي تخص الدولة المركزية "السلطة العباسية في بغداد" تحلل المملكة في قرى تجسد تشكيلة اقتصادية منفصلة قائمة بذاتها ، حيث نجد قرى كثيرة منتشرة في عموم سواد العراق تجسد تشكيلات اقتصادية منفصلة عن بعضها البعض من ناحية ارتباطها بالدولة مما يسهل سيطرة الدولة عليها. ٢- كذلك فان الركود الذي حصل في المجتمعات ما قبل نشوء الحركة القرمطية جاء من "الوحدة العضوية بين الزراعة والصناعة اليدوية في هذه القرى التي تحوي في داخلها كل الظروف المؤاتية للانتاج وفائضة"ماركس، المكونات الاقتصادية قبل الراسمالية" ، الشيء الذي قعد بها عن التطور الاقتصادي بشكل اكثر من اي مجتمع اخر ، وهنا تجد ان الفلاح نفسه يقوم بعدد من الصناعات اليدوية كي يساعد نفسه ، ولكن لا فائدة من ذلك فالركود قائم بسبب مركزية الدولة وهيمنتها . وبالتالي فان تقسيمات العمل الاجتماعي لم تتطور في سواد العراق لعدم تطور قوى الانتاج المتمثلة في الوحدة العضوية بين الزراعة والصناعة . كما يظهر في نمط

الانتاج "تقسيم متقدم للعمل هو ذلك الذي بين العمل الذهني الاشرافي واليدوي التنفيذي" فالحضارات النهرية كالحضارة العباسية هي التي اخترعت الادارة على نطاق واسع ، تلك الادارة التي مكنت من تعبئة جيوش الفلاحين في بناء السدود وحفر القنوات وتكوين فرق عسكرية مهولة العدد ومن حيث علاقات الانتاج فالتكوين الاسيوي تكوين طبقي ،وظهور الدولة نفسه دليل عليه ، وفي هذا التكوين الفلاحون هم الطبقة المستغلة"بفتح الغين" الاساسية وهم المنتجون الذين لايملكون وسائل الانتاج وخاصة الارض ويعيشون في مشتركات قروية مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية وبداخلها تقسيم بدائي للعمل بين الزراعة والحرف والرعي ، اما الذي يملك رقبة الارض فهو جهاز الدولة "المشترك الاعلى كما يسميه ماركس" ممثلا في اخر الامر في الملك او فرعون او كسرى ونظيف اليها ما لم يظفه ماركس "الخليفة" وهنا العباسي بالتحديد الذي يملك الارض عبر مجاميعه اما المستغلون "الفلاحون" فهم لا يملكون سوى قوت يومهم.

الشيء الذي لم يكن يتصف به المجتمع العباسي ما قبل الحركة القرمطية هو ان قوى الانتاج الجديدة لم تكن امتدادا كميا لقوى الانتاج القديمة / كأن يكن زراعة ارض جديدة كي تخلق تطور في تقسيم العمل ، لذلك نجد ان تقسيمات العمل كانت سيئة جدا وادت الى ان تنتهي بالثورة ضد الطغمة الظالمة. وللتخلص من الركود الذي عاشته المجتمعات انذاك بسبب ما اسلفنا يجب ان يكون هنالك ملكية مشتركة في الارض بين الفلاح وبين الدولة وهذا ما فعله قرمط "وهو مبدأ اشتراكي جنيني" وهو يشابه ما يقترحه ماركس للتخلص من الركود الناشئ بسبب نمط الانتاج الاسيوي حيث يقترح "وجود

ملكية مشتركة في الارض ، وهذا يسمح بالتحول المباشر والتدريجي في نفس الوقت من الزراعة الفردية على الارض الصغيرة الى الاستغلال الجماعي لهذه الارض وظروف المجتمع نفسها ووضع المزارع فيه تجبر الاخير على الاتجاه نحو التعاون المشترك" [1]وهنا نجد ان القرامطة كانوا يتشاركون الزراعة الجماعية للاستفادة من ريع الارض وماركس يربط كل هذا بموقف الدولة تجاه قضية تحرير المزارعين في قراهم وان تزاح عنهم الديون والضرائب وهذا ايضا فعله القرامطة عندما الغوا الخراج والخراج هو ضريبة مالية على الارض تدفع للدولة المركزية انذاك وتثقل كاهل الفلاح. كان الجميع يدفعها عربا كانوا ام ذميين عند ذلك يتطور مجتمع القرية وتطور هذا المجتمع لابد ان يستوفي شرطين هامين:

ان تكون هنالك موجة اقتصادية لهذا التغيير وهذا ما حصل في الحركة القرمطية التي قامت على اساس المشاركة في الارض ومبدأ الالفة والتعاون .

ووضع الضروريات المادية للتنفيذ والانجاز . وكانت من اهم رؤى قرمط هو الضروريات المادية لاهل القرى والمنافع الاجتماعية لهم جراء تحصيلهم من الاراضي .ان المشتركات القروية التي كانت بين الفلاحين والتي تمثل الموارد الهامة ومنافعهم كان يغطيها وينتقص منها كون الارض ملك للدولة المركزية وبالتالي الرمز المتمثل بالحاكم المستبد الخليفة العباسي كان يقف كوحدة عليا فوق هذه المشتركات القروية التي يبغيها الفلاح ويبحث عنها ولكن الدولة بدورها ليست الا منتفعة بهذه المشتركات ومستحوذة عليها ، بل

[1] ـ الاعمال الكاملة لماركس وانجلز، نقلا عن الدكتور شريف احمد طه، حول نمط الانتاج الاسيوي،مجلة الثقافة الجديدة، ايلول/١٩٧٧، العدد ٩، ص ٣٣

تقيم المذابح كي لا تقوم الثورات والانتفاضات في القرى . يقول انجلز في مؤلفه "ضد دوهرنج" :

"حيثما استمرت المشتركات القديمة في الوجود ،فقد شكلت لالاف السنين اساسا لاشد اشكال الدولة قسوة ، وهو الطغيان الشرقي ، من الهند الى روسيا، ولم تتقدم هذه الشعوب بنفسها الا عندما انحلت هذه المشتركات"[1]

ان ماركس ينظر الى ان الملكية الخاصة في النظامين الجرماني والروماني كونهما اديا الى التطور في حين ان النمط الاسيوي للانتاج لا يتضمن الملكية الخاصة الامر الذي ادى الى ركوده عبر مراحله التاريخية الطويلة الى ان حطمه الاستعمار الاوربي اي وجود عامل خارجي للتحطيم. ومن بين اهم المشتركات القروية ان الفلاحين تسود بينهم مساواة كبيرة وروح جماعية وتعاونية وافراد الاسرة قد يملكون بعض المصوغات والاثاث ومن هذه الناحية فالفلاحون احرار ، ولكن في الارض هم كالعبيد عبوديتهم معممة وهذا ما نراه في فلاحي سواد العراق لذلك انضموا للقرامطة ، صحيح ان القرامطة صادروا الملكية الفردية لكنهم جعلوا الملكيات كلها بما فيها الارض مشاعية وللفلاح حصة الاسد منها وتوزيع الثروات يكون ضمن العدالةوالمساواة فانضم الفلاحون اليها افضل من بقاء الارض لدى السلطة المركزية التي تصادر فائض منتوجاتهم ولا تعطيهم الا ما يسد رمقهم .

يقول المفكر احمد صادق سعد للنمط الاسيوي قطبان اساسيان مرتبطان

[1] ـ نقلا عن احمد صادق سعد،، مجلة الثقافة الجديدة ، العدد ١/ ١٩٧٦، نمط الانتاج الاسيوي
، ص ٧١

ومتناقضان هما: الدولة المركزية ذات المهام الاقتصادية من جهة والمشتركات القروية من جهة اخرى ، يقول ماركس في هذا المجال" هذان الطرفان يتركون للحكومة المركزية مهمة الاشغال العامة الكبرى :اي النشاط الاساسي للزراعة والتجارة ، وهم من جهة اخرى مبعثرون على سطح البلاد ويتجمعون في مراكز صغيرة تتحد فيها النشاطات الزراعية والتحويلية ، هذان الظرفان قد اوجدا منذ ابعد الازمنة نظاما اجتماعيا ذا سمات خاصة" ويقصد به نمط الانتاج الاسيوي وفي ضوء كلام ماركس هذا نجد ان الدولة العباسية كانت تسيطر وبشكل كبير جدا على الزراعة من خلال سيطرتها على الاراضي وكذلك تسيطر على التجارة بكافة مفاصلها اما فلاحو الدولة فهم عبارة عن اناس مبعثرين متوزعين في القرى ومسيطرة عليهم الدولة بشكل استبدادي. في هذا النمط يعتمد الانتاج الفلاحي على النظام المشتركي والذي يحول دون ان يصبح عمل الفرد عملا خاصا ويمنع نتاج العمل من ان يتحول الى ملكية خاصة بل على العكس النظام المشتركي يحول العمل الفردي مباشرة الى وظيفة يكلف بها اعضاء الجسم الاجتماعي .وبالتالي كان الفلاحون قبل الحركة القرمطية يشتغلون اجراء عند الدولة ضمن النظام المشتركي وكانوا عبارة عن موظفين ضمن الدولة وليست لديهم ملكية خاصة بهم ناتجة من اعمالهم ، بل يتقاضون اجورا زهيدة الى ان جاءت الحركة القرمطية تخلصتهم من النظام المشتركي وادخلتهم في النظام المشاعي فجعلت الارض لهم فيها نصيب بالتعاون الوثيق مع الدولة ومنحتهم فائض انتاجهم . واسقطت عنهم الضرائب ومنحت الفلاح كامل حقوقه ، من دون ملكيات فردية هو ليس بحاجتها بعد ان اصبح فائض انتاجه له ، حيث اصبح مسؤولا

عن الانتاج ومسؤولا عن ارضه بالتشارك مع الدولة وكانت الاموال توزع بين الجميع بالتساوي ولا يذهب للدولة الا ما يدير شؤونها . حيث كانت الاموال تودع عند احد ثقاة القرية ثم توزع على الناس بعدالة اجتماعية قل نظيرها وكما سنبينها . بالنتيجة الغى القرامطة حيازة الدولة للاراضي وجعلها مشاعة بين الفلاحين والدولة .

اما البيئة التي تحيط نمط الانتاج هي بالعادة بيئة صحراوية تتجول فيها القبائل الرحل او البدو وبين البدو والمزارعين علاقة اقتصادية هي التبادل التجاري الذي يتم على حدود المناطق المزروعة ، من هنا استطيع القول ان ال زكرويه وهم الذين استمالوا البدو في بادية السماوة والشام كانوا على علاقة وطيدة مع حمدان وجماعته من فلاحي السواد قد تكون هذه العلاقة نتيجة التجارة التي جمعتهم على الحدود الفاصلة بين المزارع والبساتين الكبرى والصحاري التي تحيط سهل العراق الرسوبي الذي قامت به الثورة.

وحسب نظرية نمط الانتاج التي نعتمدها هنا في تحليلنا للاسباب والنتائج التي رافقت حركة القرامطة فان المقايضات بين الطرفين "البدو والمزارعين" موجودة كما اسلفنا ويحاول كل طرف ان يفرض على الاخر طريقته في المعيشة والانتاج ، وبشكل محدد يحاول الرعاة الرحل ان يحولوا المزارع الى مراع، ومن هنا جاءت عمليات حرق المدن والمزروعات والسلب التي اشتهرت بها بعض قبائل البدو" [1] ومن هنا فاننا نستطيع ان نعرف ان الهجمات المتكررة التي كانت تقوم بها الحركة القرمطية بقيادة ال زكرويه الذين استغلوا البدو في بادية السماوة والشام ، منطلقة من محاولة هؤلاء البدو

---

[1] ـ احمد صادق سعد، مجلة الثقافة الجديدة ، نمط الانتاج الاسيوي

تحويل الاراضي الزراعية في سواد العراق الى مراع وبالتالي هم يحاولون ان يفرضوا طريقتهم في المعيشة والانتاج على الاخر ، واصبح البدو ضمن الحركة القرمطية نتيجة مساومات براغماتية في محاولة لحماية الفلاحين القرامطة ولضرب مصالح الدولة العباسية وجعل القبائل البدوية منضوية تحت سلطة القرامطة لا العباسيين والسيطرة على طرق السفر البعيدة التي غالبا ما تمر بالبادية وليس بالمناطق السهلية والبادية وكما هومعروف تسيطر عليها قبائل البدو ، ويقول ماركس في هذا المجال من خطاب وجهه الى انجلز بتاريخ ١٨٥٣/٦/٢م، "يمكن للمرء ان يبرهن على وجود علاقة منذ بدء التأريخ وسط جميع القبائل، الشرقية بين استقرار جزء من القبائل والحياة البدوية المستمرة الاخرى " وقد ترتب على هذه العلاقة على ما يشير احمد صادق سعد:

ان ضرورات الدفاع ضد غزوات الرعاة القت بمهام عسكرية على الدولة المركزية الشرقية ، فساعدت على تقويتها وقيامها بدور القيادة العليا للمشتركات القروية وحيث ان الرعاة كانوا يعيشون بمستوى انتاجي ادنى في الاغلب فالعلاقات المشاعية بينهم كانت قوية الجذور والتراث ،ومن هنا اتى الامر الثاني ، فسواء استوعب المجتمع الزراعي البدو ام سيطر هؤلاء عليه فكانوا يمثلون عامل تقوية للهياكل المشتركية في النظم الشرقية ، من هنا نستطيع ان نقول ان ظاهرة "الالجاء" التي مر ذكرها اضطر اليها الفلاحون بسبب قسوة جباة الضرائب وكذلك كي يحموا الارض من البدو وهجماتهم في زمن الدولة العباسية ، مما جعل الدولة المركزية بطبقاتها البيروقراطية تصادر حقوق الفلاح الذي يطلب الحماية وتستأسد عليه، فساهمت هذه الظاهرة "الالجاء" بثورة الفلاحين ضد السلطة المركزية وانتمى اغلبهم للقرامطة ، ولكن المسألة فيما بعد

استمرت حين استمر القرامطة متمثلين بال زكرويه بهجماتهم المنتظمة على القرى الزراعية في سواد العراق ، مما جعل اهل القرى غير المنتمية للقرامطة تلجأ مرة اخرى للسلطة المركزية وهكذا. بالنتيجة فان اقتصادات البدو هي اقتصادات متجولة ومتحركة خارج مراكز المدن تعتمد اساليب الغزو والنهب والسلب مما جعل الدولة العباسية تستغل ارهاب البدو للمزارعين لتكريس السلطة المركزية وحماية الاراضي عبر ظاهرة الالجاء، اما الاراضي التي انضوت تحت سلطة القرامطة فقداصبحت بمأمن من غزوات البدو ، والاراضي التي بقيت خارج سلطتهم بقيت معرضة لهجمات القرامطة . وبسبب الحدود الفاصلة بين الصحاري بادية السماوة وبين السهل الرسوبي فان الارضية التي تقوم عليها المجتمعات هنا هي ارضية التفكك الدوري ، الامر الذي يؤدي الى ازمات متكررة تنتاب النظام السياسي وبشكل يكاد يكون دوريا كل ٢٠٠ او ١٠٠ سنة.

ولا ننسى انه لم تكن الطبقة الحاكمة المالكة بقادرة على ان تدفع الى نقل التكوين الاجتماعي الى مرحلة اكثر تقدما ، فليس لها مصلحة اساسية في جمع قوى انتاجية متراكمة لتجديد دورة الانتاج على مستوى اعلى "الانتاج المتسع" فكل ما يحاوله الملك "الخليفة هنا" هو ان يعتصر من الفلاحين اكبر قدر من الجزية لكي يتمتع به ويؤكد عظمته بالتزين الصارخ يقول ماركس في "نقد الاقتصاد السياسي" في الازمنة البعيدة باسيا ومصر، تظهر هذه الكنوز على الاغلب في كنف الملوك والكهنة باعتبارها شهادة على سلطانهم[1] وهذا ما فعله الخليفة العباسي عندما كرس الاموال عند سلطته وموظفيه واستمتعت

[1] -م س ص٦٩

الدولة بهذه المقدرات التي كان يتعب بها الفلاح ، وهذه المقدرات كان يستخدمها الخليفة ليبين عظمته.في اعين رعيته فالثروة لدى بني العباس ليست تراكما انتاجيا بل مظهر للسيطرة ودليل على الحق في فرض تلك الجزية وفي ضوء نمط الانتاج هذاحارب القرامطة في سبيل ان يجردوا الخليفة العباسي من زهوه بالاموال ويرجعوا ملكيتها الى الشرائح المسحوقة كي يرجعوا بالانتاج الى نمط تراكمي وليس زهوي سلطوي وهو ما كان يفعله الخليفة العباسي وحاشيته. وغاية ما يمثله الناس " لصورة الخليفة العادل هو الا يهمل شبكات الري التي تقوم عليها قراهم وان الا يموت الفلاح من الجوع اي وجود الحد الادنى من معيشته، اما القرامطة فقد كان همهم الاساس هو ان يكون للفلاح فائض انتاجه وان يوزع المال بالتساوي وضمن مبدأ العدالة الاجتماعية .

٣-تفاقم الأحوال الاجتماعية للمجتمعات إبان حكم العباسيين

بسبب ظهور طبقة جديدة وهذه الطبقة التي ظهرت من كبار التجار وثيقة الصِّلة بكبار الضباط الترك ورجال الادارة والقواد فكان كبار التجار يحتكرون امتياز استصلاح الاراضي المالحة في اقليم البصرة وتجفيف المستنقعات بمنطقة البطيحة ومثلوا الطبقة البيروقراطية التي مزقت الفلاحين وقادت الفلاحين الى الثورة بسبب ظلم هؤلاء وكانت ملكية تلك الاراضي تئول اليهم حسب الشريعة الاسلامية حيث منحت الشريعة حق التملك للارض لمن يستصلحها واغلب من يقوم باستصلاح الاراضي هذه الطبقات المتنفذة لان لديهم الاموال الكافية للاستصلاح ، بالتالي يحرم الفقير من ملكية الاراضي وهنا

يعبر (الدوري) عن ذلك بان احياء الارض الموات ،واستخلاص الارض من المستنقعات لاقى تشجيع الحكومة وتأييدها، ومن امثلة الارض الموات التي تم احياؤها في العصر الاسلامي الاراضي المحيطة بالبصرة [1] ان الطبقة الاجتماعية الجديدة تكونت من قواد الجند واصحاب الدراريع والتجار والمقاطعين ولعدم درايتهم جميعا بالفلاحة وافتقارهم للخبرة الزراعية تدهورت الزراعة الى الحضيض فسدت المشارب وبطلت المصالح كما عانى المزارعون الفقر والفاقة لان عائد كدحهم ليس لهم، وكانوا يئنون من طبقة الاقطاعيين فاتت الجوائح على الزراع وفي ذلك يقول مسكويه وصاروا بين هارب حال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره [2]وبالتالي اتسعت الهوة بين الطبقات وبلغ التناقض الاجتماعي مداه فوجدت الدعوة القرمطية تربة صالحة بين جمهرة الفلاحين وارقاء الارض وكذلك كان حال الحرفيون والعمال في المدن فقد وقعوا في دائرة استغلال اصحاب الاعمال حيث هجر اغلب الفلاحين أراضيهم وتوجهوا نحو المدن بسبب سوء حالهم ، واستولى جهاز الدولة على الفائض من نتاج الفلاحين كما اشرنا اما على صورة "السخرة" او على شكل جزية"خراج" وللموظفين البيروقراطيين جزء من هذه الجزية ، ثم يتحول جزء منها الى مادة للمقايضة لسد احتياجات الحكام من الكماليات، وبهذا يكون جهاز الدولة محتكرا للتجارة الخارجية ، كلها تقريبا، اذ انه هو الوحيد الذي يملك فائضا يتاجر به ، فالفلاح لا يملك

---

[1] ـ الدوري، ص٤٦

[2] ـ محمود اسماعيل ، الحركات السرية في الاسلام، رؤية عصرية ، دار القلم، بيروت، اغسطس، ١٩٧٣م ، ص١١٧

هذا الفائض بل تمتلكه طبقة القواد الكبار والوزراء وغيرهم ممن اشرنا اليهم. ان نظام العبودية المعممة الذي اشرنا اليه لا يسمح بتراكم الفائض من الانتاج في ايدي الطبقة المنتجة وعليه ف التجارة الداخلية تكاد تكون منعدمة كذلك بسبب الاكتفاء الذاتي للمشتركات القروية ، واسلوب التعامل السلعي يبقى محصورا في نقط محدودة وقليلة على الحدود والشواطئ ،وهي في الوقت نفسه مخافر امامية للجيش ومراكز جمركية يدفع فيها الرسوم والضرائب على المنتجات التي يجلبونها .

٤-التركيب الاجتماعي للمدن :

حسب الدكتور محمود اسماعيل يتكون التركيب الاجتماعي للمدن آنذاك : من طبقة العمال في المدن وهم على درجتين: الأحرار والعبيد ووفق مصطلح العصر اطلق على الأحرار منهم اسم العامة وقد وصفهم الغزالي بالجهل تحقيرا لشأنهم..ومع ان اكثرهم كان من غير العرب اي من الموالي وفيهم الفرس والترك والزنوج والديالمة والروم والنبط والارمن والكرج والسلاف والاكراد والبربر والعرب.

وكان الفلاحون في القرى في صنف الاحرار نظريا الا انهم في الواقع -كما اشرنا- مكبلين بالمالكين ، وبالضرائب الباهضة "وكانوا يؤلفون جزءا كبيرا من الشعب ويتكلمون الارامية مع العربية "[1]

نحن اذن امام حركة الغالبية الساحقة من الطبقة المنتجة المستغلة"بفتح الغين" مكونة من الفلاحين واذا كان هؤلاء يناصبون العداء للطبقة الحاكمة

---

[1] - عبد العزيز الدوري، العراق في القرن الرابع الهجري، ص٧٥

البيروقراطية المالكة ويدخلون في صراعات طبقية تصل الى حد الثورة ، حركة هؤلاء كانت تستهدف التخلص من "المشترك الاعلى"(الدولة) الذي ياخذ منهم الجزية والخراج وغرضهم هو العودة بالمشترك القروي الى مجتمع اسبق ، الى مشاعية الماضي وهذا ما حققه لهم حمدان قرمط الاكار البسيط. وبالتالي تخلص الفلاحون من سيطرة الدولة -الطبقة ، والبيروقراطيون هؤلاء هم كبار رجال الدين من جهة ، والعسكريون من جهة ثانية ، والاداريين من جهة ثالثة .. وبينهم نزاعات "حلقية" ولكن هذه النزاعات تظل في دوائر مغلقة بعيدة عن الجماهير ولا تمثل قيادة لها او طليعة بل على العكس تتخذ باستمرار صورة المؤامرات الخفية والدس من وراء الكواليس " حيث نرى ان المؤامرات في القصر العباسي كثيرة جدا ويقودها كبار الموظفين ، لذلك نرى منها على سبيل المثال المؤامرة التي اطاحت بالبرامكة وغيرها كثير والبرامكة كانوا من كبار الموظفين انذاك في الدولة ، وهؤلاء البيروقراطيين يعيشون من اقتسام الضرائب المستحصلة من الفلاحين وسواء نجحت تلك المؤامرات ام فشلت فلا تغير من اسسه الا جزئيات غير هامة ، "لانه مبني على ملكية الدولة لوسائل الانتاج الاساسية وخاصة الارض ولايكاد زعيم المؤامرة يجلس على دست الحكم حتى يصادر ممتلكات عظماء الحكم السابق ويسترجع اقطاعاتهم ويستولي على ثرواتهم المنقولة لذلك لا يمكن ان يصبح اي قسم من هؤلاء البيروقراطيين رجال دين ام رجالات حكم ام وزراء ام عسكر ان يكون مركزا لتجميع الثروات وبالتالي مصدرا لرفع مستوى القوى الانتاجية رفعا جذريا "[1] بالتالي ، جل اهتمام الافراد الذين يصلون الى المناصب الدسمة ان

[1] ـ احمد صادق سعد ، ص٧٠

يجمعوا الثروة على شكل يمكن اكتنازه واخفاؤه ونقله بسرعة عند الازمة ، وهذا ما كان يفعله الخلفاء كافة والوزراء ،والمفارقة في هذا المجال ان الطبقة السياسية الحاكمة في العراق اليوم باصنافها من عسكر ووزراء واداريين ورجالات دين همهم عندما وصلوا الى السلطة كان همهم ان يكنزوا وان يخفوا اموالهم خوفا من ان تقع المؤامرات ضدهم فيستطيعوا ان يهربوا عند وقوع المؤامرة وبالتالي تكون اموالهم موجودة.

والطبقة الحاكمة التي هي نفسها المالكة تصل دوما الى الثروة دون عناء يذكر في نمط الانتاج الاسيوي فثروتها نتيجة سلطتها فاذا ما فقد الوزير منصبه في الدولة فالاغلب ان يفقد وراءه الجانب الاكبر من دخله وتسترجع الدولة منه اقطاعه او ضمانته وكثيرا ما تصادر ممتلكاته واليوم الطبقة الحاكمة هي نفسها المالكة وكثيرا ما وقعت في العراق اليوم مصادرات لاموالها عند خروجها من طاعة الحكم المركزي او تضارب مصالحها فتقوم الحكومة المركزية بمصادرة اموال ذلك الوزير او القائد او الحاكم.

ونرى دور البيروقراطية كبير في جسد الدولة حيث لم يكن ممكنا ان تتولى الدولة المركزية تلك المهام الاقتصادية الواسعة في النمط الاسيوي دون ان تقيم بالتالي جهازا اداريا ضخما ، ولان هذه المهام هي العامل الحاسم في احوال السكان فكان لابد من ان يكون السلك الكهنوتي جزءا من جهاز الدولة ، حيث نرى الفقهاء يجاورون السلاطين ولهم نسب كبيرة من الاموال، ثم زادت البيروقراطية شمولا لان تغريب جهاز الدولة عن الكادحين جعل القائمين على راس السلطة لا يأمنون انخراط ابناء الشعب في صفوف الجيش،ومن هنا تكون السلك العسكري غالبا من المرتزقة الاجانب ، بل ومن

الرقيق المستجلب خصيصا لكي يحترف الحرب مع الخارج والقهر بالداخل. وبالتالي نرى تضخم الطبقة هذه وسحقها لحقوق الفلاحين، ولهذه البيروقراطية الشرقية الهائلة دور مزدوج ، فهي من جهة تنظم جميع النشاطات في المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية ،فلذلك نرى في زمن القرامطة ان رجالات الفقه اتخذوا موقفا مناوئا شديدا منهم ومن مطالباتهم للعدالة الاجتماعية والسبب في ذلك هو ان القرامطة كانوا يريدون سحب البساط من هؤلاء وسلبهم امتيازاتهم وهذا ما كانت ترفضه هذه الطبقات المتواطئة مع الحكومة المركزية ،لذلك كفر القرامطة واتهموا بابشع التهم من قبل الطبقات الحاكمة ورجالات الدين، ومن جهة اخرى ، فحيث ان الانتماء الى الجهاز البيروقراطي هو الوسيلة الاساسية للثراء فنرى افراد قمته يشكلون احدى القوى الكبرى التي تسعى الى تحويل ما تمتع به بفضل حق الوكالة الى حق اصيل، اي تحويل حق الانتفاع بريع الارض الى ملكية الرقبة نفسها، وهكذا نرى ان هؤلاء الموظفين ليسوا مجرد وكلاء عن السلطة المركزية بل هم ملاك وحاكمون ومتحكمون بالفلاحين الى درجة استعبادهم.

وهكذا نجد ان الثورة في اساسها اي ثورة القرامطة كانت ضد هؤلاء الموظفين وامتيازاتهم لان هؤلاء في النظم الشرقية التي تعتمد هكذا نوع من الانتاج ليسوا الا منتفعين بالوكالة عن الدولة ، ويستمدون امتيازاتهم وحقوقهم من تفويض يصدره السلطان او الخليفة فالاصل ان الفلاحين والمنتجين عموما عبيد الدولة وليسوا ملزمين بأداء فرض العبودية لشخص الاقطاعي بل لصفته البيروقراطية عكس الاقطاع في اوربا حيث كان الاقطاعي هو نفسه الحاكم والقاضي والرئيس وليس لاحد ان يسلبه ما يملكه

في حين كان الامر مختلفا حيث كانت الدولة العباسية ، هي القاضية والحاكمة والمانحة للاراضي لكبار موظفيها من وزراء وحكام واداريين وقواد عسكريين ومن حيث المبدأ يكفي ان يقرر راس الدولة الخليفة هنا استرجاع ما منحه لهذا الموظف او ذاك فتتم للدولة المصادرة دون كبير عناء باعتبارها حقا مشروعا لرمز المشترك الاعلى "الدولة"واذا رفض الموظف ان تصادر الدولة املاكه اصبح متمردا عليها.

وتوحد الجزئيات منها الصادرة من المشتركات فتقيم بهذا تلك المركزية التي لا حياة للنمط الاسيوي بدونها، فان هنالك اثنيات اخرى تتولى الحكم فتفرض نمطها الخاص على البلاد فاذا كان نمطها شبيها بالاسيوي او احد فروعه نجحت في تكريس هذا النمط ومثالنا البويهيون عندما سيطروا والاتراك عندما سيطروا على الحكم كرسوا نمط الانتاج فنتج عندنا الاقطاع العسكري الذي تحدثنا عنه كثيرا.

كما علينا ان نتبين ان الثورات البرجوازية في اوربا انتصرت لاعتمادها على صورة ما من التحالف مع الفلاحين ، في حين نرى حركة الكادحين في النظم الشرقية تكشف عن ادراك غامض بأن طريقها مسدود ، واذا كانت تقع فيها الهبات المسلحة والمقاومة الثورية المفتوحة ، فالشائع فيها اسلوب الهروب من الارض من الناحية الاجتماعية والهروب الى نوع من المهدية والصوفية من الناحية الفكرية ، وهنا ففلاحي السواد عندما ثاروا اتجهوا نحو القرمطة وهي حركة باطنية ، وبالتالي تنقلب هذه الاساليب السلبية الى وسائل كفاحية ذات اثر لا ينكر عندما تتحول الى اساليب جماهيرية . وفي ضوء النظرية فان حمدان قرمط الاكار البسيط تحول الى الباطنية ومنها الى الاساليب الثورية

الكبيرة التي كادت ان تطيح باعتى سلطى استبدادية انذاك . وحيث ان الدولة العباسية هي سلطة دينية ، وان الحكام يقررون كل مرة ان مذهبهم هو المذهب الرسمي على الجميع ، فمن الطبيعي ان تصبح حركات المقاومة للقهر الطبقي حركات هرطقية بصورة عامة [1] وهكذا فان القرامطة كفروا واتهموا بابشع التهم نتيجة مطالبتهم بالعدالة الاجتماعية فاصبحوا نتيجة مطالبتهم بالعدالة مهرطقين.فاتهامهم بالاضافة الى ما مر من غاية القرامطة سحب البساط من الكهنوت المقرب من الخليفة فانهم اتهموا كذلك نتيجة مخالفتهم مذهب الدولة الرسمي.فالدين المركزي او دين الدولة ليس فقط في هذه الحالة مجرد انعكاس للاوضاع الاقتصادية الاجتماعية ، بل يصبح مؤسسة ذات رؤية سائدة متغلغلة حتى الاعماق ، تلعب دورا هاما في توحيد المشتركات الريفية المبعثرة في كيان واحد، وتقدم للسكان الدروع الفكرية التي تحافظ على وجود البلاد وسماتها المميزة وتقاليدها وتراثها[2] ، وهذا يفسر لنا كيف ان بني العباس استقتلوا ضد القرامطة لانهم يخالفونهم المذهب فبالتالي يلعب دين الدولة هنا دور الصيانة والابقاء على تلك المجتمعات الشرقية.والصيغة الدينية للخليفة العباسي كانت عنصرا توحيديا لعب دورا لمدة من الزمن في الحفاظ على الارتباط بين الاجزاء المختلفة - الاثنية والسياسية والاقليمية والاجتماعية المكونة للامبراطورية العباسية الواسعة ، فجاء القرامطة وكسروا هذه الصيغة التوحيدية التي مارسها الخليفة العباسي اي:/ ان يكون هنالك دين رسمي للدولة.

[1] ـ انجلز ، تاريخ المسيحية المبكرة، نقلا عن احمد صادق سعد ، م س، ص ٧٦
[2] ـ احمد صادق سعد،حول نمط الانتاج الاسيوي، م س ، ص ٢٢

٥-الشعب والدولة ...

وبالنتيجة فان الصراع الطبقي الشعبي موجه بشكل طبيعي ضد الدولة ونظام الحكم وذلك للارتباط الشديد بين الحكام والملاك ولان هذين الطرفين كانا يكونان الى وقت قريب جسما واحدا، حيث يمثل الاقطاع العسكري والعباسيين جسما واحدا اما في التراث الغربي فالصراع الطبقي موجه ضد الطبقة المالكة وجهاز الدولة يستطيع الى حد ما يبقى ظاهريا محلقا فوقه وكأنه محايد .

والسؤال هل ادخل القرامطة النظام الطبقي في دولتهم في البحرين والاحساء بعد ان تخلصوا من سلطة الدولة المركزية ، وهنا يرد بان ناصر خسرو عندما زارجمهورية البحرين راها تعتمد على ثلاثين الف عبدا اسودا يشتغلون بالزراعة ، ويعلق احمد صادق سعد بان الحركة لم تستطع ان تكون دولة الا على اساس شكل اخر من الاستغلال وعدم المساواة "[1]ونرد عليه بالقول

ان الحركة في بداياتها كانت قد اسست للعدالة ولاسيما ما فعله حمدان وابي سعيد الجنابي تلميذه وال زكرويه ، وكان ممن اتبعهم العبيد والزنوج كما اوضحنا ، ولكن المفكر احمد صادق سعد يتحدث عن معلومة تناولها ناصر خسرو في زيارته للبحرين والاحساء وكان هذا في اواخر ايام دولتهم في البحرين ، فمن الممكن ان يكون الاحفاد قد شذوا عن قاعدة العدالة نوعا ما ، الا ان نظامهم الاشتراكي كان ما زال معمولا به ، بشهادة خسرو نفسه

[1] احمد صادق سعد، النمط الاسيوي للانتاج، الثقافة الجديدة، العدد١، شباط/١٩٧٦، ص ٦٩

وكذلك ليس من حق احمد صادق سعد ان يعمم هذا التصرف الذي وقع في نهايات حكم القرامطة في البحرين على تاريخ الحركة فهذه اشكالية كبيرة .تسجل على احمد صادق، بقي ان نعرف ان نمط الانتاج هذا تعجز القوى الفلاحية عن تطويره، ومن الممكن ان القوى الاجتماعية الداخلية النازعة الى الملكية الفردية تلعب دورا في انهائه وبالتالي كانت حركة القرامطة خير من مثل هذه الحركات هذا وجعلت الملكية بيد الفلاح ودعم الحكومة وثمة قوى اخرى تعمل على انهائه ونعني الغزو الخارجي اي عنصر العنف.وبالتالي فان جوهر الجانب الاكبر من الاتجاه المعارض المتمثل بالحركة القرمطية يستهدف اساسا حماية البناء المشتركي السفلي المتمثل بالفلاحين و العمال ضد القوى النازعة الى تحطيمه وتفكيكه

كما كان معظم العمال من الموالي لان العرب أنفوا عن الاشتغال بالعمل اليدوي .والذين شكلوا ايضا جزء من الحركة .

وقد استفاد القرامطة من الأساتذة الحرفيين كدعاة للحركة داخل المدن وبين صفوف العمال .

٣-تأرجح مفهوم نمط الانتاج الاسيوي:

قد يعترض معترض علينا فيما يخص مفهوم نمط الانتاج الاسيوي كونه جاء بتعاريف ومفاهيم مختلفة من قبل ماركس وانجلز وانهما انفسهما تارجحا في تعريفه ، وفي تطبيقاته على المجتمعات المدروسة وهي تركيا وفارس والهند وهذا التارجح من تطبيقات نمط الانتاج حسب التعاريف على المجتمع

العباسي الذي لم يدرسه كارل ماركس ولا انجلز لضعف المصادر عندهم حول هذه الفترة المهمة ...

١- غياب الملكية الخاصة للارض (وهذا ما عرضنا له في بحثنا) هو المفتاح الاول لمجمل تركيب النمط الاسيوي للانتاج.

٢- تبنى كلاهما(ماركس وانجلز) ان الزراعة المائية وجفاف الطقس كانت على الارجح الاساس الجغرافي لغياب الملكية الخاصة للارض.

٣- توصل فيما بعد ماركس بان ملكية الدولة للارض في الشرق كانت تخفي تملكا قبليا - مشاعيا لها بواسطة القرى المكتفية ذاتيا (صناعة وزراعة) ثم تخلى عن هذه الفكرة في (راس المال)

٤- عودة ماركس للقول بأن الدولة في اسيا تحتكر الارض مع الاحتفاظ بأهمية المجتمعات الريفية المنغلقة كأساس للمجتمع الشرقي.

وخلاصته انهما وصلا الى فكرة ان اساس الاستبداد الشرقي هو المجتمع القروي المكتفي ذاتيا ، مع الملكية الزراعية المشاعة ، والتي تقف خلفها الدولة ، وبالتالي النمط الاسيوي يتلخص في وجود العناصر التالية :

غياب الملكية الخاصة للارض ، وجود مجتمعات قروية مكتفية ذاتيا تجمع بين الصناعات اليدوية وفلاحة الارض ، ركود المدن ذات المداخيل البيروقراطية وسيطرة الة الدولة الاستبدادية التي تحتكر فائض الانتاج وتعمل ليس بوصفها الجهاز القمعي المركزي للطبقة الحاكمة ، بل كذلك بوصفها اداتها الرئيسة للاستغلال الاقتصادي ، ولم تكن ثمة قوى وسيطة بين القرى المكتفية ذاتيا في اسفل والدولة المتضخمة في الاعلى ، والنتيجة كان التاريخ السياسي للشرق عموما ذائريا مقفلا بشكل اساسي ،ولم يحتو على اي تطور

ديناميكي او تصاعدي،وكانت النتيجة هي: السكون والجمود البنيوي عند بلوغها مستواها الحضاري الخاص المتميز.

وهكذا ترى : ان كل عناصر قيام النمط الاسيوي للانتاج التي تأرجح في تبيانها وتعريفها انجلز وماركس توفرت في المجتمع العباسي قبل ظهور الحركة القرمطية ، من انعدام الملكية الخاصة للارض ، ووجود القرى المغلقة حول المدن المكتفية ذاتيا، ولكن هذه القرى لم تكن موجودة في الحالة العباسية ، لانها كانت بحاجة دوما الى جهاز الدولة المركزي وخصوصا فيما يخص استصلاح الاراضي واقامة المشاريع الاروائية ، فهذا العنصر في نمط الانتاج لم يتوفر في العصر العباسي ، الا ان اهلها كانوا يجمعون بين الصناعات والفلاحة وبالتالي تحقق شرطا واحدا من قيام هذه القرى ، وفوق كل هذا ولد هذا النمط جهاز الدولة الاستبدادي الذي يجبي الضرائب بكل قوة وكل قمع وبكل استغلال اقتصادي قد عرف في ذلك الوقت وعلى راسه "الالجاء" والزراعة المائية وسيطرة الدولة على نظم الري كلها ولد الاستبداد ، اهتم القرامطة باهل القرى التي تجميع بين الصناعات والفلاحة واهتموا خصوصا باهل الصناعات ودعموا نقاباتهم لزيادة وعيهم وحريتهم وكسبهم للثورة ، لانهم اكثر الناس تضررا من قيام النمط الاسيوي للانتاج ، السؤال ما هي العناصر الاساسية للقرى المكتفية ذاتيا وهل تولدت في المجتمع العباسي؟

تتميز هذه القرى بخاصيتين:

أ- اتحاد الصناعات اليدوية المحلية والزراعة

ب- غياب التعادل البضاعي مع العالم الخارجي.

ت- العزلة والابتعاد عن شؤون الدولة والملكية المشتركة للارض ، هذه هي رؤية ماركس للقرى الهندية ،هل تولدت في المجتمع العباسي هكذا قرى؟

الجواب: نعم تولدت حسب وجهة نظرنا لكن معها سيطرة مركزية للدولة عليها بواسطة اجهزتها البيروقراطية الحاكمة . وما كانت معزولة عن الحكم المركزي للدولة كما اشار ماركس .

فكيف تولدت هذه العناصر ؟ بداية اشير الى ان النقابات كانت موجودة بشكلها الجنيني قبل انبثاق الحركة القرمطية وكما سيمر بنا، والقرامطة عملوا على دعمها ورسم خطوطها العريضة داخل المجتمع وملامحها المستقبلية فاستغل القرامطة هذه القرى المكتفية كما يسميها ماركس ومارسوا دعوتهم عليها .

هذه القرى ينطبق عليها شرط الاكتفاء الذاتي بانها لا تحوي التعادل البضاعي مع العالم الخارجي ، فهي تفتقر الى هذا المفهوم في التعامل التجاري وهي في عزلة تامة ، اقصد القرى في سواد العراق والتجارة كانت مقصورة على بغداد والبصرة والموصل ، هذه القرى المعزولة سيطرت عليها مركزية الدولة وبقييت الدولة تستنزفها وتستنزف اراضيها بكل ما اوتيت من قوة وبالتالي تولد نمط الانتاج في هذا القرى كما وصفه ماركس ، عمل على تحطيمه القرامطة.

كانت تلك القرى منقسمة طائفيا طبعا ما بين سنة وشيعة امامية واخرى اسماعيلية ومعتزلة وغيرها من الفرق الكلامية والنقلية وانها كانت حسب ماركس اي القرى" موبوءة بالفوارق، الطائفية وبالرق"

ولا ننسى ان انجلز اعتبر ان القرى الهندية (اداريا كانت خاضعة على الدوام للدولة المركزية من خلال تعيين هذه الاخيرة لشيوخ القرى) [1]وسنرى في بحثنا حول النقابات ان الدولة العباسية كانت تعين شيخ الصنف ، وهو المسؤول عن واحدة من النقابات مثلا، كأن يكون شيخ الحدادين او غيرهم، ولا يستبعد ان تقومدولة مركزية مستبدة مثل العباسية من تعيين شيوخ للقرى ، فاذا كانت تتحكم بشيخ الصنف الذي هو اقل من شيخ القرية، فمن المؤكد انها كانت تعين شيوخ للقرى ، بالتالي فان الفئة العليا في القرية تتكون من حلفاء الدولة وشركائها في الانتفاع من نظام الاستغلال ، وفي كل قرية كانت (القشرة السفلى تتكون من المنبوذين المدفوعين الى حافة الاهلاك، وكان الاستغلال الخارجي مضمونا عن طريق القوة العسكرية ، والداخلي عن طريق نظام الطوائف وضماناته الدينية) [2] والقشرة السفلى حسب اندرسون هي التي التحقت بثورة القرامطة ، واقلقت مضجع العباسيين ، اما عن الاستغلال الخارجي الذي كان مدفوعا بالقوة العسكرية وبالتالي تم استغلال الارض من العسكر وداخلي فان رجالات الدين كانت لهم حصصهم في الاراضي والضرائب فغضوا النظر كثيرا. وبما ان الدولة كانت متدخلة جدا بالقرى ، فهل بقي شيء اسمه الاكتفاء الذاتي للقرية سوى عمل اهلها بالجمع بين الصناعات والفلاحة . وعليه فان الاكتفاء الذاتي للقرى في الزمن العباسي والعزلة لهذه المجتمعات كانت وفق تحليلي خرافة ، فقد كانت تدخلات الدولة

[1] ـ اندرسون، م س ، ص ٧٥
[2] ـ اندرسون، ص٧٥

المباشرة بالقرى وحسب ما اوضحنا تحول دون ان تكون تلك المجتمعات منعزلة.

وهنالك اختلافات نظرية في مجموع فكرة النمط الاسيوي في الانتاج، ذلك ان وجود دولة مركزية قوية يفترض مسبقا تمرتبا طبقيا متطورا، في حين ان سيادة الملكية القروية المشاعة في مجتمعات مثل المجتمع الهندي تعني ضمنا قيام هيكل اجتماعي لا طبقي تقريبا ، فكيف يمكن الجمع بين الاثنين؟ في تصوري ان الدولة العباسية امتلكت تمرتب طبقي متطورا هو الذي سيطر على ملكية الارض . والغى سيادة الملكية القروية المشاعة ، والهيكل الاجتماعي اللاطبقي موجود في الدولة العباسية ومغلوب على امره من الهيكل الطبقي المتطور .

واصرار ماركس وانغلز على اهمية منشأت الري العامة المقامة من قبل الدولة الاستبدادية يتنافى تماما مع تأكيدهما اللاحق على الاستقلال الذاتي للمجتمعات القروية ، ذلك ان الاول يعني بالضبط تدخل الدولة المركزية بشكل مباشر في الدورة الانتاجية المحلية للقرى وهو النقيض الاقصى لعزلتها واستقلالها الاقتصاديين، بالتالي استطيع القول ان القرى في المجتمع العباسي لم تكن مكتفية ذاتيا ، فكيف تكون كذلك والدولة المركزية تسيطر على مشاريع الارواء فيها كما فعل المعتضد كما مر بنا، بالتالي فاننا نؤكد على ما اكده ماركس في بداية مراسلاته مع انجلز حول ان الدولة الاستبدادية الشرقية تتسم بغياب الملكية الخاصة للارض وقيام هذه الدولة باقامة المشاريع الاروائية الكبرى وكلا الظرفان هذان لم يتوفرا في المجتمعات التي درسها ماركس وانجلز بشكل واضح حيث لم تكن هنالك انظمة ري معتمدة في

الدول التي درسوها في حين تلك التي امتلكت انظمة ري كبيرة (الصين) كانت تتميز بوجود الملكية الخاصة للارض ولكن نقول ان السمتين في غياب الملكية الخاصة للارض ووجود انظمة ري كبرى انطبقتا بشكل كبير على الدولة العباسية وهذا ما لم يناقشه ماركس وانغلز حول المجتمع العباسي وذلك لنقص المصادر عندهم. وهنا يعضد (بيري اندرسون٩ ما اذهب اليه بشأن حديثي عن المجتمع العباسي الا انه يتحدث به عن نتائج ماركس وانجلز عن المجتمعات الاسيوية عامة ، يقول اندرسون: "ان التشابه الذي لاحظه ماركس وانجلز بين كافة الدول التي اعتبراها اسيوية ، كان خادعا، وناجما الى حدكبير عن نقص في معلوماتهما ، والذي كان امرا حتميا في زمن كانت فيه الدراسة التأريخية للشرق قد بدأت لتوها فقط في اوربا"[1] بالتالي لم يطلع كلا الرجلين على المجتمعات العربية – الاسلامية في العصر العباسي ، فكلا المجتمع القروي المكتفي ذاتيا ،ودولة المنشأت المائية قد ثبت خطلهما العلمي باشكال مختلفة في المجتمعات التي درسوها (تركيا- فارس- الهند) وكما بينا اما تطبيقنا للقرى المعزولة عن الدولة العباسية كما بين ماركس فهنالك سيطرة عسكرية ومالية واقتصادية على هذه القرى فلا توجد هنالك انعزال عن الدولة فيها وكما بينا فيما سبق كما ان غياب التعادل البضاعي لدى هذه القرى كصفة من الاكتفاء الذاتي صحيح الى حد ما الا انها كانت تستخدم بدلا من التبادل البضاعي النقود العباسية التي كانت تسكها الدولة في عموم البلاد والاطراف. فهنالك قرى مكتفية ذاتيا فقط من ناحية وجود الصناعات والفلاحة وغياب التعادل البضاعي ، وفي قضية دولة المنشات المائية ، فقد

[1] ـ اندرسون، م س ، ص ٧٨

كانت الدولة العباسية دولة منشأت مائية كبيرة تغيب في ظلها الملكية الخاصة للارض ، وبالتالي فان مجمل دراستنا تتركز حول غياب هذه الملكية ووجود القرى المعتمدة على وجود فلاحون هم عمال بنفس الوقت واهل صناعات وغياب التجارة الخارجية فيها اما العزلة عن الحكومة المركزية فلم تتم . وهنالك ظاهرة في المجتمعات التي يشيع بها هذا النوع من الانتاج حيث ان هذه المجتمعات تبدأ بدايات قوية وخلاقة في مراحلها الاولى ، لكن حيويتها سرعان ما تخمد فتتحول الى كيانات راكدة قبل ان تنهار لتبدأ دورة جديدة من الصراع تحت سلطة جديدة .

ولا ننس ان الحماس لاعتبار "نمط الانتاج الاسيوي" كمرحلة من مراحل التطور الاقتصادي والاجتماعي سرعان ما توارى تدريجيا كما لو انه بدا في تناقض عميق مع جوهر فلسفة التاريخ المادية التاريخية القائلة بتوالي خمس مراحل فقط(المشاعية ثم الرق ثم الاقطاع فالرأسمالية واخيرا الاشتراكية) فبعد ١٨٥٣ لم يذكر هذا النمط بشكل لافت في كتاب "اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة "لفردريك انجلز ١٨٨٢، برغم ان تقدم علم الاثار الغربي كما يشير الدكتور هنداوي اشار في تلك الفترة الى وجود مرحلة انتقالية طويلة بين المشاعية والرق من مجتمعات طبقية تنتمي على ما يبدو الى النموذج الاسيوي.[١] ذلك الاهمال كما يشير الدكتور حسين ظل شائعا في الفكر الماركسي حتى الثورة الروسية في ١٩١٧، ويضيف" ليتحول الموقف الرسمي بعدها الى ادانة نمط الانتاج الاسيوي كما حصل في المناقشات المنظمة التي جرت بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣١ في عدد من المؤتمرات الايديولوجية التابعة للحكومة

[١] ـ حسين هنداوي ، م س ، ص٢٠٢

السوفيتية، وقد استمر هذا الموقف حتى نهاية الحقبة الستالينية ، ويمكن الاعتقاد ان التضارب في الاراء حول اسلوب الانتاج الاسيوي وشروطهومترتباته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اعاق البحث عن حقيقة التطور السياسي الواحدي الذي زعم هذا المنظور ان دولا اسيوية عرفته معا برغم كل تلك الشدة في الاختلاف في تجاربها الخاصة ، سواء على الصعيد الاقتصادي او في بناها الاجتماعية وبرغم توفر معطيات كافية لاثبات ان مجتمعاتها لم تسلك الطريق التقليدي الاوربي في تطورها لا في تاريخها القديم ولا في تاريخها اللاحق والحديث" ، بالنتيجة فنمط انتاج اسيوي جنيني بانت معالمه في فترة سبقت ثورة القرامطة من ناحية :

١- انظمة طغيانية تمثلت بالدولة العباسية .

٢- هذه الانظمة معتمدة على الري وغيرها من الصفات التي تم تناولها

المعارضة التي تمت ضد نمط الانتاج الاسيوي كانت من قبل قادة ومنظري الاممية السوفيتية وقادة الاحزاب الشيوعية حيث بدت مرفوضة او غير موجودة كما يقول الدكتور حسين هنداوي حتى عند تناول التطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الصيني الاسيوي فيما تم فرض منظورات ستالين المادية التاريخية المشددة على المراحل الخمس التي ذكرناها . ولكن علينا ان نعرف ان هنالك فترة انتقالية طويلة بين المشاعية والرق ، من الممكن ان تكون هي نمط الانتاج الذي تحدثنا عنه طويلا ، بل من المؤكد ان يكون نمط الانتاج الاسيوي بين هذين النمطين.

استنتاجات

١- الاختلافات جوهرية بين معتقدات القرامطة ومعتقدات الاسماعيليين الفاطميين، اختلافات تعود بتاريخها الى انشقاق عام ٨٩٩م =٢٨٥هـ ،فالقرامطة في البحرين وفي امكنة اخرى ، وهم الذين واصلوا انتظارهم لظهور مهديهم المستور ولم يعترفوا بالفاطميين ائمة او خلفاء، كما لم يروا ابدا مهديهم المنتظر في اي من الفاطميين، وهذا يفسر لماذا كان قرامطة البحرين على استعداد للانجراف نحو حادثة المهدي الفارسي المدمرة ،

وهنا يعبر فرهاد دفتري على انه وبما ان القرامطة والفاطميين قد اشتركوا في عداء عام تجاه العباسيين فمن الممكن ان يكون قد بدأ في بعض الاوقات ان الطرفين كانا يعملان وفقا لاستراتيجية مشتركة .[1] وهذا ما نختلف به تماما معه فلا حوادث تشير الى انه تم تنسيق بين الفاطميين والقرامطة وانما مجرد تكهنات ، في بداية الحركة القرمطية في البحرين كان دعاتها يعتبرون عبيد الله المهدي هو صاحب الزمان وكانوا يظهرون لهم الولاء والطاعة كما يشير لذلك بندلي جوزي في ص ٢٠٤ ، الا انهم فيما بعد عرفوا ان عبيد الله افاق كذاب لا صلة بينه وبين الامام اسماعيل بن جعفر ، وهذا ما اكتشفه حمدان وتلقاه عنه ابي سعيد الجنابي مما يبرهن ابتعاده عن الدولة الفاطمية ، وتأسيسه لدولته بعيدا عن الفاطميين ورؤاهم . بل وصل الامر الى ان الحسن الاعصم كان مقربا الى الدولة العباسية ومحاربا للفاطميين في مصر .

---

[1] - دفتري، م س، ص ٤٤

٢- نهاية شأوة القرامطة حسب اشارات ديكويا كانت عام ٣٧٨هـ اي لم يكن لهم قوة تذكر ويرى في قيام احد المصريين بمحاولة كسر الحجر الاسود في العام ٤١٤هـ نتيجة لانبعاث المذهب القرمطي مجددا وثمة نتيجة اخرى اعظم اهمية وهي ظهور الدروز الذين راوا في الحاكم تجسيدا للالوهة ونجد في كتابات هذه الفرقة رسالة بعثت سنة ٤٢٩هـ الى قرامطة البحرين تدعوهم للانضمام الى الدروز وتشير الى ان مذهبهما واحد ....ووصفهم كما راينا ناصر خسرو في العام ٤٤٢هـ ويعلق ديكويا عنهم قائلا " لكن القرامطة ما عادوا اولئك الرجال المرهوبين في البدو والحضر " واستلم دورهم الحشاشين ويعلق "ولعل هزيمة الحشاشين على ايدي التتر هي الفائدة الوحيدة التي نتجت عن غزو هولاكو ، ان تحطيم قوة الحشاشين افقدت القرامطة اهميتها السياسية الى الابد" [1]

٣- لقد انتهت القرامطة بعد قتال وسيطرة كبيرة في الكثير من المناطق الخاضعة للدولة العباسية ، الا انها لم تشتغل على المركز واقصد بغداد، فقد وصلوا بجيوشهم الى تخوم بغداد وهددوها اكثر من مرة ، الا انهم لم ينجحوا باقتحامها ، فظلت ثورتهم على اطراف البلاد الاسلامية مما ساهم في اخمادها على الرغم من طول الفترة الزمنية التي قضتها الحركة القرمطية ، وكذلك فانهم بقوا في هذه الدائرة المغلقة وارتدوا الى دويلة صغيرة في البحرين وانتهى حكمهم في كل المناطق الاسلامية الاخرى .

٤- يؤكد العفيف الاخضر ان القرامطة كحركة هزموا في النهاية لان المجتمع الاسلامي ، بكل بناه الاقتصادية - الاجتماعية الراكدة التي كانت

[1] - ديكويا ، م س، ص١٦١

سندا قويا لقوى الجمود المتحالفة ، لا لقوى النهوض التي كانت تسبح ضد التيار السائد، لم يكن مهيئا لاستقبال حركة علمانية بل ملحدة تنقله من السماء الى الارض ولا لظهور حكومة تنهي المصادرات والضرائب ، ولا لظهور امام يجادل معارضيه في الرأي بغير الجلاد والنطع والسيف وهكذا كان الصراع الطبقي الذي خاضته هذه الحركات لا يهدف عموما الى القضاء على الشروط الاجتماعية القائمة،بقدر ما كان احتجاجا اضطراريا ينقصه التنظيم والبرنامج والشمول والتماسك تارة، او تخذله الشروط الفعلية القائمة تارة اخرى ، فالسلطة القرمطية قامت في الاحساء بقيادة مثقفين راديكاليين في شروطمجتمع صيادين وحرفيين في المدن وبدو وعمال زراعيين في الريف " [1]

٥- نقطة الضعف في هذه الحركات الثورية هي انها لم تحظ بدعم التجار،وكذلك بدعم الفقهاء شرطي امتدادها الكثيف والفعال للمدن الاساسية .

٦- ان الحركة القرمطية كانت محاولة رائدة في تاريخ الاسلام والمسلمين لتحقيق حلم العدالة الاجتماعية بين شرائح المجتمع المحرومة ، هذا الحلم الذي بقي مؤجلا !

غير ان حتمية الصراع التأريخي لم تتوقف.

[1] ـ البيان الشيوعي، م س ، ص ٣١٩

الاعتمادات

١- القران الكريم

٢- ابو حيان التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة تحقيق : احمد امين،ط ٢، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣

٣- الخوارزمي، شرح سقط الزند لابي العلاء المعري ، ج٤

٤- احمد صادق سعد، نمط الانتاج الاسيوي، مجلة الثقافة الجديدة، العدد ١، ١٩٧٦م.

٥- ابن المعمار البغدادي الحنبلي، كتاب الفتوة ، ، تح: د مصطفى جواد، مطبعة شفيق، ١٩٥٨،مكتبة المثنى ، بغداد.

٦- ابن تيمية ، بغية المرتاد ، فتاواه، ج ٥

٧- احمد صادق سعد، في ضوء النمط الاسيوي للانتاج، تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩.

٨- ابن الاثير ، الكامل .

٩- برهان الدين دلو ، مساهمة في إعادة التاريخ العربي الإسلامي، ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، الطبعة الثانية.

١٠- بيري اندرسون، دولة الشرق الاستبدادية ، ت: بديع عمر نظمي، مؤسسة الابحاث العربية ، ط ١، بيروت، ١٩٨٣.

١١- _بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

١٢- برنارد لويس، النقابات الاسلامية ، مجلة الرسالة المصرية ، الاعداد، ٣٥٥-٣٦٢(١٩٤٠).

١٣- تاريخ اخبار القرامطة ، ثابت ابن سنان وابن العديم، ت :الحسن الاعصم القرمطي، تحقيق: د سهيل زكار، دار الامانة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٧١.

١٤- د حسين الهنداوي، استبداد شرقي ام استبداد في الشرق، دار المدى ، بغداد ، ٢٠١٦.

١٥- سعيد الغانمي، اقنعة المقنع الخراساني، التراث الملتبس للمانوية والمزدكية والزندقة في الاسلام، مع تحقيق كتاب "الرد على الزنديق اللعين " للقاسم الرسي، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٦

١٦- عبد اللطيف الراوي، المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٧١.

١٧- علي سامي النشار ، الفكر الفلسفي في الاسلام

١٨- عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، مركز دراسات الوحدة العربية.

١٩- عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠.

٢٠- عارف تامر، القرامطة ، اصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، بلا تاريخ.

٢١-. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق ، بيروت، ط٢، ١٩٧٤
٢٢- الدكتور عبد المحسن عاطف سلام، ابحاث في الادب العربي :الثورة البابكية واثرها في الادب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م
٢٣- القرمطي عبدان، شجرة اليقين، تح: عارف تامر، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٨٢
٢٤- فرهاد دفتري، خرافات الحشاشين، المدى ، ١٩٩٦
٢٥- فيصل السامر، ثورة الزنج، دار احياء التراث العربي، بيروت ، ١٩٧١
٢٦- فؤاد معصوم، رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، دار المدى ، ط ٢، سوريا ، ٢٠٠٣.
٢٧- كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع ج١ ، دار الجمل، بغداد، ٢٠١١.
٢٨- الكرماني، راحة العقل، القاهرة، ١٩٥٠
٢٩- كارل ماركس، انجلز، البيان الشيوعي، ت: العفيف الاخضر ، دار الجمل، بغداد، ٢٠١٥
٣٠- محمد بن جرير الطبري، تأريخ الطبري ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج١٠، ٢٠٠٨
٣١- مسكويه، تهذيب الاخلاق، دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، دار الجمل ، بغداد، ٢٠١١.

٣٢- معن زيادة ، الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الاول، معهد الانماء العربي، ط١ ، بيروت، ١٩٨٦

٣٣- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة ، ط٣، القاهرة ، ١٩٧٩

٣٤- مصطفى النشار ،فلاسفة ايقظوا العالم ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨

٣٥- محمود اسماعيل، الحركات السرية في الاسلام ، رؤية عصرية ، دار القلم، بيروت، اغسطس ، ١٩٧٣.

٣٦- مصطفى غالب، تأريخ الدعوة الاسماعيلية ، ط ٢، دار الاندلس ،بيروت، ١٩٦٥.

٣٧- محمد رجب النجار، العيارون والشطار ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١.

٣٨- ميكال ديكويا، القرامطة، نشأتهم ، دولتهم ، علاقتهم بالفاطميين، ت: حسني زينة، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.

٣٩- ماركس وانجلز، حول الدين، ت:زهير الحكيم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤.

٤٠- المقريزي، اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفا، جمال شيال، القاهرة، ١٩٤٨.

٤١- مصطفى غالب، القرامطة بين المد والجزر، الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ..

٤٢- ثلاثية الحلم القرمطي - الدكتور محي الدين اللاذقاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣م.
٤٣- مي محمد الخليفة، من سواد الكوفة إلى البحرين (القرامطة من الفكرة إلى الدولة)، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٤٤- النويري، نهاية الارب
٤٥- ناصر خسرو ، سفرنامة ، ت : د يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، ١٩٩٣، تصدير : عبد الوهاب عزام، ط ٢، القاهرة.
٤٦- الافحام لافئدة الباطنية الطغام، يحيى بن حمزة العلوي، تح:فيصل بدير عون، راجعه: د علي النشار، المعارف ، الاسكندرية، بلا تاريخ.
٤٧- Lewis, The Origins of Ismailism . a Study of the Historical Background of the Fatimid Caliphare

سيرة ذاتية

المؤلف

ياسر جاسم قاسم

البصرة ١٩٨٢

بكالوريوس في الهندسة الكهربائية / جامعة البصرة

كورس في البحث الاجتماعي والتاريخي .. معهد الدراسات الاستراتيجية في بيروت

صدر له :

- نوري جعفر رجل النهضة والاصلاح/ دار رند / سوريا
- الفكر/ منظمة كتاب بلا حدود
- التنمية وواقعها الاممي/ شبكة الاعلام العراقي
- سلسلة الوعي المجتمعي/ الكتاب الاول/ الوعي والتغيير / دار البصائر /بيروت
- عز الدين سليم جدل الكتابة والتجربة/ البصائر/ بيروت
- عالم داعش / دار جيكور /بيروت
- المنحى الفلسفي في شعر البريكان/ دار جيكور / بيروت
- القرامطة والعدالة الاجتماعية / دار ضفاف/ بيروت
- حب فقط /مجموعة شعرية / البصرة

شارك باصدار الكثير من المؤلفات مع اخرين منها:

- عناد غزوان /شهادات ووثائق/ دار دجلة عمان
- البصرة صراع المركزية واللامركزية / معهد الدراسات الاستراتيجية /بيروت
- علي الوردي والمشروع العراقي/ دار مرتضى / مصر
- الحوار واللاعنف/ بعثة الامم المتحدة في العراق

له قيد الطبع:

- سلسلة الوعي المجتمعي/ الوعي بالعقل
- سلسلة الوعي المجتمعي/ الوعي بالتنوير
- سسلة الوعي المجتمعي/ العلاقة المحورية بين العلوم الانسانية والعلوم التطبيقية
- استقراءات تحليلية في بحوث نوري جعفر التربوية
- النص الديني وازمات المجتمع
- مفهوم العقل في البصرة /خمسة اجزاء
- دراسات في الفكر النهضوي الحديث
- اليات تحرير الفكر وتوجيهه نحو التنوير
- اليات نهضة المجتمع عبر السلوكيات المعرفية
- من تراثنا التنويري ، عهد الامام علي لمالك الاشتر انموذجا
- دراسات في النقد الادبي
- قلائد نقدية في روايات بصرية
- المرأة والخطاب المجتمعي
- عبد الرزاق حسين ،صور نهضوية في شعر ملتزم

- علي الوردي رجل النهضة والاصلاح
- الاصلاح في شعر مصطفى جمال الدين
- الدكتور سليم الوردي وريادة النهضة الفكرية
- الحداثة والتنوير
- هادي العلوي / دراسات لم تحوها اعماله/تحرير ودراسة

عضو اتحاد الادباء والكتّاب العراقيين
عضو نقابة المهندسين العراقيين
ينشر دراساته في الدوريات التالية :
المورد العراقية ، الاقلام، افاق ادبية ، صحيفة المدى ، صحيفة صباح البصرة
لمراسلة المؤلف
jasmyasr@yahoo.com

مراجعة:
باسل محمد عبد الكريم
تولد الناصرية /١٩٥٣
بكالوريوس في الشريعة الاسلامية واللغة العربية / جامعة بغداد/ كلية الاداب